خلف كل طلاق حكاية



وداد الكواري

خلف كل طلاق حكاية

خلف كل طلاق حكاية

خلف كل طلاق حكاية / دراسة
وداد عبد اللطيف الكواري / كاتبة قطرية
الطبعة العربية الأولى / ٢٠٠٢
الناشر / المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث
إدارة الثقافة والفنون
قسم الدراسات والبحوث
الدوحـــة ـ قطـــر
ص . ب : ٣٣٣٢
فاكس : ٤٨٣٠١٢٥ (٠٩٧٤)
تليفون : ٤٨٥٩٨٨٨ (٠٩٧٤)
لوحة الغلاف : سلمان المالك
تصميم الغلاف : محمد حجازي
الصف الضوئي
والتنفيذ الطباعي : مطابع الدوحة الحديثة

خلف كل طلاق حكاية

وداد الكواري

الإهداء

إلى شقيقتي ابتسام.... إلى الحبيبة التي لم أستطع حتى هذه اللحظة تقبل فكرة غيابها عن عيني وشقيت بهذا الغياب، وما زال الألم يعتصر قلبي عصراً كلما تذكرت أنها لم تعد موجودة إلا في ذاكرتي، وأن بيني وبينها حاجزاً لا يمكن اجتيازه إلا بالموت... إلى من أحببتها حباً يعادل حبي لنفسي، أهدي هذا الكتاب الذي لنْ تلمسه أناملها الطيبة، ولن تتمكن من قراءته، ولن تتمكن حتى من ترديد كلمات الشكر وهي التي اعتادت أن تشكر الناس على أقل شيء وأبسط شيء حتى لو كان موجب الشكر مجرد زيارة أو مكالمة هاتفية، وكلي أمل أن تعود عليها هذه الهدية بالخير وهي في مكانها البعيد... البعيد «كأن تكون علما نافعاً بإذن الله» وأنْ يترحم لها كل قارئ كريم، ولأن من الصعب أن أُلخّص ستة وثلاثين عاماً من الطيبة والحب والخير - وهي سنوات عمرها القصير - في سطور، فإنني أكتفي بهذه الكلمات .

وداد الكواري

مشاهد من الحياة الزوجية

ترددتُ كثيراً قبل الإقدام على تأليف كتاب يدور حول الطلاق. لا شك في أن الموضوع مثير ويلقي الضوء على الأسباب المؤدية له من خلال تشابه القصص التي سبقت حدوثه وأدت إليه وقد يفلح في تصوير معاناة الأُسر: الزوج - الزوجة - الأطفال قبل وقوعه وبعده، فيكون هذا التصوير الواقعي بمثابة كابح لمن يجدون أنفسهم عازمين عليه أو هم في سبيلهم إلى الطلاق. إلا أنه ليس بالجديد، إن اكتشاف الأزواج المصاعب التي لابد منها في كل زواج يساعدهم على اكتشاف أنفسهم، إذ يعتقد بعضهم أو أغلبهم في معظم الاحيان أن ما يعانون منه بصفة خاصة أمر لا يطاق، ولابد من وضع نهاية له، والنهاية باختصار هي الإنفصال !!

وهذه النهاية لا تجلب الراحة في الغالب وبالذات عندما يكون هناك طفل أو عدة أطفال تتوزع مشاعرهم بين الأب والأم، وتذبل طفولتهم قبل أن تتفتح بالتنقل بين هذا وتلك!! وفي لحظة انفجار العواطف المكبوته يصرخ الزوج : ما الذي يدفعني للتحمل؟ سأضع حداً لكل هذا، وتنفجر الزوجة : هذا أفضل، فليس للصبر معنى مع رجل مثلك، وينسى الإثنان إن هناك عيوناً بريئة تراقب هذا الحوار بحيرة، وتتحول الحيرة إلى تشتت وعذاب وترسبات نفسية ترافقهم في كل مراحل العمر.. إن قصة الخادم الذي رفض تلميع حذاء سيدِه معروفة إذ قال لنفسه لماذا أعذب نفسي، مادمت سأعاود العمل نفسه في الغد!! رفض الخادم الرتابة اليومية وتوقفه عن العمل الوحيد الذي يحسنه قد يجلب له راحة وقتية، لكنه سيجد نفسه بعد حين عاطلاً وعاجزاً عن سد احتياجاته بما فيها شراء حذاء كحذاء سيدِه الذي أوحى إليه بالعبث والإذلال، وثمة أزواج كثيرون يؤمنون في

أعماقهم بعبثية الزواج وتأسرهم هذه الفكرة وتعميهم عن رؤية أية حسنات أو إِيجابيات في العلاقة التي تربطهم بشركائهم، ولعل قصة اعتماد الرميكية التي روتها كتب التاريخ تلخص هذا المعنى، فهذه الفتاة نشأت في بيئة فقيرة وعانت من الجوع والتشرد والبؤس الكثير، وشاء حسن طالعها أن يقع في هواها أحد ملوك الطوائف في الأندلس وهو المعتمد بن عباد الشاعر الشهير، وانتقلت إعتماد من الكوخ إلى القصر، ومن لبس الخيش إلى التمرغ في الحرير، ومن الجوع حتى الموت إلى الشبع حتى التخمة، وأغدق عليها المعتمد بن عباد من الحب ما لم تكن تجرؤ على الحلم به .

وذات يوم تشهت عليه أن تمشي حافية في الطين كما كانت تفعل مع أترابها في طفولتها البائسة، ولم يتردد زوجها في تنفيذ هذا الطلب، ففرش لها حديقة القصر بالطين المعجون بالريحان والمسك والعنبر، ونثر فوقه الدرر والجواهر ودعاها لتمارس رغبتها، فجاءت تخطو مع جواريها، وتلهين بالمشي في الطين المعطر والتقاط الجواهر والدرر! وبعد فترة قصيرة اختلفت معه في أمور صغيرة ففقدت أعصابها وصاحت قائلة: لم آرَ منك خيراً قط.. فسألها وهو مذهول : حتى ولا يوم الطين؟! والتاريخ المعاصر حافل بهذا النوع من القصص، شرارة غضب عابرة قد تحرق كل الصفحات الحلوة وتهدم المنزل على رؤوس أصحابه، ويرفض كل طرف بعد ذلك أن يتحمل حصته في المسؤولية عن الفشل ويبرئ ذاته مُلقياً اللوم على الآخر.. وليس بمستغرب فيما بعد أن يفشل كل منهما في الزواج الثاني أو الثالث.

ويغدو الأمر شبيهاً بقصة الشاب الذي اعتاد الكسل والبطالة والإعتماد على من حوله حتى ضاق به أهله وطلبوا من قريب لهم ذي نفوذ، توظيفه في عمل لا يتطلب جهداً كبيراً لعلمهم بقدرات ابنهم المحدودة في تحمل

المشاق والصبر عليها، وما كان من قريبه إلا أن عينه في مقبرةِ البلدة كحارس. وبعد أيامٍ اتصل الشاب بقريبه وخاطبه متذمراً: سأترك عملي، إذ تبين لي أن الجميع هنا يرقدون بسلامٍ وراحة ولا أحد يعمل سواي!! وبالطبع الموتى لا يملكون حرية الأحياء في العيش واتخاذ القرارات وتحسين الأوضاع نحو الأفضل، والشاب الكسول هنا قد يرمز للزوج أو الزوجة المسلوبة الإرادة التي تحسد الآخرين على القليل الذي يملكونه ولا ترى في الكثير الذي تملكه ما يستحق الحفاظ عليه، وقديماً أنشد أحد الشعراء وكان محباً لإبنته وتعيساً في زواجه أبياتاً صور فيها الزواج بشكل سوداوي فقال :

أُحب بنيتي فوددت إني ... دفنت بنيتي في جوف لحد

فإما أن أزوجها غنيا ... فأبقى عنده في ثوب عبد

وإما أن أزوجها فقيرا ... فتبقى عنده والهم عندي

وإما أن أزوجها سفيهاً ... فيلعن والدي ويسب جدي

دعوت الله يأخذها قريباً ... فقد كانت أعز الناس عندي

إن مأساة الزواج لا تكمن في أنه لا يُؤمن السعادة المطلقة إذ أن ضمان السعادة أمر مستحيل، وإنما لأنه يحول كل الأشياء التي كانت تبعث المرح والبهجة قبل الزواج إلى قوالب جامدة، ومأساة الأزواج من الجنسين تقبل هذه القوالب والتجمد معها، ولا يمكن التحرر من قتامة الأوضاع حين تسوء إلا بالتفتح والإرتقاء بالوعي، وإذا ما تعذر ذلك وهذا غالباً ما يحدث.. يقع أبغض الحلال.. الطلاق .

وقد اتخذ الطلاق في الأزمنة القديمة: أشكالاً عديدة، فعند المصريين القدماء كان يحق للزوجة طلب الطلاق على أن تلتزم برد قيمة الصداق

وفوقه نصفه، وتفقد أيضاً ثلث أموال الزوج التي كانت ستؤول إليها لو أنه طلقها.. لذا كان المصري القديم يتردد كثيراً قبل الإقدام على الطلاق لأنه سيضطر لدفع خمسة أضعاف صداقها لها، وفي قانون حمورابي كان من حق المرأة طلب الطلاق إذا اختفى زوجها بعيداً عن البلاد نتيجة الأسر عند العدو ولم يترك لها ما يكفي لإعالتها، فيكون من حقها أن تتزوج في غيابه، وإذا حدث وعاد الزوج الأسير تعود إليه تاركة زوجها الثاني وأولادها منه، أما إذا ترك لها الزوج ما يكفيها من النقود فلا حق لها بالإرتباط برجل آخر، وإذا فعلت تكون بحكم الزانية.. وفي اليونان كان الطلاق بيد الزوج ينفذه لأي سبب ودون إجراءات ويتم بطريقة مهذبة، إذ يرسل الزوج خطاباً لزوجته المقيمة معه في الدار نفسها ويأتيه الرد على شكل خطاب منها وهكذا، والخطابات تتضمن التحية والسلام ورغبة الزوج في الإنفصال دون ذكر الأسباب فإذا وافقته الزوجة على طلبه يسقط حقها في التعويض المادي وتعود إلى أهلها تاركة أطفالها في حضانة والدهم، أما إذا اعترضت في خطاباتها للزوج على الطلاق وذكرت أخطاءه فإنه يكون مرغماً على تعويضها مادياً، وكان عقم الزوجة في اليونان القديمة سبباً كافياً لطلاقها لأن الغرض من الزواج عندهم هو الإنجاب ، أما إذا كان الزوج عقيماً فإن القانون يجيز له أن يستعين بأحد أقاربه لينوب عنه في إنجاب الأطفال.

أما الزواج عند الرومان فقد كان يتم بثلاث طرق، فهناك الزواج الديني، والزواج المدني، والزواج بطريق المعاشرة، والطلاق أيضاً يتم بثلاث طرق، فإذا كان الزواج دينياً يمكن إنهاؤه في المعبد بإقامة حفلة دينية وفيها تطلب الزوجة من زوجها الإنفصال عن ديانته وحين ينفذ رغبتها بإعلانه الإنفصال يقع الطلاق، أما الطلاق المدني فيكن عن بيع الرجل لزوجته بشكل علني

إلى مشترٍ صوري، أما طلاق المعاشرة فأمره مختلف، إذ يتوجب شرع العلاقة بين الزوجين قبل الإرتباط، فيكون بمعاشرة الرجل للمرأة عاماً كاملاً دون انقطاع فتصبح بعد هذا العام زوجته، وتنتقل من منزل عائلتها الأصلية إلى منزل عائلته ويصبح الرجل سيدها ولا يحق لها تركه دون رضاه، ويمكنها الحصول على الطلاق إذا باتت ثلاث ليال متواصلة خلال عام المعاشرة خارج منزل الزوجية فتصبح بهذا التصرف مطلقة ولا سيادة للرجل عليها، ولم يكن للزوج حق في الإنفصال عن زوجته إلا في حالة إرتكابها بعض الجرائم مثل الزنا أو تزييف مفاتيح المنزل أو إدعائها الحمل كذباً، ولما لم يكن الطلاق خاضعاً لإشراف الدولة عند الرومان فقد ارتفعت نسبته ارتفاعاً خطيراً حتى إن بعض النساء كن يحسبن أعمارهن بعدد مرات طلاقهن، أما في الهند فالمرأة لا قيمة لها قبل الزواج ولا قيمة لها بعد الطلاق، ويحق للرجل تطليقها لأي سبب بينما لا يحق لها ذلك لأي سبب من الأسباب، وإذا كان المهر الذي دفعته للعريس ضئيلاً فإنها تقاسي الأمرين منه ومن عائلته، وتصبح خادمة وعبدة للزوج وأسرته طوال حياتها مع الخوف الدائم من طردها لأقل تهاون يبدر منها، ولا يختلف وضع المرأة في الهند القديمة عنه في الهند الحديثة، أما الطلاق في الصين فليس شائعاً، إذ أن الصينية تقنع بما يتوافر لها من سعادة وتكتفي بها وتنصرف إلى إرضاء زوجها وتتفاني في خدمته وطاعته وتربية أطفالها منه مؤثرة البقاء معه مهما حدث على العودة إلى بيت أهلها، وفي الديانتين اليهودية والمسيحية لم يكن للمرأة الحق في الطلاق، وفي منتصف القرن السادس عشر حُرم الرجل أيضاً من هذا الحق على يد مجمع القساوسة المعروف بمجمع ترنت، وفي العصر الحديث أُلغي هذا التحريم وأصبح من حق الزوجات الإنفصال بمنتهى السهولة ولأوهى الأعذار.

يكفي أن يقدم الزوج للمحكمة أدلة تثبت أن حرمه المصون تفضل عصفور الكناري عليه، أو أن تعلن الزوجة إن زوجها يزعجها ليلاً بشخيره ويحرمها من النوم الهادئ بعد نهار متعب، وهكذا إلى آلاف الأشياء الصغيرة والتافهة في معظم الأحيان التي تتضمنها قائمة الطلاق. وفي الجاهلية كان الطلاق. بيد الزوج وكان له أن يُطلق زوجته متى شاء وبأي عبارة تفيد الفرقة، ولم يكن للطلقات عدد محدد في حين كان على المرأة عدة بعد وقوع كل طلاق، وإذا أراد الزوج أن ينكل بزوجته المطلقة ينتظر حتى إذا قربت نهاية عدتها أرجعها ثم يطلقها وهكذا عشرات المرات. قال ابن الأعرابي: كان حاتم الطائي من شعراء الجاهلية وكان جواداً يشبه جوده شعره، ويصدق قوله فعله، وكان حيثما نزل عرف منزله، وكان شجاعاً إذا قاتل غلب، وإذا سُئل وهب، وإذا سابق سبق، وإذا أسر أطلق، وكان إذا حل رجب الذي كانت تعظمه مضرفي الجاهلية نحر كلُ يوم عشراً من الأبل وأطعم الناس، وكان قد تزوج ماويه بنت عفير وكانت تلومه على إتلاف المال فلا يلتفت لقولها، وكان لها ابن عم يقال له « مالك » فقال لها يوما: ما تصنعين بحاتم فوالله لئن وجد مالاً ليتلفن، وإن لم يجد ليتكلفن، ولئن مات ليتركن أولاده عالة على قومك، فقالت ماويه: صدقت إنه كذلك، وكانت النساء يطلقن الرجال في الجاهلية، وكان طلاقهن إن يَكنَّ في بيوت من شعر، فإن كان باب البيت من قبل المشرق حولته إلى المغرب، وإن كان من قبل المغرب حولته إلى المشرق، وإن كان مقبل اليمن حولته إلى الشام أو العكس. فإذا رأى الرجل ذلك علم إنها طلقته فلم يأتها، هكذا بدون مشاحنات كلامية تملأ القلوب بغضاً ولا تترك مجالاً لمواصلة الحياة إذا طاب لأحدهما ذلك من جديد، وظل مالك يلح على زوجة حاتم بتطليقه واعداً إياها بالزواج وبتأمين حياة مستقرة لها ولأولادها، ولم يزل بها حتى طلقته،

فأتاها حاتم وقد حولت باب الخباء، فقال حاتم لولده: ياعدي هل ترى ماذا فعلت أمك، فقال: قد رأيت ذلك، فأخذ إبنه وهبط بطن وادٍ فنزل فيه، ولم يعلم أضيافه برحيله المفاجئ، فذهبوا كالعادة إلى خيامه التي إعتادوا الذهاب إليها واجتمع في ذلك اليوم أكثر من خمسين فارساً لم تعرف ماويه.. كيف تطعمهم أو ماذا تقول لهم، فأرسلت جاريتها إلى الرجل الذي شجعها على الطلاق وقالت لها: قولي له إن أضيافاً قد نزلوا بنا فأرسل إلينا بشيء نطعمهم ولبن نسقيهم، وقالت لها انظري إلى جبينه وفمه فإن بادرك بالمعروف فاقبلي منه، وإن ضرب بلحيته على زوره ولطم رأسه فدعيه وعودي، فذهبت الجارية وأبلغته الرسالة وختمت قولها بأن هذا الطلب لن يتكرر مرة أخرى، لأنهم سيعلمون أضياف حاتم بمكانه الجديد الليلة، ولما سمع مالك الكلام لطم رأسه بيده وصاح مستنكراً: إنما لهذا طلبت منها الطلاق من هذا الرجل أخبريها إنني لا أملك ما يكفي لإطعام ضيوف حاتم، فرجعت الجارية وأخبرتها بما رأت وبما قال لها، فقالت لها إذهبي إلى حاتم وقولي له إن أضيافك قد نزلوا بنا الليلة، ولم يعلموا بمكانك فأرسل إلينا بناقة نقريهم، ولبن نسقيهم، فأتت الجارية حاتماً فصاحت به فقال: لبيك قريباً دعوت، فأخبرته بما جاءت بسببه، فقال: حباً وكرامةً، ثم قام إلى الإبل فأطلق اثنين من عقالهما وأخذهما إلى ماويه فلما رأته قالت : هذا الذي طلقتك بسببه تترك أولادنا وليس لهم شيء، فقال: ويحك يا ماويه الذي خلقهم وخلق الخلق متكفل بأرزاقهم.

وجاء الإسلام وحدد الطلاق بإثنتين، قال تعالى: ﴿**الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان**﴾ (١) وابتكر عرب الجاهلية طرقاً

١- سورة البقرة، الآية رقم ٢٢٩

متعددة للطلاق، منها طلاق الظهار إذ يقول الرجل لإمرأته أنتِ عليّ حرام كظهر أمي، فيكون الطلاق أبدياً لا رجعة فيه وجاء الإسلام وأبطله، وهناك أيضاً طلاق الإيلاء وهو طلاق مؤقت، وفي ذلك يقول ابن عباس رضي الله عنهما: كان أهل الجاهلية إذا طلب الرجل من زوجتة أمراً فأبت حلف ألا يقربها السنة والسنتين والثلاث ويدعها وشأنها لا هي أيم ولا ذات بعل وذلك ضراراً وتنكيلاً بها، فأبطل الإسلام ذلك وجعل للقاضي الحق في تطليقها، بعد أربعة أشهر، قال تعالى: ﴿**للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإنَّ اللّه غفور رحيم**﴾[1] ونحن على أعتاب القرن الحادي والعشرين نشهد ثورة في كل شيء في العلوم والطب والفلك والتكنولوجيا والعمارة والفن والأدب والفلسفة، ونتمتع بكل الإمتيازات الحضارية والفكرية ونجوب العالم في ساعات معدودة، ونطّلع على إبداعات المبدعين في يسر توفره أجهزة الإعلام المختلفة، كل هذا التحضر لا يدل على الخلاص من إرث الجاهلية التي تدفع شاباً متعلماً تعليماً عالياً وسخياً في عواطفه وماله إلى الترحيب بمن يصادفه ودعوته للعشاء أو الغذاء والإلحاح في دعوته بقوله: عليّ الطلاق بالثلاثة إن لم تقبل دعوتي، وبالطبع يرضخ الصديق أو الغريب لهذه الدعوة المنفرة في عرضها حتى لا تتفكك أسرة لا يحترم عائلها دعائمها الأساسية، ولا يتحرج من أن يضع دعوة غذاء في كفة وفي الكفة الأخرى زوجته وأطفاله واستقراره العائلي.

وكشفت وزارة الشؤون الإجتماعية اليابانية عن ظاهرة جديدة يشهدها المجتمع الياباني تفيد بأن هناك حالة طلاق كل ثلاث دقائق، وتفيد الإحصائية بأن اليابان سجلت في عام "١٩٩٢" رقماً قياسياً من حيث عدد

١- سورة البقرة، الآية رقم ٢٢٦ (يؤلون : يحلفون على ترك مباشرة زوجاتهم - تربص : انتظار - فاءوا رجعوا في المدة عما حلفوا عليه].

حالات الطلاق، إذ بلغ حوالي مائة وثمانين ألف حالة، وتذكر الإحصائية أن حالات الطلاق لا تشمل الأزواج الشبان وحسب، بل إنها تشمل أيضاً البالغين الذين تتجاوز أعمارهم الأربعين عاماً، وذلك بسبب الإنغماس في العمل إلى حد الهوس، وافتقار الأزواج للعواطف الرومانسية نحو زوجاتهم، وبعد أن كانت الزوجة اليابانية مضرب الأمثال في التفاني والصبر والعطاء، باتت ربما أكثر نساء العالم تردداً على المحاكم والمحامين.

ويبدو أن صبر المرأة اليابانية قد نفد أمام رجل لا يُقدر ميزة الصبر، وأن عطاءها قد جف، وعواطفها تبخرت نحو رجل يأخذ ولا يعطي، وأشارت إحصائية أخرى إلى أن الشعب الياباني يقدس العمل إلى درجة العبادة حتى إنهم رجالاً ونساءً يكرهون الإجازات مما اضطر الحكومة إلى فرضها عليهم كما تفرض الضرائب، وحب العمل أمر رائع وواجب أيضاً، ولكن ليس على حساب الصحة والعواطف والأبناء، ما نفع النجاح المهني عندما يقابله في الناحية الأخرى فشل أسري!! أعرف سيدة تربوية فاضلة تقضي معظم يومها في المدرسة كمديرة، وتنفق معظم راتبها أيضاً في تجميل المدرسة وفي إقامة الحفلات المكلفة في المناسبات، وحصلت هذه السيدة على كثير من شهادات التقدير، وكانت المثل الأعلى في الحزم وحسن الإدارة والنظام، بيد أن حياتها الخاصة كانت في غاية الفوضى والإرتباك، فولدها البكر فشل في دراسته، وترك المدرسة قبل أن يحصل على الشهادة الثانوية، وانضم إلى شلةٍ فاسدةٍ وعرف طريق المخدرات والضياع والولد الآخر مازال يتعثر في المرحلة الإبتدائية ويرسب كل عام، أما إبنتها الوحيدة فلا تكاد تفارق سماعة الهاتف إلا للخروج إلى الأسواق كما تدعي، والكل يعرف ما عدا والدتها بشاعة ما تقترفه في حق نفسها وأسرتها، أما الزوج فقد اعتاد غياب

زوجته وانشغالها عنه، وإستسلم لما يحدث داخل بيته، وليس ببعيد أن يتمرد في أية لحظة ويعلن رغبته في الطلاق والزواج من جديد .

ويعتقد بعض الآباء والفتيات أيضاً بأن ارتفاع قيمة الصداق سيدفع الرجال للتفكير والتردد ألف مرة قبل الإقدام على الطلاق، هذا الإعتقاد لا يقل سذاجة عن الإعتقاد القائل إن كثرة العيال تقُيد الزوج وتمنعه من الهرب من قفص الزوجية، وكانت لنا جارة طيبة القلب وحلوة المعشر لا نسمع لها صوتاً إلا حين يعود زوجها مخموراً ويرفع عصاه عليها ويظل يضربها حتى تفقد الوعي، وكانت تلك الجارة تقيم في منزل أهلها أكثر مما تقيم في منزلها الزوجي، وفي كل مرة يعيدها أو يسترجعها إذا كان قد طلقها تعود معه يحدوها الأمل في أن يعود إلى صوابه، ونصحها المقربون منها باستعمال موانع الحمل فحياتها ليست مستقرة، ولا تبشر بالخير وكانت في تلك الفترة أُماً لطفلة واحدة، لكنها رفضت الإستماع لصوت العقل، وظنت أنه سيرتدع عن غيِّه عندما يجد نفسه مسؤولاً عن عائلة كبيرة، وأنّ وجود الأطفال حوله سينبهه إلى واجباته كزوج وأب، وعندما طُلِّقت جارتنا تلك للمرة الأخيرة كان لها من الأطفال سبع ضاق أهلها بهم وضاقت بها الدنيا وهي ترى نفسها عاجزة عن توفير احتياجات صغارها من ضروريات، إذ لم يكن طليقها منتظماً في دفع نفقة أطفاله، أضف إلى ذلك ضآلة المبلغ المدفوع، وعدم وجود أي دخل إضافي لها، وتهرب أشقائها من مطالبها وضجر والديها من عبء إطعامهما وإيوائها مع أطفالها السبعة، وانتهى بها الأمر إلى إحتراف مهنة التسول خفية! القصد من إدراج هذه القصة الواقعية المؤلمة هو التراجع من أول الطريق والنكوص عن إكماله إذا تعذر ذلك بدلاً من الأوهام والآمال التي تدل الوقائع على أنها لن تتحقق، وأن تقتصر الآلام

على اثنين أو ثلاثة بدلاً من ستة أو سبعة أبرياء لم يأتوا للحياة لينعموا بالأمن والحماية بل ليسبغوا على أبويهم الحماية بأن وجودهم سيمد من عمر زواج انتهى قبل ولادتهم!!

وقيمة الصداق مائة ألف كانت أو مليون ريال لن تمنع وقوع الطلاق، ولا توفر أي ضمان للمرأة لأنها لن تقبض منها ريالاً واحداً، فالرجل بإمكانه أن يلوع المرأة ويفقدها صبرها بالتردد على المحاكم والمماطلة حتى تتنازل عن كل شيء في سبيل الحصول على ورقة حريتها، ما عدا إنَّ الزوجين إلا بضع حالات نادرة حين تسوء الأمور بينهما وتصل إلى أبغض الحلال يتحولان إلى عدوين يكيد كل منهما للآخر، ولا يتبقى من المودة السابقة والعشرة الطويلة أي أثر، ويدفع الجهل أحدهما إلى تصدير تلك الكراهية إلى أطفاله ضد والدته أو والده.

وإذن فالمهر الكبير ومؤخر الصداق المرتفع لا يحققان أية ضمانات للزوجة بالأخص في الوطن العربي، ومن السذاجة أنْ تعتقد الزوجة أي زوجة أن مؤخر الصداق المبالغ فيه يمنع زوجها من التفريط بها، وإصرارها على تذكيره بذلك لا معنى له ولا فائدة، وظلت إحدى الزوجات تتردد على المحكمة كل شهر تقريباً لمدة عام ونصف العام لتحصل على الطلاق، وكان زوجها يتذلل أمام القاضي ويدعي أنه يحبها ولا يستطيع الإستغناء عنها، وخارج دار القضاء يخيرها بين الطلاق والتنازل عن المؤخر أو البقاء معلقة هكذا إلى الأبد، والوضع مازال معلقاً حتى الآن.

وقامت إحدى المجلات الإسبوعية بنشر تحقيق طريف حول هذا الموضوع بدأته بالمشهد الدرامي الآتي: العريس يجلس أمام المأذون وعلامات الإضطراب تكسو وجهه، بينما تبدو علامات الغضب على وجه والد

العروس، يتدخل المأذون قائلاً: وحدوا الله يا جماعة، يرد العريس: ياسيدنا الشيخ لم نتفق على حكاية المؤخر، ينبري والد العروس قائلاً: هذا هو العرف الجاري، وبعدين وبصراحة إصرارك على رفض التوقيع معناه إنك ناوي تغدر ببنتي، تتساءل العروس عن سبب الخصام، يجيبها العريس متذمراً: والدك مُصر على أن أكتب قائمة بالعفش ومؤخر خمسين ألف جنيه، تستعطف العروس والدها: لم كل هذا يابابا؟؟ يصرخ والدها: أسكتي أنتِ، أنتِ لا تعرفين مصلحتك، لم يخاف إذا لم يكن ناوي على شيء ما، وفي حيرة وقلق تسأل العروس: صحيح يا محسن، معقول تفكر مثل هذا التفكير، ثم تنفجر بالبكاء، ويتدخل الشهود والمعازيم لإنهاء الموقف، وينتهي الأمر بإستلام محسن وتوقيعه على قائمة العفش والمؤخر، وتخرج العروس متأبطة ذراع العريس الذي يكاد ينفجر من الغيظ، وتحاول هي إخفاء آثار الدموع التي كادت أنْ تفسد مكياجها، والأصوات من حولهم تهتف بكلمات التهنئة في حين إن البداية لم تكن جيدة.

ويتكرر المشهد الأول في مكان آخر ومع شخصين آخرين، إذ يصطحب مارك خطيبته كلارا في عربة زينتها الورود لإتمام عقد قرانهما، علامات الجدية واضحة على وجه مارك، وفجأة ينحرف بسيارته إلى طريق جانبي متخلفاً عن موكب الزفاف الذي يسبقه، تسأله كلارا: لماذا تركت الموكب، يجيب: ستعرفين حالما نصل، تغمض كلارا عينيها وتستغرق في حلم المفاجأة التي يعدها لها مارك، تتوقف السيارة أمام بناية عتيقة تحمل أسماء مجموعة من المحامين والأطباء والوكلاء التجاريين، ترتسم الدهشة والحيرة على وجه كلارا ومارك يقودها إلى الداخل، وتجد نفسها في مكتب محام يرحب بها ويقدم لها ورقة ما لتقرأها، يعلو الإصفرار وجهها وتهمس

بصوت مرتعش: ما هذا!! يجيبها مارك: عقد أرجو منك توقيعه قبل إتمام إجراءات الزواج!! كلارا: لماذا.. هذا بنود اتفاق مالي بعد إتمام الطلاق، ما معنى هذا؟؟ هل تفكر في الإنفصال قبل أن يتم زواجنا!! يحاول مارك أن يشرح الوضع بقوله: عزيزتي كلارا ارجو أن تنظري إلى الأمر بصورة عقلانية أنا لا أفكر في ذلك ولا أتصور فكرة الإنفصال عنك، ولكن يجب أن نكون عمليين، ماذا لو لم تستقم الحياة بيننا.

يجب أن أضمن ألا يؤثر هذا الإنفصال على استقراري المادي أو أن ندخل في منازعات قضائية بشأن النفقة وتقسيم الثروة: هذا العقد يعطيك الحق في معاش شهري معقول لفترة محددة حتى تستطيعي تدبير أمورك، ويحفظ لي حقي في ثروتي فأنا لست على إستعداد لأن أقتسم ثروتي مع مطلقتي، هيا يافتاتي العاقلة، تبكي كلارا وتستفسر عن مصيرها قائلة: وإذا رفضت توقيع هذا العقد؟؟ ويكون الرد: لا زواج إذن!! ويضطر المحامي لتهدئة الموقف، وتحت وطأة الإنفعال والإحساس بالخوف من مواجهة الأصدقاء المنتظرين، توقع كلارا العقد.

هل يعقل بعد المفاصلة في أمور مادية بحتة أن يهنأ المحبان برومانسية الحب وسعادة اللقاء بعد الشوق والإنتظار؟؟ هل بعد كلمات من مثل سأدفع لك كذا.. وسآخذ منك كذا.. وتوثيقها بالعقود والشهود يصبح للغزل.. أنت روحي، وأنت حياتي، ومن غيرك لا تساوي الدنيا شيئاً أى تأثير حقيقي؟؟ هل تغرد النفس لسماعها وتنتشي بها وقبلها كانت هناك مساومة عنيفة على المهر ومؤخر الصداق والراتب والرصيد وكل ما يتعلق بالماديات!! ما أشبه تلك الذكرى البعيدة التي وقفت فيها أمام تاجر كبير تجمعنا وإياه صداقة عائلية أطلب منه تخفيض سعر بضاعة أنوي شراءها بما

يحدث بين الأزواج الآن في كل زمانٍ ومكانٍ، ذلك التاجر الحريص إلى حد الإبتذال أوقف المناقشة بجملة واحدة أنهت الموقف حيث قال: والله لو طلبتو عيوني لن أبخل بها عليكم، ولكنني لا أستطيع خصم خمسمائة (٥٠٠) ريال مرة واحدة!! يضحي بعينيه، تلك الهبة التي لا تعوض من أجل أوراق اليوم يملكها وغداً لها مالك آخر. أما في أوروبا وأمريكا يقتسم الزوجان الثروة التي يملكها أحدهما في حالة الطلاق، إلا إذا كان هناك إتفاق مسبق يحدد قيمة التعويض ويحسم النزاع، وأذكر بهذا الصدد الممثل العالمي "سلفستر ستالوني" الذي كون ثروته الضخمة والتي تعد بالملايين بجهده وتعبه، تنازل عن نصفها مرغماً بعد طلاقه من زوجته الأولى، وخسر نصف الجزء الثاني بطلاقه زوجته الثانية، وحتى يحافظ على ما تبقى من الثروة أضرب عن الزواج.

التي تدعي الإهتمام بحقوق الإنسان "جين فوندا" فقد ظلت تساوم خطيبها "تيد ترنر" الملياردير الأمريكي ومالك محطة "سي.إن.إن" الإخبارية عاماً كاملاً على مؤخر الصداق حتى وافق الأخير على توقيع عقد تحصل بمقتضاه على ستة ملايين دولار إذا وقع الإنفصال. ومن أشهر عقود الزواج في التاريخ العربي وثيقة زواج رفاعة الطهطاوي التي تعهد فيها لزوجته كتابة بأن لا يسيء إليها وأن يعاملها معاملة حسنة، وإذا نقض عهده يحق لها تطليق نفسها، وهذه الوثيقة التي استمد الشيخ رفاعة بنودها من الدين الإسلامي الحنيف، تؤكد أن الإسلام في رؤيته للعلاقة الزوجية أو في تحديده لآثار الطلاق كان أكثر تقدماً من الغرب، فقد أباح الإسلام للمرأة منذ أكثر من أربعة عشر قرناً أن تشترط في عقد زواجها على الزوج ما يحقق لها الطمأنينة والرضى، سواء من ناحية المهر أو قبول الضرة، كما كفل

لها حق نفقتها ونفقة صغارها، وأباح لها أن تطلق نفسها، فالزواج في الإسلام عقد، والعقد شريعة المتعاقدين كما تنص القاعدة الشرعية، أما التهاون في تنفيذ شروط العقد وعدم تنفيذه في أحيان كثيرة فأمر آخر لا علاقة له بالشريعة الإسلامية، بإختصار نحن في مجتمع الرجل فيه هو الخصم والحكم كما يقال.

ملفات الأحوال الشخصية

ومن ملفات الأحوال الشخصية أورد هذه الحكاية: استيقظت كرامتها بعد سبات، انتفضت كبرياؤها، جمدها الخوف من المجهول، وثلاثة أطفال، وخمسة وعشرون عاماً، وجدت نفسها وبلا مراجعة للنفس أو أي شحنات عاطفية مسبقة تنهال عليه ضرباً، لم تكتف بذلك قذفته بفنجان القهوة الذي اعتادت أن تقدمه له في الصباحات الباكرة وهي مصلوبة لخدمته ومسامات عقلها تتشرب تقريعاته وسبابه المتواصلين وجسدها المخدر بفعل الضرب "بالعقال" عندما كان فتيا وبالعصى الثقيلة التي يتوكأ عليها بعد أن خط الشيب شعره، وتثاقلت خطاه، كانت يده أسبق من تفكيرها وأقوى من ضعفها، رفعت عصاه الثقيلة وأذاقته ربما ولأول مرة ألم الضرب والإهانة، فغر فاه دهشة ثم صرخ وركض إلى الخارج عجوزاً مذعوراً، منظر الدم والثياب الممزقة يستدر الشفقة ويخفي معالم وحشية دمرت كيانها أعواماً طويلة، في ساحة القضاء جلست بسكون، في عينيها حنين لشيء من العدل والإنصاف، قبالتها جلس سجانها الشرير مجمداً، الغرز التي خيط بها جبينه من أثر الفنجان هي الشيء الوحيد الإنساني فيه، أحست وهي ترقبه دون أن ترغب في ذلك حقاً بعبث الحياة التي انصرمت من عمرها، لا أحد لها بعد موت والديها وهو لم يرحم يتمها وانكسارها، تزوجها طفلةً في الثالثة عشر من عمرها، وأسكنها مع والدته وأخوته ومع آذان الفجر تستيقظ لتقوم على خدمة الجميع حتى مغيب الشمس، ثم تتهاوى تحت وطأة صفعات الزوج ومتطلباته كالجثة، في النهار الكل يتابع حركتها الدؤوب بالأوامر، عائشة أحضري هذا، عائشة إفعلي ذاك، أما في الليل فلا أحد يبالي بصراخها ونحيبها وخصلات شعرها التي تتبعثر على السجادة

فتجمعها في قبضة يدها وهي تبكي بعد أنْ يعلو شخير الزوج الظالم، جاء حمد ومن بعده ناصر ثم علي، تفتحت طفولتهم البريئة على والدتهم وهي تهان وتُضرب وتجاهد لكبت صراخها حتى لا تفزعهم، ماتت والدته بعد ولادة طفلها الأخير، وترك إخوته المنزل واحداً تِلو. . الآخر وتفرغ لتعذيبها، كانت أسعد لحظات حياته حين يرى نظرات الرعب في عيون الصغار وهو يمارس استبداده وساديته عليها، عزلها عن البشر، شوه روحها، حطم علاقتها بأطفالها، أبعدهم عنها وهم يعيشون معها تحت سقف واحد، كبروا وهم لا يحترمونها، لا يثقون في رأيها، ولا يخضعون لأوامرها، ويعتبرونها أداة للتنفيس عن فورات الغضب التي تعتري سيد البيت، تزوجوا تباعاً ولم يكن لها أي دور في اختياراتهم وتركوا المنزل الكئيب دون أسف، لم يكن لها ذكريات أمومة لتقتات فيها بعد رحيلهم، جردها من كل شيء كل شيء. . غطت وجهها غمامة من أسى وهي تستمع لصوت العدالة يحكم بينهما: تضربين زوجك، ولي نعمتك، والد أطفالك ألا تخافين الله، ويلك من عذاب الدنيا والآخرة، أهذا جزاء المعروف؟ أرادت أن تقول شيئاً، نهرها القاضي بعنف وأمرها أن ترد لزوجها كل ريال دفعه لها وتعيد له المصوغات التي استولى عليها بعد زواجه منها وأنكرها. .

وبعد خمسة وعشرين عاماً خسرت فيها الصحة والعمر والكرامة وجدت نفسها في الشارع!! ويقول الرسول ﷺ «المسلمون عند شروطهم إلا شرطاً يحرم حلالاً أو شرطاً يحلل حراماً» وعند عقد الزواج تشترط بعض الفتيات شروطاً معقولة لا تسيء لأحد، كأن يسمح لهن بزيارة أهلهن بانتظام، أو الإنفراد بمسكن مستقل أو عدم زواج أزواجهن مرة أخرى. . إلى آخر هذه الشروط المقبولة، ولكن هل يلتزم الأزواج بهذه الشروط التي تسجل في

المحكمة بحضور الشهود والقاضي ويتعهدون بالإلتزام فيها؟ في الحقيقة لا! وعلى أحسن تقدير نادرون هم الذين يوفون بوعودهم، وعدم الوفاء هذا يجردهم من كل قيمة في نظر المرأة، حتى لو قابلت هذا النكران بالإستسلام تقول زوجة: إشترط والدي على الرجل الذي سيصبح زوجي أن يدعني أكمل تعليمي، وكنت قد أنهيت المرحلة الثانوية وأستعد لدخول الجامعة، ورغم أنني حصلت على مجموع عالٍ يؤهلني لدراسة طب الأسنان التي كنت أحلم بها فإنني رضخت لرغبة الأهل وزففت إلى الرجل الذي اختاروه لي وكلي أمل بأن يعوضني عن الآمال التي لم تتحقق، وتحطمت الآمال الواحد تلو الآخر على يد زوجي العنيد، منعني من إكمال دراستي ولم يسمح لي بالعمل، ورفض حتى فكرة الإنتقال من منزل أهله، أشعرني بأنني سجينه دون ذنب اقترفته، وفي كل لحظة كنت ألوم والدي الذي أجبرني على هذا الزواج، وألوم نفسي أكثر لأنني خضعت لهذا الأمر، الحاضر بغيض والمستقبل غامض ومخيف في آنٍ واحدٍ، ولم أجد أمامي منفذاً أمارس فيه حريتي سوى الإمتناع عن الإنجاب وتناول الأقراص خفية، أعلم أنني أرتكب فعلاً غير مستحب، لكنني كنت مضطرة لذلك إذ كيف يمكن أن أسعد أطفالي وأنا تعيسة؟

ولما علم زوجي بأنني أتعمد عدم الإنجاب منه قامت الدنيا ولم تقعد وأعادني إلى بيت أهلي بعد أن ضربني وشتمني، ولم يقف أحد من أهلي إلى جانبي، وها أنذا أدفع الثمن من صحتي وأعصابي فلا أنا زوجة ولا أنا مطلقة، زوجي تزوج مرة أخرى في حين حرمني الكل من الحياة والبدء من جديد!! لماذا لم يلتزم زوجي بالشرط الذي اشترطته؟؟ ماذا كان سيخسر لو أنني أكملت دراستي وساهمت معه في بناء حياتنا الزوجية؟ لماذا يحق

للرجل.. أي رجل.. أن يقهر المرأة ويسلبها حقوقها وإرادتها وآمالها حتى لو كان يصغرها سناً أو إدراكاً أو علماً؟؟ لماذا لا يلتزم الرجل الذي يؤدي الفروض في أوقاتها بتعاليم الإسلام التي أباحت للمرأة حرية القرار والتعليم والاختيار؟ ولماذا بعد كل هذا تكون المرأة هي الملومة؟؟ أسئلة لا تحتاج إلى إجابات لأن الأجوبه معروفة.. وإنما تحتاج إلى وقفةٍ مع النفس.

ويروي الشيخ الجليل والداعية الإسلامي "محمد الغزالي" حكاية الفتاتين اللتين جاءتا لإستشارته، إذ بدأت الأولى بسؤاله: أليس في الإسلام ما يزجر الرجل عن ظلم زوجته ويلزمه حدود الله؟ فأجابها بأنَّ الإسلام بَنِيَّ البيوت على المودة والرحمة ولا يقبل وقوع التظالم فيها وأمر الرجال وهم الطرف الأقوى فقال: عاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً، وبذلك حمل الرجل على أن يكذب مشاعره العجلى إذا زهدته في إمرأته، وأوصاه أن يرتقب من بقائها خيراً فلا يسارع في القطيعة.

وعادت الأولى تقول: زوجي لا يعرف شيئاً مما تقول، إنه يدخل البيت وعلى وجهه بوادر القسوة كأنما يتأهب لمعركة، وهو يزعم إن الإسلام يرى السجود أولاً لله ثم للزوج بعد ذلك، فإذا حاورته تكلم بطرف لسانه، فإذا تألمت لمسلكه استعمل يده في ترضيتي، والغريب أنه لا يطلبني لحاجته الخاصة إلا بعد أذى ومهانة يحملانني على النفور منه، فإذا رأى إبائي قال: الله والملائكة يلعنونك على هذا الموقف الرافض، فهل أنا ملعونة حقاً؟؟ وكانت إجابة الشيخ قاطعة إذ قال: بأن الناشز هي التي تترفع عن إجابة زوجها وهي على خطأ، أما التي ترفض المهانة وتنشد التكريم والتلطيف فإنها على حق والعيب من زوجها.

وكانت شكوى الثانية تتلخص في منع زوجها لها من زيارة أهلها مستنداً على حكاية تقول إن الله أدخل إمرأة الجنة لأنها أطاعت زوجها في عدم الخروج من البيت وتركت أباها يعاني المرض حتى مات دون أن تزوره، وكان ينسب هذه الحكاية للرسول ﷺ، وسارع الداعية الفاضل إلى تكذيب هذا الإدعاء قائلاً: ما أمر النبي بقطيعة رحم ولا عقوق الوالدين، وكان ينبغي قبول الهدية التي قدمها لك والدك، لكن زوجك على ما يبدو غليظ القلب، إن الدين متهم بأنه عدو للمرأة، وهذا كذب، فالدين عدو للإنحراف أياً كان مصدره. من الرجل أو المرأة، وإذا لم يكن الإسلاميون نماذج رفيعة لإسلام فلن ينتصروا في معركة ولن يرتفع لهم لواء وهذه ليست نبوءة داعية بل حقيقة للأسف !! ..

واختلفت الآراء حول الضمانات التي ينبغي الإصرار عليها قبل إتمام الزواج، وهل ينبغي الإطمئنان للرجل المتدين ذي الأخلاق العالية على اعتبار أنه لن يهضم حقوق المرأة زوجته كانت أو طليقته، أم ينبغي التشدد والشدة في التمسك بالمطالب المادية وتوثيقها في العقد الرسمي للزواج؟ وتعلق إحدى المحللات النفسيات على هذا الموضوع بقولها: إن الطلاق يصبح كارثة إذا صاحبته مشاكل مادية.

ومن هنا فإنني أعتقد أن عقد الزواج وسيلة منطقية تماماً لتقليل مشاكل الطرفين، وحصر المتاعب في أضيق نطاق، ويكفي المرء ما يعانيه من مشاكل نفسية وعاطفية بعد الإنفصال، ولا داعي لأن نزيدها بالنزاعات المادية بين الطرفين، وتؤيد إحدى المحاميات البريطانيات الشهيرات الرأي السابق بقولها: إكتشفت من واقع تجربتي أن أهم ما يجب أن يناقشه أي طرفين قبل الزواج هو الأمور المالية، فالحرج في مناقشة هذه الأمور كفيل بأن

يزيد المشاكل تراكماً مما يؤدي في النهاية إلى وقوع الطلاق، فلقد تغير المجتمع والناس، كما إنَّ العلاقات الرومانسية بمفاهيمها الكلاسيكية والبعيدة عن روح عصرنا أصبح مصيرها الفشل.

ويؤكد "رولزفولر" أشهر محام في عالم قضايا الطلاق الآراء السابقة بقوله: إن عقد الزواج وسيلة منطقية ومقبولة لضمان حقوق الزوجين بعد الطلاق، ورأي المرأة الشرقية لا يختلف كثيراً عن رأي بنات جنسها في الغرب، وتحكي طبيبة عربية من واقع تجربتها الخاصة ما حدث معها فتقول: رفضت فكرة الزواج قبل حصولي على الدكتوراه، وكثيراً ما رفضت خُطّاباً مناسبين لي قبل أن أحقق هذا الهدف، وعندما تقدم لي "محمود" وهو طبيب مثلي وتلقى تعليمه بالخارج وافقت عليه على الفور، ووقفت ضد رغبة عائلتي التي طالبته بكتابة قائمة بالعفش والمؤخر، واعتبرت هذه تفاهات لا قيمة لها، وفأل سيء لا يستحب أن أبدأ به حياتي الزوجية، وطمأنت نفسي بأنه حتى لو حدث الإنفصال فسوف يتم بطريقة كريمة لا تتخللها المادية، ومع الأسف لم تستقم الحياة بيننا واضطررنا للإنفصال، ثم كانت المفاجأة القاسية بالنسبة لي عندما وجدت نفسي أدخل في متاهات من المتاعب والخلافات المادية، وساعتها أيقنت تماماً بأن الموقف بعد الطلاق يختلف تماماً عنه قبل الزواج، وأعترف الآن بأني أخطأت خطأً فادحاً يوم استهنت بالعرف الذي سنه من قبلنا، وإن ما قالوه كان بالفعل حصاد تجربة سنوات وسنوات!

وللرجال آراء مختلفة، يقول أحدهم إنه لن يكتب أبداً مؤخراً لأنه يعتبر ذلك إهانة لكرامته كرجل، وآخر يقرر بهدوء: أنا أشتري رجلاً لأبنتي وبصراحة عندما يضايقها سأكون على استعداد لبيع ما أرتديه لأخلصها منه

وأكون أنا الرابح، ويضيف محام كبير معلومةً خطيرةً باعترافه بأنَّ هذا العقد المشروط نذير سوء، وعلى مدى سنوات عمله لم ير عقداً من هذا النوع إلا وسمع بأخبار انفصال الطرفين، ولا ريب إن هناك نسوة حمقاوات كتلك المرأة التي اعتقدت أنَّ مؤخر صداقها الضخم كفيل باخضاع زوجها وانكساره للأبد، فكانت كلما حدث خلاف بينهما تطالبه بالطلاق، وحين يكتم غيظه ويتجنب الرد تتولى هي الرد بقولها "طبعاً لأنك غير قادر على دفع مؤخر صداقي!! ولم يتحمل الزوج أكثر، إستدان وطلقها، ولكن أغلبية النساء مع ذلك يرفضن الطلاق ويتحملن الكثير حتى لا يتعرضن لهذه التجربة المريرة وكانت لي قريبة تحملت من زوجها ما يفوق طاقة أي إنسان مهما كان حكيماً وصبوراً لمدة ثلاثة أعوام، وحصلت على الطلاق بعد سبع سنوات أُخرى مريرة أُعتبرت فيها ناشزاً وأعادت لطليقها كل ريال دفعه دون أن تخصم منه البراءة والعذرية والأعوام التي ضاعت من عمرها، ولما تسلمت ورقة الطلاق بكت كما لم تبك أبداً، سألتها لماذا؟ قالت لا أدرى.. أشعر بالحزن، لم أرد أن أصبح مطلقة!!

ولعل الآباء أدرى بأبناء جنسهم من الرجال، فهم حين يغالون في طلب المهور إنما ينتقمون منهم سلفاً لما سيحدث لبناتهم فيما بعد، وحين يغالون في مؤخر الصداق يقولون لهم بصراحة مواربه نحن لا نثق فيكم هذا كل ما في الأمر!! الضمان الوحيد هو التدقيق في اختيار شريك الحياة.. وشريكة الحياة.. الضمان الوحيد للإستمرار هو توافق العقل والقلب معاً أثناء اتخاذ القرار.. ويحسم رئيس جمعية المأذونين المصرية القضية بقوله: إن المغالاة في مؤخرات الصداق لا مبرر لها في هذا الزمان، وهي تكشف عن عدم صدق النوايا، وإنَّ الناس صارت تنظر للزواج على أنه مسألة تجاريةٌ فيها ربح

وخسارة، فالمهور أو المؤخرات لم تكن في السابق سوى بضع عشرات من الجنيهات، وليس صحيحاً أن المغالاة في مؤخر الصداق تحمي الزوجة، لأنه عندما يقع الطلاق لأسباب تافهة أو قوية فإن الزوج لا يفكر أبداً فيما سيكون ملزماً بدفعه كمؤخر صداق، كما أنه كثيراً ما تكون الزوجة هي الراغبة في الطلاق وتتنازل عن مؤخر صداقها.

في الماضي لم يكن الناس يفكرون بهذه الطريقة، ولا يخطر حتى على بالهم ما يتعلق بالضمانات من أموال أو حلي أو عقار يشترط الوفاء بها إذا وقع المحظور، وإلى جانب ذلك كان زواج زمان أقوى وأنجح من زواج اليوم. أما الأسباب فكثيرة لعل أهمها القناعة والرضى بالنصيب، المهر المرتفع لا يكسر ظهر الرجل كما تعتقد المرأة، كثرة العيال قد تؤجل القرار قليلاً ولكنها لا تمنعه أبداً، أما مؤخر الصداق إذا التزم الرجل بالعقد ووفى به فإنه تعويض مؤقت عن الصدمة والإحتياج المادي والمعنوي، ويقيناً أنه ليس ببلسمٍ شافٍ للشروخٍ التي حدثت بكلمةٍ.. بقرارٍ.. بورقةٍ!! ثم وهذا الأصعب إدانة المجتمع للمرأة المطلقة إدانة تامة لا رحمة فيها ولا استئناف .

وفي هوليود مدينة المال والفن السابع، تنتشر ظاهرة ارتباط النجمات الجميلات برجال أقل منهن شهرة وثروة، وفي المقابل عندما يحصل الإنفصال فإن أغلب هؤلاء الأزواج لا يترددون في طلب النفقة من الزوجة السابقة الشهيرة خاصة وأن القانون الامريكي يسمح لهم بذلك، والأمثلة عديدة، النجمة المعروفة "جين سيمور" تدفع شهرياً مبلغاً قيمته عشرة آلاف دولار لزوجها السابق "ديفيد فلين" كما قامت أيضاً بسداد ديونه وتركت له نصف الأراضي التي تملكها في سانت باربار، والنجمة "جولدي هون" عندما طُلِقَتْ عام ١٩٧٦ من المخرج "جاسي تركيو نيس" دفعت له ٧٥ ألف

دولار.. وبعد ذلك بخمس سنوات طُلِقَتْ من زوجها الثاني "بيل هدسون" وتركت له نصف أملاكها المشتركة التي اشترت هي أغلبها.. وجين فوندا دفعت لطليقها "توم" والذي عاشت معه ستة عشر عاماً ٢٠ مليون دولار.

أما الممثلة الأمريكية "كيم باسنجر" فقد إضطرت عام ١٩٨٨ للتنازل عن منزلها الذي يقدر بـ ٧٠٠ ألف دولار في لاس فيجاس إلى الماكيير "رون بريتون" إلى جانب ٦٤ ألف دولار نقداً في مقابل عدم نشر كتاب يحتوى على أسرارها الخاصة، أما أبرز نموذج لعدم التكافؤ المادي بين الأزواج المشاهير فهو زواج الممثلة المخضرمة "اليرابيث تايلور" من شاب فقير طلقته منذ عدة أشهر بعد زواج لم يدم طويلاً وتركت له عدة ملايين لم يقبل بها وتقول الصحف أنه بصدد مقاضاتها لتدفع أكثر!! وفي العالم العربي الأزواج أكثر تحضراً ورقياً، فهم لا يطالبون الزوجة بنصف ما تملك ولا حتى الربع، ويكتفون بذكرى العشرة وبما دفعوه من مهر مقابل حصولها على الطلاق، حتى لو مضى على عقد الزواج عشرة أعوام أو عشرون عاماً فإن حقهم في استرداد ما دفعوه لا يسقط بمضي المدة !!

وفي عصرنا هذا، عصر الدهشة والنفاق وكل ما هو غريب وعجيب، تقدم شاب ثري لخطبة فتاة يتيمة تعيش في كنف عمها، رآها مصادفة وأعجبه جمالها.. ويبدو أن العم وزوجته لم يعجبهما أن تتزوج الفتاة التي آوياها وهي لم تتجاوز الرابعة عشر من عمرها في حين لم يتقدم أحد بعد لإبنتهما التي بلغت الثالثة والعشرين، ولو اقتصر الأمر على الزواج لهان الخطب، ولكن العريس كان ثرياً ثراءً فاحشاً، ولم تبخل الطفلة بعد زواجها على عمها وعائلته بشيء لكن الغيرة أعمتهما فتعمدا إفساد حياة الطفلة الغريرة التي وثقت بهما، وعملاً بنصيحة زوجة العم بدأت الزوجة الصغيرة

تتمرد على زوجها ظناً منها أنه سيحبها أكثر كما قيل لها، فكانت تخرج بعد خروجه للعمل ولا تعود إلا بعد عودته، تتعمد إهانته أمام الخدم وتهمل في آداء واجباتها الزوجية، وفي نهاية المطاف طلبت منه بناءً على نصيحة من تظنهم أهلها أن يسجل القصر بإسمها أو تعود لمنزل عمها.. وقرنت القول بالفعل، ولأن المعاملة السيئة أضاعت المودة التي كان يحملها الزوج لزوجته الصغيرة فقد ذهب شاكياً لولي أمرها وصارحه بأنه لم يعد يطيق الاستمرار معها، وأنه عازم على تطليقها ولم يحاول العم اللئيم أن يثنيه عن عزمه بل قال له بكل لؤم: لقد أخطأت الإختيار فالفتاة لم تنضج بعد، ونحن لا نريد أن نخسر صهراً طيباً مثلك، ولذا سأزوجك إبنتي بعد أن يتم الطلاق، وهذا ماحدث بالفعل!!

وليس عقد الزواج هو الذي يضمن استمرار العلاقة بين الرجل والمرأة، ولا يكفي وجود بعض الضمانات كالحب والرغبة أو الإعجاب للحكم على ديمومة هذا الزواج ونجاحه، إذ غالباً ما يتجاهل الخطيبان أموراً صغيرةً ودلالات واضحة تحمل في طياتها صافرة إنذارٍ عالية النبرة تحذر من الاستمرار وتدعو للإنسحاب، وتعترف مطلقة وأم لطفل بسذاجتها حين تغاضت عما أسمته بملاحظات تدل على الجشع كان خطيبها يرددها على أسماعها أثناء كل زيارة يقوم بها، إذ كان شديد الإهتمام برصيدها في البنك وبكيفية إنفاقها لرواتبها، وإصراره فيما بعد على إتمام الزواج بسرعةٍ وقبل أن يتسنى لها التمتع بفرحة الإستعداد كعروس بشراء العطور، والملابس والمباهج الأخرى التي تأجلت بقرارٍ منه، وأقنعت نفسها بأن استعجاله إتمام الزواج دليل شوق وحب.

وتم الزواج بعد ثلاثة أسابيع من عقد القران، واتضح لها بما لا يقبل

الشك أنما وقعت في فخٍ الخروج منه صعب والبقاء فيه أصعب، في البداية استعاد مهرها الذي لم تنفق منه إلا القليل بحجة أنه مرهق بالديون ولن يتمكن من إسعادها وهو تعيس ومثقل بالهموم، ثم أقنعها بعمل توكيل يخوله السحب والإيداع لكونه لا يوافق كرجلٍ شرقي على تردد زوجته على البنوك، ولما بدأت بذرة الأمومة تكبر بداخلها أوهمها بضرورة التخطيط لمستقبل الطفل القادم بتأمين مشروع مدروس تتحول أرباحه إلى دفتر التوفير الذي سيكون بإسمه، ومن أجل هذا المشروع باعت حليها، ووقعت على أوراق القرض البنكي واحتفظ الزوج بالنقود، وثارت الأم حين أسرت إليها ابنتها بما تتعرض له من ضغوط تشقيها، وبررت الفتاة خضوعها بعدم رغبتها في الطلاق، إذ أن زوجها يشتعل غضباً عندما تناقشه في الأمور المادية، ويذكرها بأنه الرجل وليست هي وإذا لم تقبل بهذا الوضع فلتعد إلى أهلها، وجاء الطفل إلى الدنيا ولم تعد قادرة على التحمل أكثر، فلا الصمت ولا الدموع يخففان من سخطها المتزايد لضيق يدها وعجزها عن توفير ما يحتاجه صغيرها من ضروريات، وعذابها المحصور بين جدران الحجرة الوحيدة التي تعيش فيها، وعذابها بين أشقائه وزوجاتهم ووالديه في منزل واحد، وتبرمه الزائد وصراخه كلما طالبته بنقود من أجلها ومن أجل طفلها، وكان الحل الوحيد هو الطلاق، ولما كانت هي التي تريد ذلك طالبها القضاء بإعادة كل ما دفعه لها، ولم يكن لديها ما تدفعه، غير أن والدها لم يتخل عنها وتكفل بدفع المطلوب بعد عناء، وحصلت على الطلاق ومعه ديون البنك لمدة عامين !!

وتروي سيدة قصة إبنها مع الفتاة التي وقع في غرامها وأصر على الإرتباط بها رغم تخوف شقيقاته من ذلك، إذ أن تلك الفتاة كانت صعبة

المراس لا تتردد في إقفال سماعة التليفون في وجهه في أية لحظة يختلف فيها معها، وتتهرب منه عدة أيام بشتى الطرق وتتركه يثور ويستعطف ويعتذر حتى لو كان على صواب وكانت هي المخطئة، وكانت تلجأ إلى الإعتصام في منزل والدها لأيام عند نشوب أي خلاف أو اختلاف في الرأي حتى يئس الزوج من إمكانية العيش والتفاهم مع امرأة يمكن أن يطلق عليها علمياً المرأة الصواب، والمرأة الصواب والرجل الصواب هما الأكثر تعرضاً لخيبات الأمل والتفكك الأُسري.

وأول من أثار الإهتمام بهذا النمط من البشر هو مؤلف القصص الخيالي "فان فوغت" عند دراسته لأسباب الطلاق، إذ لاحظ أن هناك نمطاً من الناس لا يعترف بخطئه تحت أي ظرف، فإذا كان هناك ما يجعله قلقاً ومتقلباً فإنه يبحث عن شخص يلومه ويصب غضبه عليه، وهو لا يعترف إطلاقاً بأنه يمكن أن يوجه إليه اللوم، إنه مع الغرباء أو الزملاء في العمل يبدو عادةً إنساناً معقولاً، وعندما يكون الأمر خاصاً بأقرب الناس إليه "زوجته مثلاً" يصبح هتلراً صغيراً، ومثل هذا السلوك غالباً ما يؤدي إلى نزاع في الأُسرة وإلى طلاق، والمجتمع الخليجي مدان إلى أبعد حد في تفريغ الذكر الصواب، فالأسرة التي تُنشئ طفلها منذ الصغر على أنه أفضل من شقيقته، وله حقوق وامتيازات تفوق حقوقها وامتيازاتها، بل وتسمح له أحياناً بالتسلط ولعب دور الرجل الصغير لأخت قد تكبره بسنوات عديدة، إنما يعدونه للفشل في حياته ويحرمون أطفاله من العيش في بيت تظلله السعادة والمساواة في الحقوق والواجبات!! إنهم يشوهونه داخلياً بعاطفةٍ بلهاء تحوله إلى طاغية أو مستهتر، ومن السهل معرفة هذا النمط من البشر برصد إنفعالاتهم حين يستثارون، إذ يفقدهم كل قدره على التفكير أو التصرف

السليم، وتجدهم يتخبطون ويصدرون الأحكام بدون تروٍ وتستبد بهم رغبة في الإنتقام والتدمير بقساوة شديدة، هذا النوع يميل إلى الخيانة إذا كان متزوجاً وإلى الغدر إذا كان عازباً، ومن الصعب على أي إنسان العيش مع "الذكر الصواب، أو الأنثى الصواب".

كما أن محاولات الإصلاح أو التغاضي عنه أو عنها تبدو عقيمة، إذ أن هذا النوع المؤذي لا يستطيع التوقف عن الإيذاء وإرغام الآخرين على التشكل حسب حالته النفسية والعقلية، وأحدث طلاق تناقلته وكالات الأنباء مؤخراً بطلته أُنثى عصابية عنيفة لم تتحرج تعنيف زوجها في يوم الزفاف لتأخره عن إحضارها من صالون التجميل، وفي الفندق الفاخر لاحظ المودعون إنَّ العريس متجهم ومقلوب السحنة وفسروا ذلك بالإعياء الطبيعي الذي يعاني منه العروسان في يوم العمر، تتابعت فصول العرس من رقص وغناء ومشاعل إلى أن تقدم الساقي يحمل كؤوس الشراب التقليدي للعروسين وطلب من كل منهما أن يسقي الآخر من كأسه حتى تلتقط عدسات المصورين لحظات الفرح التذكارية، وحين هم العريس بذلك تساقطت بعض القطرات على ثوب العروس رغماً عنه ففقدت العروس أعصابها وصرخت في وجهه: هل أنت أعمى.. هذا الفستان كلفني خمسة عشر ألف جنيه، ووجم الحضور إثر هذا الإنفعال المباغت، ووجد العريس الشجاعة على رفض هذا السلوك علناً وقبل الدخول في القفص الزوجي بإعلانه وعلى رؤوس الأشهاد الذين تسمروا في أماكنهم بقوله: أنت لا تستحقين أن أرتبط بك كزوجة، أنت طالق!!.

وبالطبع تحول الفرح إلى مأتم، ومثل هذا الزواج لو تم فعلاً لإنتهى بالطلاق بعد عام أو عشرة أعوام وتمديد عمره بالمسكنات لن يهبه الصحة

ولا العافية، مهما حاول الطرف المجنون في العلاقة، وقد يترتب على استمراره المؤقت إنجاب أطفال أبرياء سيحملهم الأبوان مرارة الإنفصال، إنَّ مشكلة البعض تكمن في عدم القدرة على الإعتراف بالفشل وإعلان النهاية مبكراً وقبل ضياع العمر وتصدع النفس بالهموم والبؤس اليومي والحلم الأخرق بتحسن الأمور في المستقبل.. ولا شيء يتحسن!!.

إن الشاب الذي يعتقد أنه سيعيد تشكيل محبوبته وتصحيح عيوب تنفره منها بعد الإرتباط يخطئ.. والفتاة التي تظن إنها ستغير من طباع محبوبها وتصنع منه رجلاً سوياً إذا كان مدمناً أو مغامراً أو زير نساءٍ تخطئ أيضاً. المرء لا يتغير لمجرد الرغبة في تغييره، إن الإثنين حين يقدمان على الزواج وهما يتوهمان إن كل شيء سيكون على ما يرام وهما معاً في حين أن لا شيء على ما يرام وهما يتبادلان الحب ويرسمان أحلاماً لحياتهما معاً، والواقع والعقل يقولان غير ذلك، يقعان في مطبٍ عاطفي تترتب عليه آثار ليست بلون الورد حتماً!! وقد دل على ذلك الدكتور "ادموند برجلر" مؤلف كتاب الزواج التعس والطلاق" إذ قال : إن جذور الفشل في الحياة الزوجية تمتد إلى الوراء.. إلى عهد طفولة الزوجين حين استقرت في النفس بطريقةٍ لا شعوريةٍ وأنتجت هذه الصورة سلوكًا عصابيًا وأفضى الأمر إلى اختيار عصابي لشريك الزواج.

ويقرر الدكتور "فرانك كابريو" في كتابه "عش مطمئن النفس" بعد مراجعة مئات السجلات التي تكونت لديه من مرضاه أن الزوجة التي تسعى للطلاق قد نشأت في أسرة حدث فيها طلاق، وكذلك تنطبق هذه الحالة على الزوج الذي يلوم زوجته ويحملها مسؤولية فشل الزواج، ولا يمكن أن يكون مجرد مصادفة أن الأشخاص الذين نشأوا في بيوت منهارة هم أكثر الأزواج تعرضاً للشقاء والتعاسة في الحياة الزوجية، والطريقة الوحيدة المؤكدة لتغيير حالة شريك في الحياة هي أن تغير من نفسك للتوافق معه، تأكد أولاً إنك أديت حق الأداء نصيبك من الصفقة، وأنك بذلت قصارى جهدك كي تجعل شريكك في الزواج سعيداً ثم أبحث معه رغبتك في تنازله عن بعض العادات أو السلوكيات التي ترفضها .

وهناك قناعة أُخرى لا تقل سذاجة عن قناعة تشكيل الشريك وإعادة صياغته بعد الزواج وهي تشجيع الشاب المدمن أو العاطل أو المشاغب على الزواج على اعتبار أن الزواج سيحل مشكلته أياً كان نوعها وسيعيده رجلاً سوياً في المجتمع، وهذه القناعة ليست حصراً على الذكور دون الإناث فكم من فتاة لجأ أهلها إلى تزويجها لعجزهم عن ترويضها أو كبح جماحها، والزواج لم يكن أبداً مصحة نفسية للمرضى والمعوقين خلقياً ونفسياً، ولا يجب إقحام أُناس أبرياء وتوريطهم باسم الزواج في متاعب لا ذنب لهم فيها .

واذكر على سبيل المثال قصة ذلك الشاب اليتيم الذي قهر اليتم بالكفاح الفردي ودون معونه أقربائه الأثرياء الذين كانوا أسخياء في دعمه معنوياً بخلاء فيما عدا ذلك، وعندما أصبح الشاب مرموقاً على قدر لا بأس به من الثراء والشهرة في مجال عمله عرض عليه أحد أقربائه البعيدين وهو

شيخ جليل الزواج من إبنته الكبرى مؤكداً المثل القائل: إخطب لإبنتك ولا تخطب لإبنك، وأفاده قائلاً إنه لولا الحب الذي يكنه له لما رخص بإبنته إبنة الجاه والحسب لرجل جذوره مقطوعة، ووافق الشاب وغروره يصور له الفوز بنسب سيمهد له الطريق إلى مجدٍ أكبر ونجاح أكثر، وأفاق الشاب من أوهامه بعد حين.. الفتاة غريبة الطباع إلى حد يثير الدهشة والرعب أحياناً، شقيقاتها الأصغر تزوجن قبلها بسنوات وبقيت هي شوكة في صدر والديها، وقد حدث أن أنبتها والدتها منذ سنوات بعيده لأمر ما فلم تغفر الفتاة لأمها هذا التهجم على ذاتها وظلت لا تحادثها حتى خرجت إلى بيت زوجها بعد عامين من الحادث، أوصدت عواطفها أمام دموع والدتها واستعطافها واعتذاراتها، حتى عندما مرضت الأم لم تتسلل ولو خلسة للإطمئنان عليها وغرفتها ملاصقة لغرفة أمها، وتقبلت مرضها وشفاءها ببرودة ولا مبالاه..

وأكثر ما يحزن في الأمر إن الشاب الذي تزوجها كان مقتنعاً منذ الأيام الأولى بأن الإستمرار معها مستحيل تماماً لكنه كان يؤجل إتخاذ هذا القرار خوفاً من مصادمات محتملة مع ذويها، في العام الماضي فقط أصبح أباً للمرة الخامسة وهو الآن يفكر وبجدية في الطلاق، وهذا الزواج لن يدوم، عبارة عادية تتردد بين الحين والآخر وتتحقق بعد زمن، هذه النبوءة لاتدل على ذكاء مفرط أو فراسة خارقة للعادة إنها ببساطة شديدة إنطباعات شخص محايد شاهد وسمع الأشياء ذاتها التي سمعها وشاهدها الجميع إلا أن إلتصاقهم الشديد بخصوصياتها لا يتيح لهم الفرصة لتبادل الآراء بصراحة وإبداء الملاحظات ومراجعتها، تماماً كما لو كنت تلصق وجهك بالمرآة فلا تعود تميز شكل الأنف والعينين والشفتين، ويكون انطباعك عن وجهك أنه

غير مريح، لكنك لا تجرؤ على التحدث بشأنه أو ذكر عيوبه.. في حين أن الإبتعاد عن المرآة يمكننا من رؤية الوجه كاملاً ومن كل الزوايا بنقائصه ومميزاته الحسنة، وبدلاً من اعتياد تلك النقائص يمكن التخلص منها أو اخفاؤها على أسوأ تقدير، وهكذا تتحطم سفن الزواج واحدة تلو الأخرى على صخور الواقع الذي تحاشوا قبل الابحار بها دراسة خرائط البحار والمحيطات الممتلئة به دراسة وافية متأنية، ففي فترة الخطوبة ومهما كانت قصيرة لا بد أن تصدر إشارة أو يبدو تصرف، أو تفلت كلمة لها دلالات معينة توضح جزءاً من الصورة التي سيكون عليها الزواج المقبل.

وقلة من الناس من يهتم بجمع أجزاء الصورة لتكتمل في ذهنه معالم الطريق ذي الاتجاه الواحد وحيث التراجع من منتصفه أو آخره سيتسبب في وقوع حوادث وأضرار مادية ومعنوية، والأهل مسؤولون إلى حد كبير عن النهايات المؤسفة للزواج، فحين تعلن الفتاة أو الفتى عن رغبته في إنهاء الإرتباط قبل التورط أكثر "يكون ذلك عادة في فترة الخطوبة" يستميت الأهل والأقارب والجيران وكل من يظن نفسه حكيماً في إجبار الفتى أو الفتاة على تغيير رأيه أو رأيها باللين أو بالقوة ويكون ذلك عن جهل أو خوفاً من نظرة المجتمع ولسانه الذي يتصيد الأخطاء مهما كانت صغيرة ويصورها على أنها جرائم.. في حين أن الجرم الحقيقي هو التدخل في حياة الأفراد بحجة أنهم غير قادرين على تخطيط حياتهم بشكل سليم، وما يزيد الأمر صعوبة من الإنسحاب من شراكة توحي الشواهد بفشلها هو وجود العقد، ففي مصر مثلاً لا يكتب عقد القران إلا في ليلة الزفاف في أغلب الاحيان، وبذلك تتجنب الفتاة لقب مطلقة إذا تم فسخ الخطوبة، ولا تتأثر حياتها كثيراً بهذا الإنفصال، والحال في معظم الدول العربية مختلف، فعقد

القران يتم في الأسبوع الثاني أو الثالث من تقدم الفتى لأهل الفتاة، وبعد العقد يلتقى الإثنان وجهاً لوجه لأول مرة في الغالب، وتجمع بينهما أحاديث متباعدة عبر الهاتف ويكون اللقاء تمهيداً للزواج وليس لاختبار العواطف، والاختلاف أو الإتفاق في الأهواء والمشارب لا يقدم ولا يؤخر إلا في حالات نادرة جداً وينظر إليها الناس على أنها تحدٍ للعادات والتقاليد وسلطة المجتمع، ولا يقال انفصلا لأنهما لم يتفقا بل يقال وبالتحديد إنفصل عنها لأنها كذا وكذا وكذا..

أي إن اللوم يقع على الفتاة بالدرجة الأولى والثانية والأخيرة أيضاً، ويقال أيضاً وباللهجة الدارجة" لو فيها خير ما طلقها قبل أن يدخل بها" وكأن الطلاق إذا حدث بعد الزفاف يكون أهون، والمنطق الآخر البعيد عن المنطق هو إرغام إثنين أحدهما على الأقل لا يتقبل الثاني على المضي في إبرام العقد حتى النهاية بحجة إن كل شيء يتغير بعد الزواج، فالرجل البخيل بموجب هذا المنطق قد يتحول إلى رجل سخي، والمرأة المناكفة ستتحول إلى حمل وديع، وهكذا.

وإذا أوجدنا بعض العذر للأهل.. فلهفتهم على التخلص من مسؤولية بناتهم أو رغبتهم في استقرار أولادهم تدفعهم للتشدد وعدم السماح للطرف المتضرر بالنكوص فما عذر المحبين.. الذين يرفعون راية الحرب والتمرد من أجل اللقاء الأبدي، وبعد عام أو أكثر أو أقل ينتابهم الملل ويعلنون إنهم أخطأوا الإختيار !!

ويتضح كما يقرر علماء النفس إنهم أحبوا لمجرد الحب، بغض النظر عن شخصية المحبوب، وعاشوا في الخيال وأغمضوا أعينهم عن الواقع وحين تجبرهم مسؤولية الزواج ومتطلباته على فتح أعينهم على سعتها ينتابهم الذهول لهول

ما أقدموا عليه!! ويرددون بحسرة "الحب أعمى، أو "عين الرضا عن كل عيب كليله" وعبارات أخرى تبرئهم من خطأهم، الحب ليس أعمى، الأعمى هو من أغمض عينيه بكامل وعيه وبلا أية ضغوط خارجية، الحب لم يكن معاقاً أبداً، المعاق هو من يتصور إنه قادر على تشكيل محبوبه من جديد وتخليصه من كل عيوبه لتوافق معه بعد الارتباط، هل هذا ممكن؟؟

إن الطفل حين يتجاوز الثالثة من عمره يدافع عن حقه في انتقاء ملابسه وألعابه ويقاوم قدر استطاعته آلية الأوامر المفروضة عليه، وكلما تقدم به العمر إزداد صلابة، وتبلورت أفكاره حسب البيئة والتربية والعوامل الأُخرى المكونة للشخصية، القصد إنه إذا كانت هناك صعوبات في إعادة صياغة أفكار أطفال أعمارهم دون العاشرة فكيف يمكن ذلك مع أُناس تعدوا سن المراهقة وتشكلت شخصياتهم وتعددت خبراتهم، وتوقف نمو بعضهم العقلي والعاطفي عند مرحلة ما، واستمر البعض الآخر في تكثيف وعيه باطراد، إن تلك الفتاة التي ارتبطت بعلاقة حب مع شاب صارحها منذ البداية بأنه مدمن للخمر ولا ينوي تركه واحدة من مئات آلاف اللواتي يرمين أنفسهن بثقة أقرب إلى الغرور في طريق مليء بالشوك، ثم يصرخن ويطلقن صرخات الاستغاثة حين تدميهن تلك الاشواك، تلك الفتاة تزوجت وأنجبت وُطلقت، وحين سُئلت عن السبب قالت: إنه رجل مخمور على الدوام والعيش معه صعب ولقد يئست من إنقاذه وإصلاحه، وأُخرى لاحظت غرابة أطوار خطيبها حين يكون في زيارتها، فهو صامت عندما يضمهما مكان واحدٍ، وكلما فتحت معه موضوعاً للحوار ينهيه بتباعده وإجاباته المقتضبه، وحين يحادثها عبر الهاتف تجده شخصية أُخرى غير الذي كان معها منذ ساعات، فهو يضحك ويتحدث ويحاور ويخطط

لحياتهما المقبلة بانطلاق، وأرجعت الفتاة هذه التصرفات الغريبة إلى خجله من أهلها وارتاحت لهذا التفسير، وبعد أن ضمهما بيت واحد اكتشفت أن الرجل الذي ارتبطت به مريض على نحو ما نفسياً، فهو يتجنب النقاشات الطويلة ويصمت كأبي الهول حين تحاول خلق حوار معه حول أي شيء، ويصر على أن تزور أقاربها يومياً، ثم يعود بعد توصيلها إلى المنزل ويبقى مشغولاً بأحاديث تلفونيه مطوله، وفي الليل يتسلل بهدوء ليحتضن سماعة الهاتف كطفل محروم لساعات، يتحدث ويحلم ويضحك ويحب عبر أسلاك الهاتف بحرارةٍ، فقط عبر الهاتف يتحول إلى فارس لا يشق له غبار في العشق والعطاء.. ووقع الطلاق.

في كتاب "لي يدان فقط لكنهما مشغولتان" أوردت الكاتبة ملاحظاتها حول التعجل في الزواج والندم على مهل فقالت: إن مشكلة الغرام هي أن الناس لا يمنحونه ما يكفي من الوقت، فالشاب يكثر من الإستفسار والتردد على المعارض قبل أن يقدم على شراء سيارة، ولكنه يختار أم أطفاله دون أي مجهود يذكر، يكلف والدته أو شقيقته بالبحث بعد أن يزودهما ببعض المواصفات الشكلية، طويلة أو قصيرة ، موظفة أو ربة بيت، متعلمة نصف متعلمة، بيضاء أو سمراء.. إلى آخر هذه المواصفات، والفتاة تتردد طويلاً عند اختيارها قطعة قماش، تتأمل الألوان بعناية وتشغل ذهنها بتصور الموديل المناسب وهكذا، وعندما يتقدم لها شاب مجهول سيشاركها كل كبيرة وصغيرة ويقاسمها الحياة تبهرها فكرة الزواج أكثر من الزوج نفسه!!

عندما قرر الامريكيان "جويل وليدرمان" الزواج قبل خمسين سنة، كان هدفهما يتلخص في ثلاث كلمات: الإستمتاع بالحياة معا، وقوبل هذا

الهدف بالكثير من التعجب والإستخفاف والسخرية من جانب الأصدقاء والأقارب واعتبروهما شابين غير ناضجين ولا يدركان معنى الإرتباط للأبد، وكانت الهدايا التي حصلا عليها تؤكد هذه النظرة، مكنسة كهربائية أوانٍ للطهو، مناشف للأطباق، فازات وفناجين، وكأن الهدايا تقول بالإنابة عن أصحابها: الزواج أمر جاد وليس للهو والمتعه كما تتصوران. ويعلق ليدرمان على ذلك بقوله: إن الفكرة التي آمنا بها لم يكن مصدرها الطيش أو عدم تقدير للمسؤولية، لقد كنا نعرف جيداً أن للزواج جانبه الجاد الذي يتطلب الكثير من المثابرة والإهتمام والتضحية إذا لزم الأمر، وأصر الزوجان مع ذلك على عدم السماح لهذا الجانب بالطغيان على سعادتهما وكل ما تتيحه الحياة من فرص لتحقيقها وهذا لحدٍ ما فعلاه بالتحديد وبنجاح واضح، وبدراسة حالات الأزواج والزوجات الآخرين تبين أن حالات الزواج الناجحة التي تمكنت في الصمود أمام ضغوط الحياة هي ذاتها التي عرف فيها الأزواج هذا الهدف، فحققوا السعادة عندما وضعوا تفاصيل الحياة اليومية في مكانها الصحيح.

وأجاب رجل عجوز لم يتذمر يوماً من ملل الحياةِ الزوجية التي امتدت إلى خمسين عاماً عن سر سعادته قائلاً: إن الحياة مع زوجتي متعة، واعتقد آن لديها المشاعر نفسها نحوي، وأهم شيء ساعدنا في الإبقاء على سعادتنا هو أننا تعلمنا على مدى السنين كيف نميز الأشياء التي يجب القيام بها ولو لم تكن على المستوى نفسه في الأهمية، وتعترف الزوجة بأن الفضل كان لزوجها في تعليمها هذا الدرس بعد شهور قليلة من الزواج، ففي إحدى الأُمسيات كان الزوجان مدعوين إلى حفلة في بيت أسرة صديقه، ولكن ما إن بدأ الزوج يستعد للخروج حتى فوجئ بزوجتة تزعجه بالحديث عن المياه

المتسربة من السخان الذي لا يعمل، وتقترح الإعتذار عن عدم حضور الحفل، رغم أنه كان من الصعب إصلاح السخان أو إستدعاء من يقوم بإصلاحه ليلاً، ويتذكر الزوج العجوز أنه يومها وجد نفسه أمام مسألة بالغة الأهمية واختبار أساسي يمكن أن يحدد شكل حياته كلها، فإما أن يستسلم لهذه المشكلة البسيطة، وإما أن يذهب للحفل الذي كانا يتوقان لحضوره، واختار الزوج الأمر الثاني، وتمكن من إقناع زوجته بأن لا معنى إطلاقاً لأن يزعجا نفسيهما بمشكلة بسيطة يمكن حلها فيما بعد، ويضيعا فرصة رائعة للاستمتاع واللهو معاً.

وكانت هذه نقطة فاصلة في حياة الزوجين، فمنذ ذلك اليوم وعلى مدى خمسين سنة إعتادا اعطاء كل معضلة حجمها الصحيح وعدم السماح لها بأن تطغى على الأشياء الأكثر أهمية، ويقول الباحثان إن أكثر الظواهر شيوعاً في حالات الزواج التعيسة هي انعدام قدرة الزوجين على الإستمتاع معاً لإنشغالهما بمسؤوليات البيت والعمل والأولاد، مما لا يترك وقتاً وطاقة للتمتع بالأشياء المبهجة في الحياة، ربما يكون الوقت مزدحماً بالمشاكل والعمل، إلا أن المشكلة لا تكمن في قلة الوقت فقط، بل بإعتبار الإستمتاع شيئاً ثانوياً بعد كل الأولويات الأخرى والنظر إلى الزواج على أنه سلسلة من المشاكل تحتاج إلى حلول لا حياة كاملة تستحق الفرح والمشاركة، وهناك دون شك مصاعب تعترض الزواج لعل أهمها الإختلاف في الفكر والتفكير، فعند بدء علاقة الزواج يكون كل من الزوجين شخصية متكاملة لها معتقداتها وهواياتها وتصرفاتها الخاصة، وينصح الباحثان كل زوجين بالتخلي عن محاولة كل منهما تغيير الآخر، ويستشهدان على ذلك بتجربتهما الخاصة فتقول جويل: على مدى نحو خمسين سنة لم أستطع

إقناع ليدرمان بتنظيف الحوض بعد حلاقة ذقنه، كما فشلت كل محاولاته لتغيير عادتي في توجيه الأسئلة أثناء مشاهدة فيلم أو برنامج تلفزيوني، لكن هذا لم يمنع جويل وليدرمان من الحياة في سعادة طوال تلك الفترة لأن كلاً منهما استطاع التكيف مع عادات الآخر وتقبلها.

ولا توجد إحصائية دقيقة تبين عدد الأزواج الذين يرون إن من حقهم إعادة تشكيل زوجاتهم وفقاً لأمزجتهم الخاصة، وتلقي الضوء على عدد الزوجات اللواتي استسلمن لمحاولات الطمس والتخريب لنفوسهن في خضوع تام، سيدة أعرفها بحكم القرابة تزوجت عندما كانت في الثالثة عشر من عمرها من رجل يكبرها بعشرة أعوام، وأفنت نصف عمرها في خدمة رجل لم يقدرها يوماً حق قدرها بل كان يعنفها ويقذفها بأي شيء أمامه إذا لم يعجبه الطعام مثلاً ويهجرها في الفراش لأسباب أتفه من هذا السبب، وكان يعطيها مصروفاً ثابتاً كل شهر "خمسمائة ريال" لا تخضع للزيادات أو لمواسم الأعياد وغيرها، وبهذا المبلغ كانت تنفق على احتياجاتها واحتياجات سبعة أطفال منهن خمس فتيات، واضطرت هذه السيدة لتعلم الخياطة في السنوات المبكرة للزواج لتخيط لها ولبناتها ملابسهن، وتعلمت بعض الأشغال اليدوية لتستعين بأجرها على مواصلة الحياة، وغرست في نفوس بناتها منذ الصِغر وأن طاعة الرجل واجبة بلا نقاش وإن هذه هي رسالتهن في الحياة، وإن من الأشرف للمرأة أن تموت على يد زوجها من أن تعود مطلقة إلى بيت ذويها.. وبعد ثلاثين عاماً لفظها سيدها بلا أسف وتزوج من شابة صغيرة وتركها بلا نفقة، فاضطرت لمواجهة العالم والخروج للبحث عن عمل لا يتطلب أي نوع من الشهادات، وبدأت لأول مرة في حياتها تستنكر المقولة التي غرستها في نفوس فتياتها ولكن الأوان كان قد

فات على غرس مفاهيم جديدة، إذ أن ثلاث منهن قد تزوجن من رجال لا يختلفون عن أبيهم كثيراً مع فارق بسيط هو أن والدتهن كانت لا تتوقف كثيراً عند الظلم الواقع عليها بل تراه واقعاً وحقاً من حقوق الرجل وتتقبله كجزء من حياة المرأة وطبيعة الرجل، أما هن فكن يعين ما يحدث لهن ولكنهن لم يعتدن الإعتراض ولا يعرفن كيف يصححن أوضاعهن.. فكان على الصغرى أن تهجر دراستها الجامعية إرضاءً لزوجها لتتفرغ لخدمة والدته وأخواته العانسات، والوسطى اضطرت تحت تهديد بالطلاق أن توكل زوجها في قبض رواتبها مكتفية بما يجود به لها في حدود المعقول من وجهة نظره طبعاً، أما الكبرى والتي كانت موضع حسد الجميع عندما تقدم لها شاب وسيم أنهى دراسته العليا في الولايات المتحدة الامريكية وفاز بوظيفة مرموقة فإنها كانت أتعس من أختيها، إذ استولى زوجها منذ اليوم الأول على روحها وكل ما تملك بموجب عقد الزواج والتوكيل الذي حصل عليه بعد الزواج، وحتى يقلص النفقات ويستفيد من إيجار منزله انتقل للسكن مع والدتها بعد رحيل الأب.

وظلت الأم تخيط لإبنتها كالسابق وتنفق عليها وعلى طفليها وتتحمل غلاظة زوج الأبنة وطول لسانه بصبر، وكان الزوج المتعلم يعلل تصرفه هذا بكثرة أسفاره وقلقه من بقاء أُسرته دون رجل في حين أنه حتى الأيام التي يكون فيها موجوداً كانت الأم هي التي تقوم بدور الرجل في المنزل، الأدهى من ذلك إن الإبنه لم تكن تملك حرية التصرف في أي شيء مهما كان بسيطاً، وإذا سافر الزوج وأصابها أو أصاب أحد من أطفالها مرض مفاجئ لا تستطيع أن تغادر منزل والدتها إلا بعد أن تحصل على الإذن من خلال مكالمة وقد تتأخر أحياناً لأيام!! وإذن هل تتحقق السعادة والراحة النفسية

حين ينزوي أحد طرفي العلاقة في الركن ويكبت آراءه وطموحاته وآماله وانفعالاته تنفيذاً لسلطة الطرف الأقوى، خلاصة القول لا يمكن لأي إنسان عاقل أن يتجاهل حقيقة بسيطة واضحة، وهي أن كل فرد مستقل بذاته، والارتباط بعقد موثق لا يلغي هذه الحقيقة، ولا يجعل الإثنين شخصاً واحداً فمجموع واحد وواحد كما هو معروف الآن وإلى الأبد يساوي إثنين، الزواج ليس سجناً للإصلاح أو مصحة للعلاج، وليس مطلوباً منه أن يكون كذلك، لكنه يجعل لحياتنا معنى، ويخفف من اغترابنا الذاتي،وصدامنا مع العالم الخارجي ويضمن لنا الأمن والحماية وحلم الأبوة والأمومة إذا أحسنا الإختيار.

إن معرفة الناس أمر شديد الصعوبة، لأن الرجال والنساء ليسوا فقط ذواتهم بل هم أيضاً المنطقة التي ولدوا فيها، والبيت أو المزرعة حيث تعلموا المشي والألعاب التي مارسوها أطفالاً، وحكايات العجائز التي استرقوا إليها السمع، والطعام الذي تناولوه، والمدارس التي التحقوا بها، والرياضات التي مارسوها، والشعراء الذين قرأوا لهم، يمكنك أن تعرف الناس فقط إذا صرت "هم" أي أصبحت وأياهم واحداً.

هذه العبارات التي أطلقها الكاتب الامريكي الشهير "سومسرت موم" تدل على مدى الألم النفسي الذي يصاب به إثنان مجبران على العيش معاً، وعاجزان في الوقت نفسه عن التكيف والاندماج العاطفي، وينتظر كل منهما أن يتنازل الآخر عن مبادئه، ويستسلم لآرائه ويطبقها في حياته، ويدركهما التعب واليأس وينهيان هذا الانتظار دون أن يبذلا جهداً حقيقياً للإرتقاء، والجهد يتطلب الإيمان الكامل باستقلالية الشخص الآخر في الأفكار والمشاعر والتصرفات، ودعم شخصيته لا محاولة تحطيمها، وإعادة

صياغة المفاهيم التي ترى أن الزواج سفينة يلزمها ربّان واحد حتى لا تغرق، والأدق أن الزواج أشبه بالقارب الذي يحتاج إلى اثنين يتبادلان التجديف والانسياب بنعومة في ممرات الحياة المتعددة المسالك، وهناك قصة رائعة بعنوان "زوجته شاعرة، سومسرت موم" تؤكد معنى الاغتراب بين زوجين عاشا معاً لمدة أربع وعشرين سنة، وبينما نفساهما تموجان بالمشاعر المضطربة كانت حياتهما كالبحيرة الراكدة هادئة وغير جديرة بالإهتمام، وتبدأ القصة حين يعلم الكولونيل "بيريجرين" وهو يتناول طعام الإفطار في قصره المنيف أن زوجته قد طبعت كتاب شعر واستخدمت اسمها الأول الذي كانت تعرف به قبل الزواج، وأهدته زوجته نسخه تصفحها بلا مبالاة وهو مشغول بإدارة أملاكه وعلاقاته الواسعة في مكتبه الفخم، ثم ألقاها بعيداً وهو موقن بأنها مجموعة سخافات وليست قصائد، وكان الكولونيل في الخمسين من عمره، يجيد جميع الأنشطة الرياضية، ويتمتع بسمعة طيبة ومكانة بارزة في الريف حيث يقيم، وفي المدينة حيث يتردد للهو ولقاء الأصدقاء.

باختصار كان سعيداً وموفقاً في كل أموره باستثناء أنه حرم من الإنجاب، وخاب أمله في السيدة التي ارتبط بها لأنها عاجزة عن منحه ولداً يرث لقبه وأمواله وأملاكه الكثيرة، ولم يخطر على باله قط أنه قد يكون السبب في هذا الحرمان، وفي أعماقه كان يعتقد أن زوجتة" ايفي" تتمتع ببعض المزايا ولكنها لا تصل إلى مستواه الفكري والاجتماعي، فهي تملك بعض الثروة، وتدير بيته بنجاح، وسكان القرية يحبونها كثيراً، وكانت فيما مضى مخلوقاً جميلاً، أما الآن فقد ذبلت ووصلت إلى سن الخامسة والأربعين، أما ما يعتبره مشكلته معها فهو شعوره نحوها بالبرود لافتقارها إلى الحيوية والجاذبية والمرح، وقد كان يظن عندما تقدم لطلب يدها أنه

يحبـهـا أو أنه على الأقل يحبـهـا ذلك الحب الذي لا غنى عـنه لرجل يريد أن يتزوج ويستقر!! ولكـن بمرور الأيام اكتشف أنـهـما مختلفان، وليس بينهـما ما يُشبع العلاقات بين الزوجين من التوافق في الأذواق والهوايات والميول فهي لم تكن تهتم بالقنص، وكان صيد السمك يضايقها ويسئمها، وكان من طبيعة الأمور أن يتباعدا..

ومع ذلك وإحقاقاً للحق كما يقرر في أعماقه فإنها لم تضايقة قط، ولم تحاسبه قط، والأرجح لديه أنها تعتبر انصرافه عنها وسلوكه الطريق الذي تطيب إليه نفسه دون مضايقة من جانبها أمراً خليقاً بارتياحها وامتنانها، فهي لم تحاول مرة أن تذهب معه إلى المدينة عندما ينطلق إليها بين فترة وأخرى لمقابلة عشيقته، ولابد إنها بحكم غريزتها الأنثوية تعلم بمغامراته، لكنها لم تطالبه على مدى السنوات الطويلة بأي تفسير من شأنه أن يعكر مزاجه في شيء من العبث والمتعة.. وكان يلوح له أن زوجتة لو لم تكن امرأة بهذه الطيبة والنقاء والهدوء واعتدال السلوك لكانت أفضل مما هي الآن كزوجة، ولكن لم يكن يرحب أو يطيل الوقوف عند فكرة لا يعلم إلا الله ما ستُسفر عنه لو تحققت، وفي اليوم التالي إضطر عندما جمعتهما مائدة الإفطار إلى أن يقول شيئاً ما ولو على سبيل المجاملة عن الشيء الأحمق الذي تحسبه زوجته شعراً، قال لها: لقد قرأت كتابك ياإيفي.. وإنه لممتع لطيف فهل كلفتك طباعته كثيراً؟؟ وأحس الكولونيل أن زوجته زاهدة في أن يتحدث عن كتابها بشكل سريع ولم يجده جديراً بالمتابعة، وثانياً لكونه رجل معروف ويمتلك أسلوباً في النقاش ولا يسعده أن يتعرض للسخرية من قبل معارفه والنقاد والأدباء حين يعلمون أن زوجته تقرض الشعر وهكذا أقفل الموضوع من جانبه !!

وخلال الأسابيع القليلة التالية وجد الكولونيل أن من اللباقة ألا يوجه إلى زوجته أي سؤال عن صدى الشعر الذي غامرت بنشره، كما أنها هي من جانبها لم تشر أو تتطرق إلى الموضوع قط، فبدا له أن المسألة يجب ألا ينظر إليها على أنها أكثر من حادث مؤسف عابر، اتفقا في صمت على عدم نبش ذكراه إطلاقاً، ولكن حدث في نهاية رواق الصمت هذا شيء غريب، حين ذهب إلى لندن لقضاء عمل من أعماله والتقى بصديقته، فوجئ بها تحدثه عن كتاب زوجتة وعن إشادة أحد أصدقائها من النقاد به، وتعمد الكولونيل التحدث في أمور أُخرى أكثر تشويقاً من الحديث عن هذر فارغ وثرثرة ناضبة وناقد أحمق لا يفقه شيئاً في الأوزان والبحور، وقبل مغادرته المدينة تردد على النوادي الراقية وكان عضواً فيها كلها وأدهشه أن الكل يتحدث عن شعر "إيفي" بتقدير واحترام، بل إن ناقداً معروفاً وصف شعرها بأنه جديد وأصيل وصادق ونادر، ومن باب الفضول أراد أن يطلع مرة أُخرى على أشعار زوجته ليرى ما الذي دفع كل هؤلاء الحمقى إلى إثارة كل تلك الضجة، ولكنه لم يجده، كانت إيفي قد استعادته لأنها موقنه على ما يبدو بأنه غير مهتم بقراءته، وفي أحد الصباحات وهما جالسان على مائدة الإفطار وهو الوقت الوحيد الذي يتبادلان فيه الحديث، طلبت منه أن يصحبها إلى لندن لأن الناشر سيقيم لها حفلة عشاء ستوقع فيها عقداً جديداً مع ناشر أمريكي إشترى حق نشر كتابها في أمريكا، وبالطبع لم يرفض طلبها، ليس لأنه الطلب الوحيد لها منذ زواجها، بل لأنه مندهش ويريد أن يعرف إلى أين ستنتهي هذه المهزلة، وكانت الحفلات التي حضرها الكولونيل مع زوجتة شيئاً أدهشه وبهر أنفاسه.

كان القوم ينهضون لتحيتها ويغمروها بالكثير من عبارات الاطراء والثناء والاعجاب ويقولون له عبارات غريبة مثل: لا شك أنك مزهو

بزوجتك – كم هو كتاب رائع – إنني ببساطة لم أستطع أن أرفع نظري عنه – لقد أعدت قراءته عدة مرات – لقد هز مشاعري وأشعل عواطفي – أما الناشر الانكليزي فقد أخبره بمعلومة لا تقل غرابة إذ قال له: إننا لم نلق نجاحاً في أي كتاب نشرناه عن الشعر خلال العشرين سنة الماضية كهذا النجاح الذي نلقاه في هذا الكتاب، إني لم أر قط تقريظاً وثناءً من النقاد يضارع ما يلقاه هذا الكتاب، وصرح الناشر الامريكي أمام الملأ قائلاً:

إنه عاصفة... زوبعة... وسيكون انفجاراً مدوياً في أمريكا، وكان هناك شيء آخر غامض وغير مريح أزعجه وهو يصحبها بين قوم جنوا أو هم أقرب إلى الجنون، وهو أنه لاحظ أن بعض الذين قدم إليهم كانوا ينظرون إليه ويتأملونه بطريقة غريبة نوعاً، ويتهامسون حين يبتعد عنهم، ولم يستطع أن يستنتج أو يفهم كنه هذا الغموض!!

ولعل هذا ما دفعه إلى الذهاب إلى مكتبة اعتاد أن يبتاع منها كُتبه بين فترة وأخرى ويسأل عن الكتاب بحياء بعد أن أعياه البحث عنه بمفرده، ويخبره البائع أن الطبعة الخامسة قد وصلت منذ قليل ويسلمه نسخاً منه، ويتردد الكولونيل قبل أن يسأل سؤالاً آخر: إلى ماذا يعزى نجاح هذا الكتاب فيما يظن؟ ما أعلمه أن أحداً ما لا يقرأ الشعر هذه الأيام وكان الجواب مفاجأه: إن الكتاب ياسيدي جيد، لقد قرأته بنفسي، فيه القصة التي يحبها الكثير من الناس، إنه قصة فشل، وحين عاود الكولونيل قراءة الكتاب بعد عودتهما إلى قصرهما في الريف توصل إلى فهم ما خفي عليه، لقد أخبره صديق بأن الكتاب يتحدث عن موضوع مثير ينبض بالحيوية والصدق، ولكنه الآن وبعد أن قرأه بتمعن ومن البداية إلى النهاية لا يرى فيه إلا كل ما يقزز ويثير الإشمئزاز.

لقد كانت زوجته تتحدث عن تجربة حب جمعت بينها وبين شاب يصغرها وإنها وأدت هذه العاطفة وتعذبت بوأدها، وفجعت بعد ذلك بموت الرجل الوحيد الذي أحبته، وأعقب هذا التصريح عويل وبكاء لا يصدر إلا من قلب مزقته الأحزان، وحتى هذه الأحزان كانت مضطرة إلى إخفائها وممارسة واجباتها الإعتيادية وكأن شيئاً لم يكن، وبدا له أنَّ عيناه تجريان خلف السطور إنه يسمع صوت زوجته في كل سطر، بل في كل كلمة، كما كانت هناك تفاصيل ليست غريبة عليه، وإذن لا شك إن القصة في الكتاب قصتها هي، لكن كيف؟ ومتى؟ وأين؟ ولم يكن ما بدأ يتصاعد في داخله من مشاعر هو الغضب أو الرعب أو الخوف.. وإنما شيء آخر أقرب إلى الذهول والحيرة، قرر أن يصارحها لكنه أحجم، إنه لا يملك أي دليل على خيانتها له بهذه الصورة الفاضحة على الورق، وكان الموضوع كله غير مفهوم بالنسبة له، وهداه تفكيره إلى اللجوء إلى محاميه الخاص لإستشارته فيما يفعل، وحاول المحامي إقناعه بأن الشعر لا يعدو أن يكون خيالاً جامحاً، لكنه رفض تصديق ذلك وطلب منه أن يتقصى عن ماضي زوجته، لكن المحامي العجوز لم يقبل القيام بهذه المهمة وطلب منه أن يبحث الأمر معها شخصياً، ويرفض الكولونيل هذا الرأي، فيسأله المحامي سؤالاً يربكه: هل تخشى أن تفقدها، ويأتيه الجواب: لست أدري فقد ظللت مؤمناً دائماً بأنها زوجة طيبة فهي تدير البيت بكفاءةٍ نادرةٍ، ولم تعان قط من مشاكل الخدم، ولقد صنعت الأعاجيب في الحديقة وهي رائعة مع جميع القرويين.. ولكن.. ولكن هناك كرامتي أيضاً. كيف أستطيع أن أواصل العيش معها وأنا أعلم أنها لم تكن مخلصة لي؟ ويسأله المحامي الصديق: ولكن هل كنت أنت مخلصاً لها دائماً؟؟ ويتهرب الكولونيل من الجواب ويعاود إتهامه للمرأة التي جعلته موضع سخرية واستغفلته كل تلك الأعوام، ويظل

يكرر: لقد كانت ضربه قاصمة لي أنها لا تنجب أطفالاً، ومع ذلك لم أدعها تشعر قط بأنها خذلتني، لقد أديت واجبي نحوها في الحدود المعقولة، عليها اللعنه، إنها لصدمة قاسية، ثم إنه لا يوجد فيها ما يستحق الإلتفات والنظر، لقد أصبحت سخرية الجميع، ولن أستطيع رفع رأسي في وجه أي مخلوق منذ اليوم !!

لكن المحامي العجوز يحاول إفهامه بتعقل ومنطق أنه إذا كان ما جاء في الكتاب صحيحاً فليس فيه ما يدين "ايفي" لقد خفق قلبها للحب لكنها لم تستسلم له، ثم إن من أحبته قد مات وشبع موتاً، ولابد أنها تحملت ما لا يقدر على تحمله بشر وهي تجاهد لإخفاء شقائها وتسبغ على زوجها وبيتها الحب الذي حرمت منه، ثم ينصحه بقوله: تحدث إلى الناس عن كتاب زوجتك قل لهم إنك فخور بأنك زوجها واسلك سلوك من كان وما زال يثق بها ثقة إلى أبعد حد، وسوف ينسون، وكل شيء سينتهي على ما يرام كلاكما في أواسط العمر، وربما كانت تعاني من أجلك وتبذل في سبيل إرضائك أكثر مما تتصور أو تدرك، ولسوف تشعر بوحدة مريرة من دونها، فلا تنس إذا شئت لا بأس بذلك، ولكن قد يكون من الخير أن تحتفظ إذا استطعت في رأسك الغليظ هذا بحقيقة واحدة، وهي أن في زوجتك من الخصائص والمميزات ما يعجز أمثالك عن اكتشافه أو حتى الإعتراف به !!

وفي نهاية المحاورة الطويلة التي جرت بين الإثنين ينهي الكولونيل المحادثة بقوله: سأعمل بنصيحتك.. لن أفعل شيئاً، ولينظر الناس اليّ نظرتهم إلى مغفل، أو كيفما بدا لهم فالحقيقة إني لا أدري ماذا أستطيع أن أفعل بدون إيفي ولكني أريد أن أقول: إن شيئاً واحداً سوف أظل غير قادر على فهمه ربما إلى أن أموت وهو ما الذي بحق السماء.. ما الذي رآه هذا الشاب في

ايفي مما يستحق كل هذا الحب؟!!

والكولونيل في قصة موم نموذج لكل الأزواج الذين لا يرون أية مزايا في شريكاتهم ويرتبطون بعلاقات خارجية غير شرعية مع نساء قد لا يملكن نصف المزايا التي تحظى بها زوجاتهم، والعكس صحيح أيضاً بالنسبة للزوجات اللواتي يبحثن عن السعادة الوهمية خارج جدران الحياة الزوجية .

أن الزواج ليس فردوساً كله كما تقول الدكتورة "بوني ماسلين" خبيرة علم النفس وشؤون العائلة. وإذا كان لدى المرأة إحساس بأنها لا تنعم بالسعادة مع زوجها وأنها لم تجد في الزواج ما كانت تحلم به فهذا يعني أنها بحاجة لوقفة مع النفس والإصغاء إلى ماسلين التي تقول: لا تنتظري حتى يصبح الوقت متأخراً، ويصبح الألم عظيماً والمرارة شديدة ويتعذر إيجاد الحلول، فهناك عدة زيجات تبدو وكأنها غير متكافئة، لكننا إذا تعرفنا عليها وأحطنا علماً بالمشاكل المختلفة التي تتعرض لها تتوافر لدينا فرص النجاح في حياتنا الخاصة، بمعنى الإستفادة من تجارب الآخرين، وتقدم ماسلين بعض الأنماط السائدة والمنتشرة في المجتمعات النامية والشرقية للزواج.

النمط الأول يكون فيه الزوج شخصاً غاضباً والزوجة من النوع الهادئ واللطيف، تحاول دائماً امتصاص غضب الزوج والتلطيف من مزاجه الحاد، وهذا النوع خادع لأنه يضم في الحقيقة زوجة لا تملك الجرأة للتعبير عن غضبها وتخفي إنفعالاتها وتحرص على تمثيل دور المرأة المغلوبة على أمرها.. وكلما ازداد خضوع الزوجة ازداد استبداد الزوج الذي يجد نفسه مضطراً للمبالغة في هذا الدور العنيف الذي شجعته زوجته على لعبه، وخطورة هذا الزواج تكمن في أن الإثنين يقومان بدورين لا يناسبان شخصيتهما ولا

يلبثان أن يفقدا الرغبة في التمثيل والإستمرار، والحل في هذه الحالة أن يكف الزوجان عن هذه الصفات.. وعلى الزوجة من جانبها أن تبحث وتعرف عما في داخل زوجها من صفات رقيقة، وتحاول أن تخرج بها إلى النور، وأن تترك العنان قليلاً لانفعالاتها حتى لا يتحول الكبت إلى نفور من الشريك.

والنمط الثاني من الزواج يبدأ بحياة قواعدها متشابهة ولكن هذه القواعد تتغير في منتصف الحياة الزوجية، لرغبة الزوجة عادة في التغيير. كرغبتها في العمل أو العودة إلى الدراسة مما يثير الزوج ويجعله يصرح بأنه فقد زوجتة أو على وشك أن يفقدها، بسبب الأفكار الجديدة التي تعشعش في رأسها، وتتصور الزوجة في هذه الحالة أن زوجها لا يحب لها الخير، وأنه أناني ومقصر في حقوقها الزوجية ويرفض مبدأ التعاون، ويطالبها بمايفوق قدرتها كبشر بعد عودتها مرهقة من العمل أو الدراسة، وفي هذه الحال كثيراً ما تكمن المشكلة في أن الزوجة لم تعش حياتها كمراهقة وإنها تقوم بها الآن.. لذلك فهي تنظر إلى زوجها على أنه عدو، وتتعامل معه على هذا الأساس دون أن تدرك ذلك..

أما الزوج فإنه يحاول أن يكون الرجل الجديد الذي يمكن أن يقبل زوجته الجديدة. المرأة العاملة على قدم المساواة معه، ولحل هذه المشكلة على الطرفين أن يكفا عن العراك والجدل، وعلى كل منهما أن يقول بوضوح ما الذي يزعجه.. أي تحدث مواجهة وصراحة بين الطرفين، لأن الزوج في هذه الحالة يشعر بأنه فقد سيطرته على الزوجة التي أصبحت مجرد زميلة له في السكن وليست شريكة لحياته.. وعلى الزوجة ألا تفقد أعصابها أمام هذا الزوج الذي يريد حقوقه الخاصة قبل أن يفلت زمام الأمور من يده..

وعلى الزوجة أن توفر له مناخ الأُسرة بعيداً عن مشاكل العمل أو الدراسة . .

أما النمط الثالث من الزوجات فهو الذي تكرر فيه الزوجة دائماً أن زوجها أهملها وأنه يعمل كل الوقت ببرود وبدون عواطف . . وآليّ الإستجابة، مثل هذه الزوجة عليها أن تجد شيئاً تهتم به في حياتها الخاصة إذا كانت ركزت كل حياتها السابقة على تربية أطفالها الذين كبروا الآن . . أعرف زوجة مزقت شرنقة اليأس بعزم ثابت وأمل بعد كبر الأولاد وانشغل عنها الزوج بتوسيع تجارته، واختارت الإهتمام بحديقة منزلها التي كانت تتباهى بجمالها وحسن تنسيقها من غير أن يكون لديها أية خبرة في البستنة، ومكثت تراقب البستاني فترة من الزمن وهو يعمل وتسأله عن كل ما يلفت انتباهها، وتستفسر عن أنواع البذور ومواسم زرع كل خضار وطريقة الري والتعهد . . واشترت كل الكتب التي تغذي اهتمامها الجديد، وهي الآن ورغم بلوغها الخمسين، نشيطة ومرحة وتبدو كشابة في العشرين، تعمل في حديقتها صباح مساء . . علاقتها مع زوجها وأولادها أصبحت أقوى من السابق بكثير، وهي أيضاً في غاية السعادة.

وعودة مرة أخرى إلى مؤلفة كتاب "ليس فردوساً كله" التي تنصح المرأة بمحاولة تطوير نفسها وشخصيتها بدلاً من تكريس جهودها في محاولة تغيير زوجها أو مهاجمته أمام الأهل والأصدقاء!! ولتعلم كل زوجة أنها الخاسرة إذا بدأت معركة مع شريك حياتها، لأنها مهما تعلمت ومهما ارتقت أعلى الدرجات والوظائف فهي في حاجة دائمة للزوج الذي بدأ معها مشوار العمر . . وبدونه تشبه سيارة فارهة دون مكابح تساعدها في التحكم في عجلة القيادة!! ولخص المرحوم عباس محمود العقاد حكمة السبعين عاماً التي عاشها في كلمات جليلة عندما سُئل عن الحياة فقال :

كنت أحب الحياة كعشيقة تخدعني بزينتها الكاذبة، وزينتها الصادقة، فأصبحت أحبها كزوجة أعرف عيوبها وتعرف عيوبي، لا أجهل ما تبديه من زينه، وما تخفيه من قبح ودمامة، إنه حب مبني على تعرف وفهم، وهذا هو المطلوب في العلاقات الزوجية، المعرفة والفهم وواقعية التفكير، فالرجل حين يقع في الحب تتراءى له محبوبته كالقمر المضيء، وعندما يقترب منها أكثر يكتشف أن قمره يعتريه بعض الشحوب أحياناً، ويبدو غير كامل أحياناً أُخرى وقد يختفي نوره لساعات، وعندما يرتبط بالمحبوبة يتحول القمر في عينيه إلى تراب وحجارة لا سحر فيه ولا شاعرية، ويتطلع بحسرة إلى قمر آخر بعيد المنال.. وتحن الزوجة لكلمات الغزل ومشاعر الحنان التي اختفت من حياتها، ولا يكون أمامها إلا الرضوخ للواقع والإستعاضة بالأحلام أو البحث عن حب جديد يعيد إلى روحها البهجة المفقودة.

وأغلب الرجال لا يخطر ببالهم إن زوجاتهم المُهْمَلات من قبلهم قد يجرؤن على الخيانة، وهذا خطأ فادح أو غباء واضح إذ أن خيانة الرجل المتزوج تعني إرتباطه بامرأة أخرى قد تكون متزوجة إذَن لماذا لا يدور في خلده وهو مشغول عن بيته وواجباته الزوجية إن زوجته قد تنزلق إلى المنزلق الذي إنحدر إليه ودوافعها كثيرة.. وأكد بحث فرنسي لخبراء شؤون الأسرة إن الرجل أصبح يرفض الزواج من المرأة الذكية لأنها تعكر عليه حياته، ويفضل الإرتباط بالمرأه محدودة الذكاء أو الغبية، وأوضح البحث الذي أعدته خبيرة العلاقات الإجتماعية الفرنسية "كاترين" من خلال دراسة أجريت على أكثر من ٥٠٠ رجل من مختلف المستويات الاجتماعية، ومعظمهم في سن الزواج أن السبب وراء رفض الرجل الزواج من المرأة

الذكية وتفضيله الأقل ذكاء عليها هو أن الزوجة الذكية لا تكون مجرد زوجة فقط بل هي كمبيوتر منظم يرصد أخطاءه وتحركاته، وتحاسبه على كل صغيرة وكبيرة، ولا تتغاضى عن أي شيء في تصرفاته.

أرجعت الدراسة السبب في ذلك إلى أن الرجل العصري ما زال يعتنق الآراء والمعتقدات الخاصة بالأجداد الذين يفضلون المرأة الجميلة فقط، ويرفضون تماماً الإرتباط بالمرأة الذكية، وفضّل غالبية الرجال الذين شملتهم الدراسة الإرتباط بالمرأة المحدودة الذكاء التي تتمتع بوجه باسم بصفة دائمة، وتتغاضى عن الكثير من أخطاء الزوج، بينما فضلت الأقلية من ذوي الدخل المحدود الإرتباط بالمرأة الذكية الطموح وذلك حتى تساعدهم على تحقيق أحلامهم وطموحاتهم لأنها يمكن أن تكون العقل المفكر والمدبر لهم.. وفي كلتا الحالتين أثبت الرجال بشكل مبطن أنهم يفكرون في الإبتزاز والإستغلال دائماً، فمن أرادوها غبية ينتظرون منها الطاعة وإحناء الرأس ومباركة النزوات التي لن تتوقف بعد الزواج.

وفي نهاية البحث الفرنسي تقدم الباحثة إلى بنات جنسها نصيحة تقول فيها: إذا أردت الحصول على زوج فابرزي جمالك وأخفي ذكائك وحواء العربية تدرك هذا الأمر وتعيه دونما الحاجة إلى نصيحة من هذا النوع، فالرجل العربي يحب أن تؤكد فتاته قبل الإرتباط قدرتها على الطهو وإدارة المنزل وإسعاده بالإصغاء له والإهتمام به، أما المسائل التي تتعلق بكيانها كإنسانة مستقلة بتفوقها الدراسي أو انجازها الوظيفي أو طموحاتها في الدراسة والعمل فعليها إن تطرقت إليها ألا تسهب في الحديث حتى لا تسبب له الضجر فيطير الرجل من يدها إن كان حبيباً، ويمل منها إن كان زوجاً، وما يثير الإستغراب حقاً أن معظم المجلات والكتب ووسائل الإعلام

المرئية والمسموعة وحتى الخطباء من رجال الدين يركزون على سبل إسعاد الزوج ويقدمون النصائح ويغلفونها بالتهديد والوعيد أحياناً للزوجة لتهتم أكثر بزوجها وسيدها ووالد أطفالها، ولكن هذه النصائح والإرشادات والتهديدات ستكون مقبولة ومنطقية أكثر لو أنها وجهت للإثنين، للزوج والزوجة.. فكيف يكون الرجال قوامين على النساء دون تحملهم مسؤولية إنفصام أسرة وعقد زواج؟ كيف نقول إن الزواج مؤسسة وشراكة ثم نحاسب شريكاً ونترك الآخر. في قرية صغيرة في جبال خورفكان بدولة الإمارات العربية المتحدة تقليد ظريف ومتوارث وله دلالات عميقة. هذه القرية تدعى "نحوه" وبها صخرة بيضاء صماء تزن ثمانين كيلو جراماً استقرت في مكانها أمام المسجد الوحيد في القرية لتكون تحت الرقابة الدائمة من قبل سكان المنطقة، الصخرة اسمها صخرة الزواج ولا يمكن لأي شاب من القرية أن يتزوج قبل أن يحملها أمام الملأ ويثبت قدرته الجسدية والنفسية على تحمل أعباء الزواج والأسرة، وينشأ الأطفال الذكور وهم يعلمون أن الزواج مسؤولية تبدأ بحمل الصخرة فتراهم يتدربون بشكل يومي وشاق منذ الصغر على هذه المسؤولية!! إن المغزى من هذه المعلومة الطريفة واضح ولا يحتاج لشرح فالزواج كالصخرة، لابد أن يحملها الزوج أولاً ثم تساعده الزوجة في حملها ويصدان بها عواصف الحياة ومضايقاتها اليومية !!

وكتاب "الحب رفقة" لتشاك جالاغر جدير بالقراءة والفهم. العنوان يقول الحب اثنان.. يرافقان بعضهما البعض، يتوحدان كثيراً أو قليلاً لكنهما لا يندمجان، لا يتحولان إلى كائن واحد يختفي داخله كائن آخر يشجبه ويعطل وظائفه وتفكيره، الحب اثنان، ومتى تنازل أحدهما عن

استقلاله وهواياته طوعاً وبلا تخطيط أو رغبة لإشعار الآخر بمدى ما يكنه له من وله وحب حكم على العلاقة المقبلة بالفشل الذريع: قد يقبل أحد الطرفين أن تمحي كل عاداته وهواياته وأفكاره، ويكتب على سطور حياته عادات جديدة، وهوايات غريبة عنه، لكن الحروف الأولى ستطل من الصفحات القديمة وتتشابك مع الحروف الجديدة.. والنتيجة أوراق لا تشجع على القراءة، وحياة قد مسخت وتعذر القبول بها، ويتضمن كتاب "الحب رفقه" عدة أجزاء وهي :

١- الإستماع إلى الآخر .

٢- اتخاذ القرارات .

٣- المصالحة بين الزوجين .

وتعد هذه النقاط أهم النقاط التي يرتكز عليها كل زواج ناجح، إذ يقول المؤلف " إن الزواج الناجح لا يحدث هكذا مصادفة إنما بالإرادة والإختيار السليم، ومن أهم القرارت التي يجب أن تتخذها لتحقق زواجاً ناجحاً أن تقرر أن تستمع جيداً إلى الطرف الآخر، لا تقل أبداً: لست أجيد الإستماع إلى الآخرين، فهذا فن تتعلمه إذا أردت، ولا تسمح لمشاغلك أن تكون عائقاً لتواصلك مع نصفك الآخر، الصمت هو العدو الأول لكل علاقة، وكم من صداقة قوية انفصمت عراها وتحولت إلى عداوة قوية لأن أصحابها لم يتصارحوا كفاية، ولم يغلقوا آذانهم عن الأقاويل المغرضة التي تلاحق كل اثنين يجمع بينهما الود والإتفاق، وليس أصعب من أن تقيم مع شخص واحد تأكل وتشرب وتنام معه، وتجهل فيما يفكر وكيف يفكر، وأكثر المنفصلين يرددون عبارة واحدة لم نتفق!!

الأصح أنهم لم يتحدثوا معاً حديثاً مطولاً، لم يترجموا أحاسيسهم إلى

كلمات، لم يعبروا عن خيباتهم وآمالهم بما فيه الكفايه، جمدوا انفعالاتهم حتى كانت لحظة الانفجار إنهم هنا كالأب الذي لم يبخل على وحيده بالمال والصحة، أرهق نفسه في العمل ليلاً ونهاراً لضمان حاضره ومستقبله، كانت عواطفه، الخالصة دافعة للبذل والعطاء، ولكنه لم يجد وقتاً لكي يعبر عن هذه العواطف، أو لعله افترض أنها واضحة وضوح الشمس ولا تحتاج توضيحاً، وعلى فراش الموت إحتضن صغيره الذي أصبح رجلاً، يفخر به وهمس في أذنه: لعلي لم أقصر في تربيتك يابني!! أجابه الإبن: كلا يا والدي، لقد فعلت ما لم يفعله أب، لقد أعطيت وسخيت وتعبت وأرقت ماء وجهك أحياناً من أجلي، وفرت لي كل شيء، ولم تبخل عليّ بالنصح والإرشاد والعنف إذا لزم الأمر، لقد صنعت مني رجلاً يفي بوعده، ويصدق في حديثه، ويحترم غيره، وزرعت في نفسي الثقة في نفسي وفي الناس، وقبل كل هذا في الله عز وجل، لكني أريد أن أسألك سؤالاً واحداً أعرف إجابته لكنني أريد سماعه منك وهو هل كنت تحبني!!

ويقرر "تشاك جالاغر" في الجزء الأول من كتابه "الحب رفقه" أن الإستماع يختلف عن السمع وهو فعل بسيط يكفي لتحققه وجود صوت وأذنين قادرتين على العمل، ويفيد السمع الذي يحصل على معلومات من المتكلم، أما الاستماع فهو عملية معقدة تعني أن تصبح واعياً إلى أقصى حد ممكن بالطرف الآخر.. تسمعه بأذنيك، وتتلمس بعينيك ويديك نبض مشاعره كما يعبر عنها في اختلاجة وجه أو ارتعاشة يد.. الاستماع يختص أساساً بالمتحدث.. مخاوفه.. آماله ومشاعره، ويهدف إلى أقصى تواصل ممكن بين الطرفين، ولكي يتحقق هذا التواصل هناك عدة نقاط يوردها الكاتب بالترتيب التالي: لا تركز على موضوع الحديث: إذ يجب أن يكون

تركيزك على نصفك الآخر.. على تلك النفس البشرية التي تبوح بخباياها لك، ولا تكتفي بالكلمات وإنما تحسس المشاعر الساكنة خلف ما يقال، فقد ترى في العينين المنكسرتين عتاباً، أو تلمس في اليدين المرتعشتين رغبة حارقة في الصحبة، وقد تشعر بدموع خفية تختفي وراء الكلمات، إن ما حدث لحصة وهي شابة مثقفة تزوجت زواجا تقليديا يؤكد أن السمع غير الإستماع، أو أن هناك استماعا زائفاً واستماعاً حقيقياً، وبدأت حصة قصتها بقولها :

بعد أيام من زواجنا حدثت زوجي عن حياتي السابقة في منزل والدي والظلم الذي سحق أنفاسي أعواما طويلة على يد زوجة أب لا ترحم، وطفقت أحكي له التفاصيل الصغيرة المؤلمة التي كنت أعايشها بشكل يومي بصوت مخنوق، ولم أكن أهدف من وراء هذه المصارحة إلى استدرار عطفه، بل كنت أسعى إلى فتح الأبواب المغلقة في حياتي واحداً تلو الآخر حتى لا يستعصى على زوجي فهم دوافعي في التفكير والتصرف في المستقبل، وأيضاً لتكون قنوات الحوار والمصارحة بيننا مفتوحة على الدوام، وفوجئت بزوجي يسأل بعد تلك المكاشفة المؤلمة سؤالاً غريبا أوحى لي بأنه لم يكن يستمع لصوت أحزاني ومعاناتي، ولم تهتز مشاعره لصراحتي، بل كان يسمعني بدافع الفضول وربما لمعرفة نقاط الضعف لدي ليتمكن من إحكام سيطرته كذكر، سألني : ألم ترتبطي بعلاقة حب مبكرة لتهربي من هذا الجو المشحون؟؟

وتوالت الأسئلة على هذا المنوال، وتحولت لحظة البوح إلى تحقيق سقيم، كفكفت دموعي بعد ساعات طويلة قضيتها في قفص الإتهام متهمة بلا جريمة، ولم أعُد لحديث الذكريات بعد ذلك، وتطلعت إلى حاضر جميل

يضمني وشريك العمر بلا أسرار، وأيضاً لم تتحقق هذه الأمنيه، إذا شكوت له تصرفاً غير لائق بدر من زميلة في العمل يتأثر وينفعل ويحقق لا تعاطفاً معي وإنما لأنه يريد أن يعرف لماذا قالت أو فعلت تلك الزميلة ما فعلت؟ لا بد أنني قلت أو فعلت ما يستحق هذا التصرف أو ان للقصة بدايه لم أصارحه بها إذا أخبرته أن والدي مستاء لانقطاعي عن زيارته لا يقتنع ويظل يلح لمعرفة السبب الحقيقي لاستيائه، ولابد أن هناك أسباباً لم أطلعه عليها وهكذا. مضى على زواجنا خمسة أعوام أنجبت خلالها طفلاً واحداً ولم أذعن لرغبته في إنجاب طفل آخر، حياتي معه لا طعم لها ولا معنى، غريبان نعيش تحت سقف واحد، لم أعد أحكي له شيئاً حتى لو كان تافهاً حتى لا أتعرض للوّم والتأنيب والمساءله.. وهو من جانبه لا يجيد غير هذا .

وإلى متى سيستمر هذا الوضع لست أدري؟

وزوج آخر تولاه اليأس من عدم استجابة زوجته لمحاولاته اليومية لمشاركتها إياه طموحه وأحلامه، يحدثها عن همومه في العمل تتظاهر بالإستماع ثم تقاطعه فجأه بسؤاله عن رأيه في وجبة الغداء التي تناولها منذ قليل، يكلمها عن آماله، تعترض تسلسل أفكاره بحديثها عن الأولاد والجيران والجمعية التعاونية حتى فاض به وهرب إلى أخرى تحسن الإصغاء.

ولقد تنبه البروفيسور هانز أستاذ العلاقات الإنسانية في جامعة كيبل الالمانية لما ينتج من موت بطيء ولعلاقة تفتقر الحوار المتبادل، ولفت انتباهه أيضاً نسبة الطلاق المرتفعه في المانيا إذ بين كل مائة زواج ثلاثون حالة طلاق، فقام باجراء دراسة تناولت خمسة آلاف زواج من كل القطاعات، وكانت الخلاصة أن أكثر من نصف المتزوجين والمتزوجات يعيشون كما لو أنَّ بينهم جداراً رغم وجودهم تحت سقف واحد مع تباين الثقافة والثروة والعلم

المستوى الإجتماعي، كما اكتشف أن الذين مضى على زواجهم أكثر من
ربع سنوات.. لا يتجاوز معدل الحديث بينهم العشر دقائق يومياً، وقد
كون عن أمُور تافهة لا أهمية لها، مثل شراء ملابس طفل، وماذا تأكل
غداً، وأين ملابس الرياضة، وقال أخي، وزوج أختي يبلغك تحياته، هذه
الحوارات المبتورة علامات واضحة على وجود خلل في العلاقة، ولاحظ
بروفيسور هانز أن الطلاق العاطفي والنفسي يسبق الطلاق المادي، وحين
يسود الصمت بين الزوجين لا يعود هناك مجال للتفاهم إذا رغب الإثنان في
الإستمرار بإجتيازهما حاجز الصمت.. حاجز اللاعودة.

هناك قلة محظوظة من الأزواج الذين نشأوا في ظل أبوين يملكان تلك
المهارات في حل المشاكل وحسن إدارة الحوار، وأثبتت دراسة أجرتها
اليزابيث دوفان" الباحثة الإجتماعية بجامعة ميتشجان أن تأكيد الإعجاب
والحرص عليه هما أهم وأقوى المؤشرات على نجاح الزواج، والتعبير عن الرضا
والإعجاب يتم بمبادرة من أحد الزوجين، ودون أية ضغوط أو شروط مسبقه،
ويجب أن يكتسب الزوجان مهارة الجدال الهادئ ومعرفة التوقيت المناسب
للنقاش وأكثر الزوجات لا يحسن اختيار الوقت المناسب للنقاش فتسوء
العاقبة وينظر إليهن أزواجهم على أنهن مخطئات حتى لو كنَّ على صواب،
وتوصلت زوجة إلى هذه الحقيقة قبل فوات الأوان إذ كانت تحترق في نهاية
كل أسبوع وهي ترى زوجها يغادر المنزل مسروراً لقضاء يومي الإجازة في
البحر صيفاً وفي البر شتاءً.

ومع كل عودة تعد له كمية لا بأس بها من المفردات القاسية تنفس بها
عن ضيقها لأنانيته ولا مبالاته، وفي البداية كان يهرب من المواجهة

بالصمت أو بالإعتذار، ثم لم يعد يهتم بصراخها وبات يبادلها السباب والإتهامات، ويحسم الأمر بجملة توجعها حتى النخاع: إذا لم يعجبك الحال إذهبي إلى أهلك، تلك السيدة اختلت بنفسها لفترة واستعادت كل مواقفها مع رجلها وحسبت النقاط الايجابية والأخرى السلبية في حياتهما واكتشفت أنها كانت تحول الإيجابيات إلى سلبيات باطراد، أُسلوبها في معالجة المشاكل كان يتسم بالعنف والعصبية مما كان يفقدها كل منطق، وفي نهاية المطاف تجد نفسها على خطأ رغم إنها على صواب، فكرت كثيراً ووجدت أنها تحب زوجها وأطفالها ومملكتها الصغيرة ولكنها عاجزة عن الحفاظ على ما تحب، وقررت شيئاً وكان، عاد الزوج من إجازته الإسبوعيه متعباً ومتحفزاً للعراك مع المرأة التي تكره له الخير، رسم على وجهه تكشيره تتناسب مع الموقف المتأزم الذي سيجابهه في الداخل، واختلط عليه الأمر وهو يراها تستقبله بابتسامة مشرقة وبحيوية إفتقدها منذ أعوام طويلة، عرضت عليه برقة أن يأخذ حماماً دافئاً ثم يتناول العشاء الخاص الذي أعدته من أجله، جمعتهما فيما بعد أمسية حميمة، تلتها أمسيات أخرى قربت بينهما أكثر، شجعته على الحديث عن رحلاته.

وطفق يحكي بإسهاب عن مهارته في قص الأثر وصيد الحبارى والصقور، وأنواع الأسماك التي التقطها بسنارته، وكيف أصبح أُستاذاً في فن الغوص إلى الأعماق، ويوماً بعد يوم بدأ يشعر بالتوتر والضيق وهو يتحدث عن مغامراته الممتعة وزوجتة تصغي إليه باهتمام وعلى وجهها ابتسامةٌ مسكينةٌ، إنتابه إحساس مقيت بأنه رجل أناني يمرح ويلهو ويستحضر ذكريات اللحظات الحلوة التي مر بها في أي وقت وزوجته وأطفاله محرومون حتى من ذكرى ماضية لإجازة، يتحلقون حوله كلما عاد

ويسألونه ببراءة: هل إستمتعت في غيابك؟ يغضبه السؤال ويرى فيه تحريضاً غامضاً ضد حقوقه كرجل حر ليس مجبراً على تقديم كشف أسبوعي بتحركاته الخاصة، الآن فقط وهو بينهم وهم يقهقهون فرحاً لنوادره ومغامراته الصغيرة في البر والبحر أيقن أن سؤالهم لم يكن يحمل لوماً مبطناً بقدر ما كان يحمل من قناعة الإكتفاء بمتعة الإستماع إذا ما تعذرت سبل الإمتاع الحقيقية، ولاحظ بدهشة أن استمتاعه بسرد الحكايات وهو وسط عائلته ومحور اهتمامهم يفوق استمتاعه وهو يمارس تلك الحكايات بين أصدقائه، وشيئاً فشيئاً بدأ يخصص وقتاً لصغاره وزوجته يصحبهم إلى الشاطئ أو الحدائق، ويشاركهم اللعب والفرحة، وربحت الزوجة بدفاعها الهادىء عن هنائها العائلي كل ما خسرته بهجومها العنيف والمتواصل على زوج ليس هناك شك في أنانيته المفرطة، ولكن الإتهام والهجوم لم يفلحا في تغييره أو إقناعه بنبذ ما اعتاد عليه قبل الإرتباط، وهناك حكمة تقول: أن الخير يقهر الشر، وإذا كان كأس الماء عاجزاً عن إطفاء حريق فهذا لا يعني إن الماء غير قادر على إطفاء النار.

إن أهم المؤشرات بالنسبة للزواج خاصة في المرحلة الأولى كما تدل الدراسات هو المؤشر العاطفي، ففي مرحلة شهر العسل يعتقد كل عريس أو عروس أن شريك حياته مكتمل من كافة الأوجه، وأنه متوافق معه، ويماثل الصورة التي رسمها له في خياله، وبالتأكيد فإن الحب ضروري لتنمية الإحساس بالإنتماء والثقة والإخلاص بين الطرفين، ومع ذلك فإن أحد الزوجين ربما يعتقد أن شريكه يخدعه إذا كانت له إهتمامات خارجية أو طموحات معينة، أو عندما يخلق أقنعة الأناقة واللباقة والكمال ويعود كائناً بشرياً عادياً يخطئ كثيراً ويصيب قليلاً، وعملية تقبل الإختلافات والتعامل

معها وتدعيم العلاقة ليست أمراً هيناً لكنه ضروري إذا وضع الأزواج نصب أعينهم مواجهة الصعاب والإستمرار إلى النهاية، أما المرحلة الثانية فتبدأ بالإحساس بالتغيير الذي حدث في تصورات كل منهما تجاه الآخر، ويصطدمان بالواقع فينتابهما القلق، والشك، والإحباط، ويبدأ التساؤل هل هذا هو حقاً الإنسان الذي اخترته؟ وإلى أي مدى كنت محقاً في هذا الإختيار؟ وما يحتاجه الزوجان هنا ليس فقط القدرة على إدراك الإختلافات بل إيجاد طريقة للتكيف معها مؤقتاً ثم التغلب عليها.

إذ حين تتساقط الأقنعة الجمالية عن الإثنين الواحد تلو الآخر، تتساقط معها أوراق الحب والإعجاب والمقاومة، ويبدأ الإثنان تدمير حياتهما بالإنتقاد والتعنيف واللوم وجرح المشاعر ومن ثم الإفتراق، والإبتعاد لبعض الوقت ضروري في هذه المرحلة على ألا يترك كل طرف نفسه ينصاع لنصائح المقربين منه التي تكون عادة نصائح متحفزة تحرضه ضد الشريك وتشجعه على اتخاذ قرار خاطي، ويعد هذا انحرافاً عن المشكلة الحقيقية المتمثلة في (اكتشاف النفس ومحاسبتها ومن ثم تقييم الخلاف والنفس الأُخرى) وعلى كل من ينظر إلى نجاح الآخرين بحسرة أن يتعلم شيئاً من فشله حتى يمكنه فهم أسباب النجاح ونيله، وأدركت الأستاذه (كوفاس) بعد عشرين عاماً من العمل كخبيرة في العلاقات الزوجية إن للزمن أو ما نطلق عليه هنا (العشرة) دوراً كبيراً في نمو وتدعيم العلاقات الزوجية، ورغم أن تلك الحقيقة الواضحة تغيب عن أذهاننا في معظم الأحيان، خذ مثالاً على ذلك علاقتك بزميل جمعت بينكما ظروف العمل أعواماً طويلة، في الشهور الأولى يسود العلاقة الحذر والتوتر وأحياناً الغيرة وبعد العام الأول تقل درجة الحذر، وفي العام الذي يليه تلج عالمه الخاص دون مقدمات.

وفي العام الثالث تهتم بمتاعبه وتحاول التفكير معه ومساعدته، وكل عام جديد تتوثق الصلة وتتحول الزمالة إلى صداقة.. وهكذا. وأشارت كوفاكس في كتابها إلى أن المتاعب (شر لابد منه) في كل علاقة زوجية ولكن بعض الأزواج أو الزوجات يفشلون في التعامل مع تلك الخلافات مما يجعلها تتفاقم وتترسب في أعماق النفس، كما أن طول فترة الزواج ليس مقياساً لنوعية المشاكل التي يتعثر بها الزوجان، إذ ربما تظل مشكلة واحدة تؤرقهما لعشرات السنين دون أن ينجحا في التغلب عليها، بحيث تظل النار تحت الرماد، وتتأجج من وقت لآخر، وبالطبع فإنَّ كل مرحلة من المراحل التي حددتها كوفاكس وهي :

المرحلة الأولى : رومانسية شهر العسل.

المرحلة الثانية : الترقب والتوقع .

المرحلة الثالثة : صراع القوى .

المرحلة الرابعة : ومدتها سبعة أعوام من المناوشات .

المرحلة الخامسة : التوفيق .

المرحلة السادسة : التقبل .

كل مرحلة في تلك المراحل ليست مرتبطة بعدد معين من السنوات خلاف المرحلة الرابعة، كما ان المرور بتلك المرحلة ليس طولياً متتالياً بل (دائري) بمعنى أنه قد يصاب الزوجان بالتوتر في أية مرحلة فينسحبان إلى مرحلة مبكرة أو سابقه، ومع ذلك فكلنا بلا استثناء نواجه صراعات قوية في المرحلة المتوسطة، وحتى بالنسبة لأفضل حالات الزواج فإن فجر السعادة والحب والتعاون والتواصل الحميم قد لا يبزغ قبل عشر سنوات أو خمسة عشر سنة .

وعودة «لتشاك» صاحب كتاب "الحب رفقه" الذي يقدم هذه النصيحة لكل الأزواج فيقول: راقب نفسك وأنت تنصت إلى شريك عمرك، هل تتكلم قبل أن ينهي كلامه بدعوى إنك تعلم فعلاً ما يريد أن يقول أو لأن ترى إن الموضوع الذي يتحدث عنه ليس على قدر كبير من الأهمية أو لعل كلاماً يلح عليك أن تقوله وتفشل في حمل نفسك على الإنتظار حتى ينتهي الآخر من حديثه؟ هل يحدث أحياناً أن يحكي زوجك قصة سبق له أن قصها عليك من قبل؟ معظم المتزوجين في هذه الحالات يحاولون شغل أذهانهم بموضوع آخر حتى يتم الطرف الثاني حديثه ولكن.. هل سألت نفسك هذا السؤال: لعله يكرر الحكاية لأنني لم أحسن الإستماع إليه في المرة السابقة، ولا تنسى أن الشخص الذي أمامك هو وجود جديد.. حيّ ومتميز، حتى وإن حكى القصة نفسها، وأنه ينتظر منك الإهتمام أو التعاطف.

ونحن جميعاً بلا استثناء نكون أكثر لطفاً مع الغرباء، وأكثر تعاوناً مع الأصدقاء، ونوجد الأعذار لهم إن أخطأوا لكننا لا نتهاون في أخطاء الشريك، وهناك طرق أخرى غير مباشرة تدفع المتحدث إلى التوقف عن الإسترسال في كلامه. مثلاً عندما يلاحظ إن المستمع يعبث بيديه أو يسرح بعينيه بعيداً عنه، حتى الرقة الزائدة قد تحمل رسالة خفية للمتحدث تطلب منه أن يكف عن الكلام، مثلاً قد تبدأ الزوجة بالشكوى من أمر معين فيبادرها الزوج بالقول: سأفعل ما تريدين أو يسارع بالتربيت على كتفها أو يهديها إبتسامه، هذا السلوك قد يبدو متعاطفاً إلى أقصى حد، لكنه في الواقع يحرم الزوجة مما هي فعلاً في حاجة إليه في تلك اللحظة.. وهو التعبير عن مشاعرها، وعلى مثل هذا الزوج أن يعي إن الهدف الأول من

تبادل الحديث بين الزوجين هو أن يزداد وعي كل منهما بالآخر وتواصله معه، ثم بعد ذلك تأتي مرحلة البحث عن حلول للمشاكل المطروحة، وفي معظم علاقات الزواج يكون هناك موضوع أو أكثر يتجنب الزوجان الخوض فيه، فإذا اضطرا لطرح ذلك الموضوع كان ذلك في إقتضاب شديد أو بطريقة غير مباشرة كأن يتحدثا عن تجارب أُناس آخرين، أو بشكل سطحي لا يعبران فيه عن مشاعرهما الحقيقية تجاه ذلك الأمر، والسبب في ذلك قد يكون أن أحد الطرفين يشعر بأن الآخر لا يحسن الإستماع إليه أو أن أحدهما أو كلاهما يشعر بالضيق لإختلاف وجهات النظر بينهما، وكثيراً ما تكون المشكلة الحقيقية هي التصور الخاطئ أن مناقشة موضوع ما تعني بالضرورة أن يصل الطرفان إلى حل قد يرضي أحدهما دون الآخر أو على الأقل أن يغير أحدهما مفاهيمه أو مواقفه إرضاءً للآخر.

لكن الحوار بين الزوجين ليس معركة تستدعي الخوف من الهزيمة، إنه وسيلة للتفاهم والتواصل وترسيخ المودة في القلوب، وعبارة هذا غريب عنا عندما نطلقها على شخص ما تعني ببساطة أننا لم نتحدث معه ولا تجمعنا به جلسة محاوره، الإنسان الغريب هو الذي لم نطلع على أفكاره ولم يطلع على أفكارنا، وكم من أزواج عاشوا معاً كغرباء وافترقوا وهم غرباء، وقد درج زوجان على قدر كبير من الثقافة على تجنب أية حوارات حين يكونان وحدهما إذ غالباً ما يؤدي ذلك إلى شجار عنيف ينتهي ببكاء الزوجة ورغبتها في الإنفصال، أما حين يكونان في جمع من الناس فأنهما يتحاوران بلباقة ويستمعان لوجهات نظر الآخرين ويتفقان معها أحياناً، ومع مرور السنوات أصبح لكل منهما عالم خاص لا مكان للآخر فيه، هو مع أصدقائه وأبحاثه ورحلاته، وهي مع رفيقاتها وكتبها وطموحها الدراسي، هذان

الزوجان يبحثان عن السعادة خارج جدران الحياة الزوجية وينسيان أمراً هاماً جداً هو إننا نقضي نصف أعمارنا وربما أكثر في المكان الذي نألفه (المنزل) فإذا لم نجد السعادة بداخله فلن نجدها في خارجه! وعبر شاب مثقف ويحتل مكانةً بارزة في عمله عن تعاسته لارتباطه بابنة خاله بناءً على رغبة العائلة إذ أنها بجهل غير واع كانت تقطع كل حبال الحوار التي يمدها إليها بنفاد صبر، وتحاول بدورها جره إلى عالمها الضيق: فلانه قالت وفلان فعل، وهل سمعت ما حدث لعائلة كذا.. وابن الجيران زج به في السجن لأنه فعل كذا وكذا.. ويشكو هذا الشاب من عجزه عن حسم الأمور فالفتاة قريبته ومخاصمتها تعني مخاصمة عائلة بأكملها.

وهو على استعداد للتفريط بزوجة غير قادرة على الوفاء بالتزاماتها كشريكة في شركة العمر، لكنه غير قادر على مواجهة أهله وأقربائه ومقاطعتهم لو أعلن عن قراره فض الشركة!! وتوصل ماركمان أُستاذ علم النفس بجامعة دينيفر إلى أن المناقشة البناءة والإبتعاد عن الجدل العقيم أكثر المؤشرات على نجاح الزواج، وكان ماركمان قد أجرى دراسة منذ عشر سنوات شملت (١٥٠) زوجاً وزوجة بدأت منذ مرحلة قبل الزواج وتناولت بالتحديد أهم العوامل التي تؤدي إلى نجاح الزواج ، والتقى ماركمان بالأزواج لقاءات سنوية، ووزع عليهم مجموعة من الإستبانات، وناقشهم في القضايا والمسائل الرئيسية التي تشغلهم، وأشار في تقرير قدمه للمعهد الوطني للصحة النفسية إلى أن (نمط التواصل والإتصال عند الزوجين قبل الزواج هو أفضل المؤشرات على نجاح الزواج في المستقبل).

وهذا التقرير العلمي يعزز الرأي النظري الذي عرض في الفصل الأول من الكتاب في أن فترة الخطوبة وما يحدث فيها من تنافر في الطباع أو اتفاق

في الأهواء تعطينا دلالات واضحة لما سيكون عليه الزواج المقبل) وأوضح ماركمان إن هناك إعتقاداً خاطئاً بأن المشاكل المالية أو الجنسية هي أهم أسباب الإنفصال أو عدم الإنسجام في الحياة الزوجية إذ إن الإختلافات ليست مهمة في حد ذاتها، ولكن المهم هو كيفية معالجتها خاصة في مرحلة مبكرة من الزواج، فالأزواج الذين يملكون القدرة على حل مشاكلهم بنجاح لديهم فرصة كبيرة لتحقيق زواج ناجح وسعيد . خلاصة الدراسة التي قام بها ماركمان تظهر إن المشاكل المبكرة في الزواج تسوء بمرور الوقت إذا لم تعالج بصورة جذرية، ولا تتحسن كما يتوقع بعض الأزواج بتجاهلها وتجنب مناقشتها إذ أن النزاعات والنقاشات العاصفة ليس دليلاً على الإحباط والهزيمة بل قد يكونان عاملين مهمين لإثراء العلاقة وانفتاحها، ومن الطبيعي أن المشكلة التي لا تطرح على بساط النقاش تظل مشكلة تهدد بالإنفجار في أية لحظة، وعند الإنفجار لا تعود هناك أية فرصة للملمة الأشلاء وعودة الأدوار إلى ما كانت عليه قبل ذلك. وترى (فلورنس كاسلو) مديرة معهد فلوريدا للأُسرة والزواج إنه لابد من أن (تتطور شخصية كل شريك، وأن يتكيف مع الأحداث العادية ومستجدات الحياة الزوجية) .

وأجرت "كاسلو" دراسة على عشرين حالة زواج استمرت كل منها أكثر من خمسة وعشرين عاماً لتحديد أسباب استمرارية العلاقة، وحالة الرضا والسعادة التي يشعر بها الزوجان، وكانت النتيجة أن العامل الأساسي للرضا هو المقدرة على حل المشاكل المشتركة، إذ أن لكل مرحلة من مراحل الزواج مشاكلها الخاصة بها والمهم هو كيفية تناولها ومعالجتها، وقد أدرك الأخصائيون الإجتماعيون هذه النقطة مؤخراً وقاموا بدراستها من جديد لأن

الزواج ليس مرحلة واحدة تسير في خط مستقيم بدون أية انحناءات فالزواج يمر بعدة مراحل ويتطور وينضج بتطور ونضوج أطراف العلاقة، العام الأول يختلف عن العام الثاني، والثاني عن الثالث، والثالث عن الرابع، والرابع عن السابع وهكذا.. وكلما صمد الزواج واجتاز مرحلة جديدة إزدادت إمكانية استمراره ونجاحه، ويلاحظ إن نسب الطلاق بعد العام الأول أكبر من نسب الطلاق في الأعوام التي تليه. المتزوجون حديثاً حظهم من التجارب والصبر والمرونة قليل إن لم يكن معدوماً تماماً، لذلك عند أي منعطف خطر يرفعون راية الإستسلام وينسحبون بقناعة أكيدة (إن هذا الزواج لا يطاق) ويؤكد "كولن ويلسون" في كتابه خفايا الحياة هذا المعنى بقوله: عندما تضجر فإنك تستسلم، إنك تغوص في نوع من الخدر المعنوي وأنت تترك لضغطك الداخلي أن يتسرب كما لو كنت كرة منفوخة ثم انفجرت، وفي مكان آخر يذكر أن المرض العقلي إنما ينتج أساساً من إنهيار الإرادة، وكذلك اليأس، ويشبه الإرادة بالعربة التي لا تعمل إلا عندما تشحن قواها الحيوية، أما حين نكف عن شحن هذه الإرادة فإن البطارية تصبح هامدة وتبدو الحياة عقيمة وعابثة، وهذا بالضبط ما يحدث في السنوات الأولى من الزواج، وتنتشر في دول الغرب المؤسسات الخاصة بتوعية الأزواج بنوعية المشاكل التي ستصادفهم في حياتهم الزوجية وحل مشاكلهم وإطلاعهم على قائمة تتضمن كل أنواع المتاعب التي سيتعرضون لها وكيف يمكن التخلص منها، وعندما يصل الأمر إلى الطلاق يتولى الأخصائيون الاجتماعيون مقابلة كل حالة على حدة والإصغاء إليها وتسجيل النقاط الإيجابية والسلبية ثم تتم المواجهة بينه وبين الطرف الآخر مع وجود المحلل النفسي، وغالباً ما تسفر هذه الدراسة عن اعتراف الأطراف المعنيه بالأمر بأخطائها وتعرب عن رغبتها في الاستمرار، ويتعلم كل من الزوجين بعد ذلك أنه ليس الوحيد في العالم

الذي يعاني، وإن معاناته بقليل من الصبر والتفهم يمكن أن تصبح أساس سعادته في المستقبل وحتى آخر العمر.

وأثبتت الدراسات الحديثة إن ما بين ٣٠٪ إلى ٥٠٪ من الأزواج حديثي العهد بالزواج تبادلوا السباب أكثر من مرة واستخدموا ألفاظاً جارحة خلال مناقشاتهم واختلافاتهم وذلك بسبب الإفتقار إلى ملكة إدارة الصراع، وينشأ الإيذاء النفسي والإهانة من الإحباط الناجم عن عدم القدرة على التحكم في الأحاسيس السلبية، وتحل الكراهية محل الحب بعد زمن، والمثل العربي القديم (لسانك حصانك إن صنته صانك) لم يأتِ من فراغ "اللسان" هذا الجزء الصغير من الجسم يتحول إلى غصن سلام أحياناً أو وردة أو إلى رصاصة.. التحكم فيه حكمة والإنقياد لشهواته بلاء ومتاعب لا حصر لها.

ومهما بلغ بالمرء الغضب والحزن، عليه ألا يتفوه بكلمة يتعذر نسيانها فيما بعد خاصة وهو يعلم إن علاقته مع الشريك الذي جرحه بقوارص الكلام باقية ومستمرة، وفي الظاهر يتصرف الذي تعرض للأذى نفسياً وكأنه لا يتذكر ما حدث حين تتبدل عواطفه ويغدو حذراً ومتشككاً في علاقته مع الشريك، وهذا ما حدث مع السيدة "مريم" وهي زوجة وأم لثلاثة أطفال، جملة واحدة لفظها زوجها بعد شهور من الزواج بددت كل آمالها في الرفقة الحلوة والمسرات المشروعة والمشاركة الأبدية، وتحكي السيدة مريم قصتها قائلة: أصر الطبيب على بقائي في المستشفى طيلة أشهر حملي وحتى لحظة الولادة لخطورة حالتي الصحية، وكنت آنذاك في شهري السابع لكن زوجي رفض الإذعان لأوامر الطبيب وأكد له أنه حريص على راحتي أكثر منه، وتعهد بتوفير الراحة المطلوبة لي في عشنا الصغير، وسعدت بهذا

القول وخفق قلبي بالعرفان لهذا الرجل الذي ارتبطت به عن حب، وفي الطريق إلى المنزل بعد أسابيع قضيتها معزولة، ومراقبة بين جدران أربعة سمعته يقول: إشتقت لطبخك، عندما نصل أريدك أن تعدي لي كذا وكذا وكذا.. وفي المنزل كان بانتظارها عمل مرهق تراكم أثناء غيابها، تحاملت على نفسها وأعادت للبيت الذي تحول إلى منتدى للرفاق رونقه الأول، وأعدت الوجبات التي اشتهاها الزوج وذهبت إليه وهي تكتم آلامها لتعد له مائدة العشاء، وجدته متمدداً على الكنبة يشاهد مسرحية كوميدية وهو في غاية السعادة، طلبت منه على استحياء أن يحمل عنها طبق الطعام ويضعه على المفرش لتحضر غيره، وفوجئت به يهز رأسه رافضاً دون أن تحيد عيناه عن شاشة التلفزيون سألته: لماذا ؟ قال: لأنني رجل، والمرأة خلقت لخدمة الرجل.

وبعض الأزواج يتفوهون بألفاظ قاسية في حق الشريك، ويتطاولون على أصله وفصله وجذوره في لحظات الثورة، ويظنون إن الإعتذار بعد ذلك سيمحو كل ما قيل، وأعلنت إحدى السيدات أمام القاضي أنها غير قادرة على الإستمرار مع زوج لا يتردد عن نعتها بأقبح النعوت حين يختلفان بلا أدنى إحساس بمشاعرها أو مشاعر أولادٍ باتوا على أبواب المراهقة! ويكفي أنها أخفت كراهيتها لزوج تعاشره ثلاثة عشرة عاماً، وهذه المشاعر المكبوتة باتت تؤثر على علاقتها بأولادها وعلى سلوكها أيضاً.

وفي دراسة أجريت في فلوريدا على أزواج يعيشون معاً منذ أكثر من ٢٦ عاماً قال ٤٠٪ منهم إن سبب السعادة هو المتعة والمرح، والحرص على التعبير المستمر عن الإعجاب وإبراز الجوانب والمواقف الإيجابية للطرف الآخر "إذ أن الحب والإعجاب هما اللذان يخلقان الإخلاص والولاء للزواج" فحين

يخفي الزوج إستياءه من وجبة الطعام الذي أعدته زوجته ويمتدحه ثم يلفت إنتباهها برقة إلى أنها قد أعدت هذه الوجبة من قبل بطريقة أفضل، ستحاول بلا شك التفنن في الطهو في المرات القادمة، وفي حال اختلف الوضع وترك الزوج العنان لغضبه ومضى يكيل عبارات الإستفزاز والمقارنة بين طهوها الرديء وطهو والدته الجيد، أو لو أنه كان يعلم إن مزاجها سيء لهذا اليوم لأحضر طعامه من أي مطعم، ويستمر في التأنيب واللوم وكأن المسألة تتعلق بقضية هامة وملحة ولا تقبل المهادنة، ماذا سيحدث لو لم يتناول الزوج يوماً ما وجبة ترضيه؟ وماذا يعني لو أن الزوجة لم تكن راضية عن تصرف ما في يوم ما لزوجها؟ هل سيتوقف الزمن؟ هل ستنقلب موازين العالم؟ هل الأمر خطير جداً بحيث ننزلق في مهاوي التراشق بالألفاظ الجارحة للتنفيس عن غضب مزعوم؟ العمر ينصرم والعمل لا ينتهي أبداً، ويعتقد الكثير من الناس أنهم إذا توقفوا عن السعي والعمل الدؤوب فسوف تتوقف الأرض عن الدوران، وبهذه القناعة يحرمون أنفسهم من الإستمتاع بمسرات الحياة ويجنون على أسرهم أيضاً، ويحاول البعض الآخر الفكاك من ضغط الوظيفة دون جدوى، وإذن ماذا يفعل الزوجان العاملان؟ هذا السؤال طرحه الخبراء على الأزواج والزوجات وكانت الإجابات كالتالي، تقول "ايمي" : لديّ وظيفة جيدة وأنا سعيدة مع زوجي وقد رزقنا الله ولدين رائعين، لكننا لا نكاد نمسك زمام حياتنا العائلية، إذ إن إرتباطاتنا اليومية تقيدنا بحيث بات كل شيء معرضاً للإنهيار.

"ايمي" مُدرسة في الحادية والأربعين من العمر، وزوجها "دون" محام في الثانية والأربعين، ولهما ولدان، وحين تكون الأُمور على ما يرام توقظ "ايمي" زوجها صباحاً بعد أن تستعد للخروج، ثم تملأ فنجان قهوة مخصصاً

للإستخدام أثناء الإنتقال في السيارة، وتنطلق إلى مدرستها في تمام السابعة والثلث، ويوقظ دون الولدين ويعد لهما طعام الفطور، ثم يوصل ديفيد إلى مدرسته وكاترين إلى روضة الأطفال، ويتوجه إلى مركز عمله في وسط المدينة، ثم تصطحب "ايمي" الولدين بعد إنتهاء الدوام المدرسي، فتوصل ديفيد إلى النادي الرياضي في طريقها إلى المنزل حيث تعد العشاء قبل أن تعود لإحضار الولد من النادي، وتبقي الطعام ساخناً إلى حين وصول زوجها أو حتى يشعر ديفيد وكاترين بالجوع، ولا يكاد الولدان يغفوان حتى يكون التعب قد استبد بالزوجين فيتهالكان على السرير وينامان، لكن الامور لا تسير دائماً على هذا المنوال، وإذا بالمشكلات تتوالى الواحدة تلو الآخرى بوتيرة تفقد الصواب، فتلم بأحد الولدين وعكة صحية، أو يطول إجتماع ما أو يشهد الطريق الرئيسي ازدحاماً في حركة السير، وفي كل مرة يضطر دون وإيمي إلى التلاعب ببرامج مواعيدهما، ومعاناة كآبة وقلق يعرفهما كل زوجين عاملين، ويحدث أحياناً أن يصب أحدهما جام غضبه على الآخر، يقول الزوج "دون" : نحاول ألا ندع الإجهاد يؤثر على علاقتنا، ولكن من المستحيل أن تبرع في عمل وأن تكون والداً وزوجاً ناجحاً في آنٍ واحدٍ فالتوتر ينال منا أحياناً وننهار، والاجهاد لا يرحم أحداً، لكن الأزواج العاملين يتعرضون لضغوط لم تكن شائعة في الماضي، ففي الماضي على سبيل المثال كانت الجدات يساهمن في تخفيف الضغوط عن أولادهن، وبناتهن بالإهتمام بالأطفال لبعض الوقت بشكل يومي، كما إن الأطفال لم يكونوا يعتمدون في تحصيلهم الدراسي على أحد، وكان الأقارب أكثر تعاوناً بشكل أدق، الآن الجدات يردن أن يستمتعن بما تبقى من العمر في هدوء وراحة وهذا حقهن، والأطفال تعودوا الإعتماد على غيرهم في كل شيء، ويصعب حاضراً إنشاء أسرة من دون تأمين دخلين، وعلى كلا

الزوجين أن يعملا ويتقاسما المسؤوليات الأسرية، ولكن من شأن تضارب هذه الإلتزامات المزدوجة أن تنال من القدرات الكفاحية لأي إنسان .

ويقول "الين الكين" مدير المركز الإستشاري لمعالجة الإجهاد في مدينة نيويورك : إن بعض الأزواج العاملين الذين يستشيرونه لا يتحادثون أكثر من ١٥ دقيقة يومياً، ويقتصر معظم حديثهم على مسائل منزلية كدفع الفواتير والإهتمام بالأولاد، ويضيف : لقد بلغ بهم الإنهاك حداً إضطرهم إلى العزوف عن أي نشاطات تدخل المرح إلى علاقاتهم .

وتتمثل الإشارة الأولى إلى تدهور العلاقة بين الزوجين العاملين في فتور العلاقة الخاصة بينهما، ولكن تسبقها أعراض أُخرى مثل حدة الطباع وافتقاد روح الدعابة والأرق وتناول الكحول أو الأدوية على نحو متزايد وشعور عام بأن الحياة لم تعد حلوة .

ويقترح الخبراء على الزوجين العاملين عدة إقتراحات للتخلص من هذا الشعور : أولها وضع قائمة . يقول الين : يعتقد معظم الأزواج أنهم يعرفون أسباب إنزعاج شركائهم، لكنهم غالباً ما يجهلونها في الحقيقة، ليخصص كل منكما نصف ساعة لوضع قائمة بالأمور التي تزعجه، ثم قارنا القائمتين، فقد تفاجأن، وأقسما القائمة قسمين : الأمور التي يمكنكما تغييرها، والأمور التي تعجزان عن تغييرها، وليكن جزء من دعائكما : إمنحني يارب القدرة لتقبل الأمور التي لا أستطيع تغييرها، وشجاعة لتغيير الأمور التي أستطيع، وحكمة لأفرق بين هذه وتلك .

ثانياً : دققا في موازنتكما : ما هو المبلغ الذي تحتاجان إليه فعلاً؟ يقول "ريتشارد فريدمان" وهو إختصاصي بمعالجة الإرهاق وأستاذ في الطب النفسي في جامعة نيويورك : قد لا تكونان كلاكما مضطرين إلى العمل

دواماً كاملاً، قد لا تتمكنان من شراء سيارة جديدة أو تمضية إجازة خارج البلاد إن لم يعمل أحدكما طوال النهار، ولكن من المحتمل جداً أن تشعرا بسعادة أكبر. رأت "ديي شوستر" وهي محامية في الثلاثين من عمرها، إن إلتحاقها بكلية الحقوق لم يترك لها سوى وقت قصير جداً تمضيه مع زوجها وطفلهما لذا آثرت ـ بعد تخرجها – العمل بدوام جزئي وتقول: لا أزال أتمنى أن تتاح لي فترة أطول مع زوجي، لكن العمل دواماً جزئياً يساعدنا مالياً، وهو خير تسوية بين العائلة والمهنة، وماذا إذا توجب على الزوجين كليهما العمل دواماً كاملاً للتمكن من دفع المستحقات، إن من شأن تدوين المصاريف أن يخفف الضغط على نحو ملحوظ.

"كارين" معلمة سباحة في السابعة والأربعين من عمرها، وهي تتولى دفع فواتير العائلة لكن زوجها يغضب إن هو لم يطلع على طريقة إنفاقها للمال، لذا تدون كارين في دفتر صغير كل النفقات الشهرية، بدءاً بأقساط ثمن المنزل والسيارة وصولاً إلى الهدايا ووجبات الطعام خارج المنزل وتقول: تساعدنا هذه الطريقة على معرفة وجوه إنفاق المال، مما يخفف قلقنا، وفي الغالب تبدأ الخلافات حول النقود بالسؤال التالي يوجهه الزوج لزوجته أو العكس: أين ذهب الراتب؟ ويجد المسؤول نفسه حائراً في تحديد وجوه الإنفاق، إنه واثق من أن معظم راتبه أو كله أنفقه على أشياء خاصة بالبيت والأسرة. لكنه لا يتذكر في ما بالضبط وهذه المساءلة تشعره بأنه متهم وفي موقف ضعيف، وهذا الإحساس يتصاعد مع الوقت ومع تكرار السؤال، وكلمة من هنا وكلمة من هناك ويتحول الموقف إلى عراك لا تحمد عقباه. ويواصل الخبراء وضع القواعد التي يجب أن يحرص عليها الأزواج العاملون فيقترحون وضع سلم للأولويات على سبيل المثال إذا كنت معتاداً على

الخروج كل ليلة للسهر مع الأصدقاء أو إلى النادي وطلبت منك زوجتك البقاء مع الأولاد لأنها مدعوة إلى حفل زواج أو خطوبة، فأي منكما أحق بالخروج! يقول الإختصاصي بمعالجة الإرهاق فريدمان: إن أي تعديل في البرنامج يسبب توتراً، ولكن ليس إذا اتفقتما على الأولويات، وتبرز المشاكل عندما تبقى الأسباب مبهمة، أو عندما لا يعبر الطرف الذي يجبر على التضحية في كل مرة عن مشاعره، وعن خيبة أمله لأن الشريك لا يحب له الخير، ولا يتنازل ولو ليوم واحد من أجل إدخال السرور إلى نفسه! ودرج الأزواج على منح شركائهم البقية الباقية من اليوم، وهذه البقية لا تزيد على نصف ساعة في الغالب وقبل الإنتقال إلى الفراش للنوم، لذا على كل زوجين يرغبان في دعم علاقتهما الزوجية تخصيص أوقات معينة للحظات الحميمة بعيداً عن المنزل والأطفال إذا أمكن مثل تناول الغذاء في الخارج.. ممارسة رياضة المشي أو متابعة مسرحية ما.

ويوصي الخبراء كذلك بالاستعانة بعنصر المفاجأة إذ غالباً ما يقع الأزواج في الرتابة، ولا يبادرون إلى تحسين الأمور، ويشرح أحد الخبراء ذلك بقوله: إطرح هذا السؤال باستمرار: ما الذي تستطيع فعله الآن ويحظى بإستحسان زوجتك! وعندما يخبرني الزوج بما في إمكانه أحضه على تنفيذه، فالمفاجأت السارة هي دائماً خطوة في الإتجاه الصحيح، والمفاجأة تعني كسر الرتابة، فإن اعتدتما الإحتفال بالمناسبات الخاصة بتناول العشاء في مطعم، غادري عملك باكراً وأعدي وليمة فاخرة في المنزل.. أو فاجئ زوجتك بالقيام بعمل تشتكي هي إنك لا تفعله أبداً! من يدري؟ فبعد تعزيز علاقتكما بحيث تصمد وسط البرامج اليومية، قد تتمكنان من التلاعب بأزمات العمل ومواجهة إزدحام حركة السير ومتاعب الأهل، ومشاكل الأولاد والمصاريف وتحتفظا رغم ذلك كله بنشاط كاف للمزاح وقضاء وقت

حميم مع ذلك الشخص المميز والذي أمضى هو أيضاً يوماً مضنياً! ويبدو أن حلم المرأة بالعمل من منازلهم بدأ يتحقق وإن بصورة أبطأ وذلك بفضل التقدم الهائل في الوسائل التكنولوجية والإلكترونية وإرادة المرأة نفسها، إذ أن هناك كثيراً من النساء لم يكملن تعليمهن لسبب من الأسباب ووجدن أنفسهن ربات بيوت وأمهات ودخل واحد لا يسد إحتياجات الأسرة فكان أن إبتكرن وسائل تزيد من دخل الأسرة وتوفر لهن حياة كريمة دون أن يفارقن بيوتهن.

فهناك المرأة التي تعد الطعام لمن يرغب بأسعار معقولة وتتلقى الطلبات عن طريق الهاتف، وهناك من تعمل على الآلة الكاتبة أثناء فراغها من واجباتها المنزلية، والآخريات يصنعن الزهور من السيراميك والملابس الخاصة بالأطفال والمفارش المطرزة واللوحات وكل ما يخطر على البال من أشياء يدوية أجمل ما فيها هو حب العمل والرغبة في تحسين الأوضاع المادية بشرف، وتعتبر بريطانيا من أكثر الدول التي تسمح للمرأة أن تعمل وهي في منزلها وقد بدأت العمل بهذا النظام منذ عدة سنوات، وفي فرنسا نشرت إحدى المجلات تحقيقاً طريفاً يتحدث عن هجرة ثلاث نساء شهيرات وبارزات اجتماعياً إلى الريف وبدلاً من التردد على حفلات الكوكتيل والموسيقى فضلن تربية الدجاج والأبقار وزراعة الخضار، تقول إحداهن: منذ خمسة عشر عاماً لم أشعر بمثل هذه السعادة وهذا التقارب مع زوجي وأولادي الذين عارضوا في البداية فكرة الإنتقال بعيداً عن المدينة وعن مدارسهم.. وهم الآن يتساءلون كلما جلسنا خارج الدار نتناول الشواء اللذيذ والحليب الطازج ونستنشق الهواء النقي: لماذا لم تخطر على بالك هذه الفكرة من قبل.

وأنا الآن أبيع لشركة صغيرة الدجاج والبيض الطازج وفي المستقبل سوف أوسع مشاريعي لكنني لن أبيع هذه الحياة الهادئة بأي ثمن، ومن وجهة النظر الاجتماعية فإن تمكن المرأة العاملة من البقاء في منزلها أطول مدة ممكنة ورعاية أولادها وزوجها سيحد إلى حد كبير من موجة الإنحراف والعنف التي سادت شوارع الدول الغربية خلال العشرين عاماً الأخيرة، وكذلك فإن وجودها إلى جانب بناتها في سن المراهقة سيؤدي إلى استقرار الحياة الزوجية، وتقول "صافي" وهي ربة بيت وتدير إحدى الشركات في "مانهاتن" بنيويورك: إذا كنت تجيد أداء عملك فلا يهم المكان الذي تعمل فيه سواء أكان المنزل أو مقر الشركة، وفي الولايات المتحدة من المتوقع خلال السنوات القادمة أن تعمل غالبية الشركات الصغيرة من المنازل بواسطة الأجهزة الإلكترونية التي تصل مباشرة بين المكاتب والمنازل، كما توجد بعض الشركات الكبرى التي ستلجأ إلى تحويل جزء كبير من أعمالها إلى المنازل بعد أن ثبت بالدراسة إنها ستوفر بهذه الطريقة مكان المكاتب والنفقات بالإضافة إلى زيادة كمية العمل بحوالي ٢٥٪.

الزواج هو أن تنتقل من حال الوحدة إلى حال التوحد مع آخر، وبالتالي تتغير بعض السلوكيات والعادات لتتوافق مع سلوكيات الآخر وعاداته وكلمة «أنا حر» يجب أن تُلغى من قاموس العلاقة، فالقرارات يجب أن تخضع للطرفين ولا ينفرد واحد دون الثاني بصنع القرار، وقد اعتاد زوج أن يقيم الولائم لأقاربه بمناسبة وبدون مناسبة وينفق ثلاثة أرباع دخله على إخواته رغم أن كل واحدة منهن متزوجة ولديها ما يكفيها.. وأغراهن هذا الكرم بطلب المزيد، والشعور مع الوقت بأن كل ما يملكه حق من حقوقهن، وكان هذا على حساب زوجته وأطفاله وبيته، واضطرت زوجته لبيع حليها

كلها ومع كثرة الديون وضيق الحال لم يترك هذه العادة الذميمة، وكلما حاولت زوجته تنبيهه من غفلته إلى كرمه الذي لا معنى له صرخ فيها: أنا حر، وهؤلاء أهلي وأقرب الناس اليّ ونتيجة هذا الغباء معروفة.

أن تكون مخلصاً أو لا تكون في علاقتك الزوجية تلك هي المشكلة بل هي المصيبة! والجرح الذي لا يشفيه دواء الطبيب ولا تفلح معه كلمات العزاء!. ومع أن الخيانة لها أسباب قد تكون اقتصادية أو نفسية أو اجتماعية، إلا أنها تظل سلوكاً مرفوضاً في كل الأحوال، وإذا كانت الخيانة أمراً وضيعاً، وخطيئة لا تغتفر للرجل مرة فأنها أكثر من ذلك إذا أقدمت عليها المرأة، وفي ذاكرتي عدة صور قاتمة لزوجات خائنات قيض لي الإحتكاك بهن عن قرب، فهناك تلك السيدة التي خانت زوجها وما تزال علانية وأمام أطفالها الذين كبروا الآن، وكانوا إذا ما سأل أحد ما عن والدتهم أجابوا بلا خجل: مشغولة مع عمو علي، و هذا الشخص المدعو علي يدخل ويخرج كما يحلو له، والزوج يستقبله بكل ترحاب بل ويهيئ له كل السبل للإلتقاء زوجته، وعندما تساءلتُ عن نوع هذا الرجل الغريب الذي يشرب الشاي بكل هدوء في الصالة وزوجته وعشيقها في غرفة النوم، قالوا مسحور!

ولن أناقش قضية السحر والأعمال النجسة فهي حقيقية وإن كان العقل لا يتقبلها، وإنما هناك كثير من الرجال الذين يمكن وصفهم بالغرابة والهوان فهم يرون ويسمعون ويتجاهلون إما عن ضعف في الشخصية وهرباً من المواجهة وما يترتب عليها من نتائج أو تحقيقاً لمنفعة ما.

وأعود لتلك السيدة التي تنكرت لأمومتها وكرامتها وعاشت سبعة وعشرين عاماً من القذارة وحتى هذه اللحظة، فأقول أن من الطبيعي أن

تتخذ كل واحدة من بناتها صديقاً تحادثه وتخرج معه والبقية معروفة. وأخرى وقعت في غرام صديق زوجها المتزوج وطلبت الطلاق من زوجها الذي اشترط عليها التخلي عن الأطفال ونسيانهم تماماً، ووافقت على ذلك ومن ثم تزوجت من الآخر الذي طلق زوجته أيضا، وبعد عدة سنوات تكررت القصة بصورة تثير الدهشة والعجب، إذ وقع الزوج الجديد في غرام قريبة لزوجته، وبادلته المرأة الحب وهي زوجة وأم، وطلق الرجل المرأة التي باعت أطفالها وإستقرارها من أجل نزوة طارئة، وتزوج من قريبتها التي تطلقت أيضا بسبب نزوة، إن من يخون مرة يخون مرة أخرى.

كيف تتصرف الزوجة إذا عرفت أن زوجها على علاقة بامرأة أخرى؟

يجيب الدكتور عادل صادق: عليها أن تسأل نفسها: ما هو مدى مسئوليتي الشخصية؟ وهل دفعته أنا إلى هذا السلوك؟ هل يوجد حب حقيقي بيننا؟ هل العلاقة مع الطرف الآخر علاقة حب حقيقي؟ إلى أي مدى أستطيع أن أغفر؟ إلى أي مدى أستطيع أن أستعيده؟ ثم إلى أى مدى يستطيع هذا الزوج أن يعود إلى حظيرة الزواج نادماً ثم مخلصاً؟ إنها أسئلة غاية في الصعوبة، وقد تبدو غير عملية أو غير مجدية، ولكن لابد أن يحاول الإنسان مع نفسه بصدق.. إن المحاولة الصادقة تحمل في طياتها قدراً من النجاح، لأن الصدق في حد ذاته يضيء الطريق نحو فهم صحيح للأمور، ومحاولة حلها بنية طيبة.. أما إذا كانت العلاقة قد وصلت إلى طريق مسدود وكانت الجراح عميقة من أثر العداوة والكراهية وعدم الإحترام، فإن العلاج الأمثل هو الإنفصال! وإذا كانت كل المصاعب التي قد تعترض سفينة الزواج تجد لها حلولاً بأى شكل من الأشكال فإن مشكلة الخيانة تظل أبداً كالجرح الغائر في النفس، حتى وإن اختارت المرأة المغدور

بها أحد الحلول الثلاثة وهي الإنتقام أو الطلاق أو البقاء على العشرة من أجل اعتبارات معينة أهمها وجود أطفال فإنها تعيش تعيسة ومكسورة الخاطر، وينصح الخبراء الزوجة أيضاً بمواجهة المرأة الأخرى أو الإتصال بها وبذل كل جهد للشرح والتوضيح، ومحاولة تصحيح الأوضاع، و٩٩٪ من هذه المحاولات تبوء بالفشل فليس كل النساء "آنا كارنينا" يتنازلن عن سعادتهن المقبلة أو ما يتوهمنها سعادة من أجل خاطر عيون إمرأة لا يعرفنها ولا تؤثر فيهم أحزانها أو دموعها، وغالباً ما تزيد هذه المحاولات الجرح عمقاً، فإلى جانب الخيانة هناك ماء الوجه الذي أريق بلا نتيجة والكبرياء المجروحة، والإحساس بالمهانة والضعف أمام المرأة الأخرى التي قد تعلن للملأ ما نتج عن هذه المحاولات، فهي على كل حال في وضع أقوى من الأولى! وهناك أسلوب آخر تلجأ إليه المرأة التي ترغب في إنقاذ حياتها الزوجية، وهو أسلوب المواجهة المباشرة حول علاقة زوجها بأخرى.

فهذه زوجة حقق زوجها نجاحاً مالياً كبيراً فشرع على الفور في إقامة علاقة خاصة مع سيدة عمرها ٣٥ عاماً كانت تربطها علاقة مشتركة بالزوجين ومن الشائع ـ وليس هذا المستغرب ـ أن يشرع رجل حقق نجاحاً مهنياً كبيراً في منتصف العمر في إقامة علاقة بسيدة أخرى، إلا أن الزوجة التي كانت في الثالثة والأربعين من العمر لم تكن متأهبة على الإطلاق لرد فعل زوجها، فقد كانت تنعم بحياة زوجية هانئة، وعندما أخطرتها صديقة بأنها شاهدت زوجها مرات كثيرة مع صديقتهما المشتركة في أحد المطاعم شعرت الزوجة بأنها قد تعرضت لتوها لضربة قاضية في المعدة! وسألت نفسها: هل أنا حريصة على هذا الزواج وأريد له الإستمرار؟

وجاءت الإجابة من داخلها: نعم إنني أريده، ومادام الأمر كذلك فليس

عليّ سوى التحرك والتدخل الآن!! كان هذا قرار الزوجة، وبعد أيام قليلة توجهت الزوجة إلى مكتب الصديقة وواجهتها وطالبتها بأن تبتعد عن زوجها وأكدت لها إنها لن تتركها تهدم حياتهما الزوجية، وفي الليلة ذاتها أخطرت الزوج بما فعلته، وأخبرته بأنها تريد منه أن ينهي هذه العلاقة، وأن يتعاون معها من أجل إيجاد حلول لمشاكلهما، وكانت هذه الواقعة بمثابة نقطة تحول حاسمة في زواجهما وأظهرت الزوجة التي كانت دائماً خجولة وهادئة أنها تستطيع أن تنقض وأن ترتدي القفازات لتحارب من أجل حياتها الزوجية، وعند ذلك رأى الزوج جانباً آخر في زوجته التي كانت سلبية من قبل، واحترم الزوج ذلك فيها، وبالنسبة له فإن تصرفاتها الأخيرة كانت تعني أنها متحفزة لإجراء تغييرات في زواجهما وبالتالي انتقلت إليه هو شخصياً روح التحفز، ووجد نفسه أمام عدة خيارات، فإذا كان مستعداً هو وزوجته لإستشارة خبير في الشؤون الزوجية فإن عليه أن ينهي علاقته بالأخرى في الحال، وبالفعل وخلال شهر واحد كانت العلاقة الأخرى قد انتهت، وبدأ الزوج في تقدير الأشياء الثمينة في زوجته، وفضائلها التي لم يلاحظها من قبل، واستمرت الحياة الزوجية ولكن بكثير من التغير من جانب الزوجة التي حرصت على أن تبدو في أجمل مظهر وأروع رونق، فضلاً عن أنها قاتلت في عملها من أجل الحصول على ترقيات لتشغل مناصب أفضل لترتقي أيضاً في عين زوجها بعد أن عرفت كيف تستغل الفرصة لتبعث الحياة في عالمها من جديد.. عالم الأُسرة والعمل. ومهما تعددت أسباب الخيانة فإن من المؤكد أن هناك أمراً واحداً لا لبس فيه وهو إنتهاء علاقة الحب بين الزوجين، إذ أن من الصعب تصور إمكانية خيانة أحد الزوجين بينما يجمعهما الحب.

ويقول الخبراء إن مثل هذه العلاقات الشائعة تكثر مع تقدم الرجال في السن، وهذا القول صحيح، فقد يرغب الرجل حين يتقدم به السن أن يثبت لنفسه أنه مازال مرغوباً، فتراه يبحث عمن تعيد له ثقته بنفسه، وتبعث في حياته بعض الإثارة والتجديد ويرتبط بفتاة أصغر منه بكثير لتأكيد هذه المقولة، ومع ذلك فإن نسبة المتزوجين من الشباب والذين يبحثون عن المتعة خارج أسوار الحياة الزوجية تتساوى مع نسبة الأزواج المتقدمين في العمر. يبدأ الزوج في مرحلة منتصف العمر – بناء على تحقيق صحفي نشر في إحدى المجلات النسائية ـ التفكير في إقامة علاقة جديدة مع امرأة أخرى لرغبته الشديدة في التخلص من بعض المشاعر التي ترافقه في هذه المرحلة، مثل الإحساس بالجمود، وشعوره بأن قطار العمر يمضي مسرعا، وأنه قد اقترب من سن فراق الحياة، وعند هذا الحد يعتقد الزوج أن بناء علاقة جديدة مع سيدة أخرى يمكن أن يبعث فيه الحيوية والحياة من جديد، بعد أن يخرج من دائرة الملل والروتين التي تحيط بعلاقته الزوجية، إنه في لحظة ما يشعر بأن طاقاته قد أُصيبت بالخمول وأنها في طريقها إلى الزوال، ويبعث ذلك في نفسه الكثير من الحسرة والإستياء، ولذا تجيء عليه لحظات ليست قليلة يشعر خلالها بأن امرأة أُخرى سوف تفجر فيه الطاقات التي تعجز زوجته الحالية عن تفجيرها، وأن تلك هي فرصته الأخيرة لتحقيق أحلامه وآماله.

وإذا كان الخبراء يجدون أعذاراً للرجال في مرحلة منتصف العمر، فما عذر الشباب المتزوجين حديثا حين ينصرفون عن زوجاتهم ويُنشئون علاقات سرية تنتهي غالباً بزواج ثان؟ وما نوع التبريرات النفسية التي قد يسوقونها لشاب يحلو له أن يلعب دور الصياد في ليلة زفافه، ولا يتورع عن

متابعة الفتيات بعينين زائغتين وعروسه تجلس بجانبه؟ هذا السلوك يضعف حجج القائلين بأن الرجل معذور إذا أحب مرة أخرى لأن زوجته أهملته ولم توفر له الحب، لا ننكر بالطبع وجود زوجات مهملات، ولكن معظم الرجال لا يقولون الحقيقة حين يهجرون زوجاتهم، ولا يكون لديهم مبرر معقول في الواقع. كما إن منطق عدم الإخلاص من أجل البحث عن الكمال أمر لا يتقبله العقل إذ لا يوجد إنسان كامل ولو أن كل زوج أو زوجة لم يعجبه شيء ما في الطرف الآخر بحث عن طرف ثالث لكي يعوض نقطة الضعف أو النقص التي يريدها لأصبح الجميع نساءً ورجالاً خونة وعبيداً لأهوائهم!

وهذه النقيصة أو الجريمة كما تطلق عليها إحدى السيدات تحدث إذا كان هناك خلل في شخصية الرجل أو المرأة بحيث لا يشعران بالرضا بما هما فيه، وهذا طبع يصعب تغييره، ولكنه ليس مستحيلاً، ورغم أن المرأة تؤكد دائماً أنها قد تغفر أي شيء وكل شيء إلا عدم إخلاص زوجها فإن واقع الحياة أمر مختلف، فهي في النهاية ترضخ أمام الحقيقة المفجعة وتتعذب في صمت حتى النهاية، وتحكي إحدى السيدات قصة صديقتها التي تزوجت بعد قصة حب من شاب لا يقل عنها في الحسب والنسب والمكانة الاجتماعية، فكان التكافؤ والتوافق بينهما أساساً لعلاقة ناجحة استمرت ١٤ عاماً وكانت محل إعجاب كل من يعرفها.. وفجأة ودون سابق إنذار تعرف بأخرى أقل ما توصف به أنها أقل من مستواه ومستواها الثقافي والاجتماعي والمادي بكثير، بل لا يمكن عقد أي نوع من المقارنات بين الزوجة والعشيقة، وواجهها بالحقيقة فانهارت ولم تجد سبباً واحداً يدفعه إلى هذا التصرف، ورغم أننا جميعاً استنكرنا هذا التصرف فانني عندما أفكر قليلاً أرى إنها قد تكون السبب دون أن تقصد، فقد كانت واثقة

بنفسها، وتعامله على أنه لا يستطيع النظر لغيرها، وكثيراً ما كانت تردد هذه الجملة أمام الأصدقاء، بل إنها كانت تؤكد أنه يعمل لها ألف حساب، ورغم أنها كانت تفعل ذلك عن حب وثقة، إلا أنني أعتقد أن هذا التصرف منها كان يمثل ضغطاً على نفسيته، لأنه كان يبدو وكأنه يفعل ذلك خوفاً منها، ولهذا حاول أن يحطمها ويبرهن لها على أنه لا يخشاها حتى لو كان هذا الإثبات على حساب سعادته وهدم الأسرة التي بناها، بل أنه إمعاناً في إذلالها لم يطلقها إلا بعد أن رفعت القضية للمحكمة واستمرت ست سنوات قبل أن يطلق سراحها.

حكاية واحدة تتكرر كل يوم، وربما في كل ساعة في مكان ما في العالم، زوج لديه كل شيء، زوجة مخلصة، أطفال رائعون، بيت نظيف ومرتب، ولا يعاني أية متاعب على الصعيد العاطفي أو المادي، ومع ذلك يرتبط بامرأة أخرى ويهجر منزل الزوجية وأياً كان نوع هذا الهجر سواء كان بالجسد أو بالروح أم بالإثنين معاً فإنه يحدث شرخاً في طبيعة الأمور ويسبب جرحاً قد لا يندمل في قلب الزوجة، ويترك أثراً في نفوس الأطفال وتتحدث واحدة ممن مررن بهذه التجربة فتقول: بعد عشر سنوات من الحب والعطاء والأطفال اكتشفت أنه على علاقة بامرأة أخرى وينوي الإرتباط بها، هذا الإكتشاف صعقني، جمد تفكيري، وتركني مشلولة مجروحة. وعاجزة عن اتخاذ أي قرار، واجهت أهله بما نما إلى علمي، لم ينكر وكان دفاعه عن نفسه واهياً فهي أي الأخرى أخت لصديق توفي في حادث، ووفاء منه للصداقة المزعومة أخذ يتردد على منزل والدتها عارضاً خدماته على الأم والبنت اللتين أصبحتا دون رجل يتحمل مسؤوليتهما بعد أن فقدتا الإبن والأخ، وشيئاً فشيئاً زالت الكلفة بينه وبينهما وأصبح يتردد

على منزل المرحوم في أي وقت، وتعلقت به الفتاة وصارحته الأم بأنها لا تجد مانعاً في زواجه منها، وهو حسب تبريره يجد نفسه مضطراً للزواج من تلك الفتاة، ولا أجد وصفاً ينطبق على تبريره أكثر من أنه حقير، حقير بكل معنى الكلمة.

هل الوفاء للصديق الميت أولى من الوفاء للزوجة والأم التي على قيد الحياة؟ لم أقصر في حقه أبداً، حتى راتبي يستلمه كاملاً بموجب التوكيل الذي أعطيته إياه، واكتفيت بالقليل الذي يجود به عليّ، لم أكن أعلم أنه سيوفر راتبي لأجل متعته الخاصة، أجبرتني أمي على العودة إلى المنزل الذي خرجت منه مقهورة وقالت لي: لا تمنحيه فرصة الإستيلاء على البيت الذي أنفقت فيه كل ما تملكين وإحلال الجديدة محلك، وعدت إلى منزل الزوجية وأنا أشد ما أكون بُغضاً وحقداً على إنسان لا أمان له، ونهاية هذه المشكلة تختلف من إمرأة إلى أخرى حسب الثقافة والبيئة والمستوى التعليمي والاجتماعي، لكن مشاعر المرأة واحدة في كل مكان، وإن اختلفت ردود الأفعال، ولكن هل لابد من إنهاء العلاقة القديمة عند التورط في علاقة جديدة؟ يطالب بعضهم الضحية بالفرار من علاقة تفتقر إلى الإخلاص، ولملمة المشاعر الممزقة والبدء من جديد، والأغلبية تنصح بالإستمرار ومحاولة النسيان واعتبار ماحدث تجربة قد تجدد خلايا العلاقة القديمة.

تقول الإحصائيات إن ٧٠٪ من النساء اللواتي إكتشفن خيانة أزواجهن لهن وسلكن الطريق الأسهل وهو الطلاق قد ندمن وتحملن النتائج القاسية لتسرعهن في هدم منزل الزوجية، وربما يكون التسامح صعباً، فالمرأة تبحث عن سبب وجيه لخيانة زوجها وتشعر أحياناً بضعف ثقتها بنفسها وبالغيظ والمرارة وتحاول أن تتعرف على غريمتها بهدف المقارنة أحياناً ولمعرفة نقاط

الحسن التي جذبت زوجها لها ومن الأمثلة التي توضح تصرفات بعض
النساء عند تأكدهن من خيانة أزواجهن .

موقف إحدى السيدات . . مضى على زواجها عشرة أعوام ثم بدأت
تلاحظ نفور زوجها منها وانفراده بنفسه مع الهاتف في مكتبه لساعات
طويلة بعد أن يغلق عليه الباب، ولما كانت المسألة لا تحتاج لذكاءٍ كبير فقد
قررت أن تعرف كل شيء عن الأخرى، وبعد شهور عصيبة حصلت على م
تبتغي من معلومات وفوقها خبر أكيد بأن زوجها قرر الزواج مرة ثانية!
وآثرت أن تتصرف بحكمة وأن تسترد رجلها إذا أمكن دون أن تصارحه بم
علمت، ذهبت إلى صالون التجميل وقصت شعرها قصة مبتكرة بعد أن
غيرت لونه وابتاعت مجموعة جديدة من الملابس والعطور والمكياج
وحاولت أن تلفت انتباهه لها كأنثى وزوجة وكان يتجاهل هذه التغييرات
حتى إنه فقد أعصابه مرة وقال لها : هذه التصرفات لا تناسب سنك.
وابتلعت الإهانة وانزوت تبكي حظها سراً وإن بدت متماسكة ظاهرياً حتى
بعد زواجه من الأخرى والتي تماثلها في العمر، ولما كانت موظفة ومعتادة
على الإنفاق على أولادها وبيتها وحاجاتها الخاصة فإنها لم تتأثر مادياً وإن
تأذت معنوياً وعاطفياً، وغادر الزوج المنزل للإقامة بشكل شبه دائم في
الشقة الجديدة مع عروسه، وكان صعباً على تلك السيدة في البداية النظر
إلى زوجها أو حتى مخاطبته أثناء زياراته المتقطعة لأولاده، ولكن صبرها
كان مجدياً على نحو ما، إذ ما لبث الزوج الحالم أن اصطدم بالواقع الذي لم
يكن يعرف قيمته، فالزوجة الجديدة لا تعمل، وبالتالي كان عليه أن يتحمل
المسؤولية كاملة لأول مرة، إيجار الشقة وأقساط الأثاث والمصاريف الأخرى
خلاف تكاليف العرس، وبدأت الخلافات المادية تطفو على السطح، وبلا
حياء.

لجأ الزوج إلى زوجته الأولى يطلب المساعدة، ولم ترده خائباً أعطته ما أراد واشترطت الإنفصال، وحصل على النقود لكنه رفض الطلاق على أمل أن تغفر وتصفح وتعطي أيضاً. لكن الزوجة رفضت هذا النوع من الإبتزاز ورفعت أمرها للقضاء وما زالت القضية معلقة!! ومن غير الممكن أن تجبر المرأة على التسامح والنسيان، فهذا أمر يتبع الحالة التي تكون عليها المرأة ولكن بحث المشكلة نفسها قد يساعد على حلها، ربما تكتشف الزوجة بأن لزوجها علاقة قديمة ودائمة بامرأة أخرى، وقد يعترف هو صراحة بذلك، مثل هذه الحالة ليست نزوة طارئة، بل أن إصرار الزوج على السير في الطريق نفسه يدل على أنه لم يعد يهتم بشريكة حياته التي تجد أن من الكرامة اللجوء إلى أبغض الحلال!

شاب مغترب ودع زوجته في المطار المكتظ بالمسافرين في ليلة شتوية عاصفة، قبل طفلة الوحيد وتمنى للإثنين زوجته وطفله رحلة موفقة، وعاد إلى شقته الصغيرة وهو يتنفس الصعداء بعد أسبوعين من السجن والقيود، حرم فيهما من كل المتع التي أباحها لنفسه في السنوات الثلاث التي قضاها كطالب علم، قاد سيارته في الشوارع الممطرة وهو يلعن ضعفه الذي جعله يوافق على قدوم فاطمة والصغير لقضاء إجازتها القصيرة معه، إجازة منتصف العام، ليته أقنعها بتوفير المبالغ التي صرفت للتذاكر والمشتريات لسفرة طويلة في الصيف القادم.. ليته حسم الأمر بقول لا.. لكن ما حدث قد حدث وانتهى الأمر، ثم إنها لم تكلفه منذ تزوجها ريالاً واحداً فهي موظفة تحصل على راتب ضخم وتتحمل نفقاتها ونفقات صغيرهما بلا تذمر، بل إنها ترسل له كل بضعة أشهر حوالة مجزية ينفق منها بسخاء إضافة إلى راتبه كطالب.. إنتهى الأمر.. قالها وهو يبتسم لحبات المطر وموسيقى هادئة تنساب من المذياع وتعده للقاء "جوي" صديقته الحلوة! وبعد ساعات من اللقاء المحموم أفاق على جرس الباب ولم يخطر بباله و "جوي" تخلع ملابسها الداخلية باتجاه الباب أن زوجتة اضطرت للعودة بعد إلغاء كل الرحلات لرداءة الجو.. وأُلغي عقد الزواج بعد ذلك، وربما يكون التسامح صعباً، فالمرأة تبحث في أعماقها عن سبب مقنع لطعن شريكها لها بهذه الصورة، وتشعر أحياناً بقلة حيلتها وقيمتها كإنسانة وبالغضب، وتحاول أن تسبر أغوار المرأة التي سلبتها زوجها، فربما يساعدها ذلك على بناء ما انهدم، خاصة إذا كانت أماً وليس من السهل أن تغفر المرأة وتنسى وتمارس حياتها السابقة وكأن شيئاً لم يكن. شيءٌ ما في داخلها سينكسر، شيءُ شرخه ما في أعماقها سيتسع إن لم تمنح الوقت الكافي والصبر الكامل للتفكير وموازنة الأمور وتقييمها بالمنطق والعقل، ومن الأمثلة التي توضح

وقع الخيانة على المرأة من رجل أسلمته قيادها في كل شيء، ما حدث لإحدى السيدات فما إن تأكدت من غدره حتى وقعت فريسة للحزن والسهاد والبكاء دون إنقطاع، أضربت عن الطعام والكلام مما أذهل زوجها.. في الأيام الأولى حاول استرضاءها واعتذر لها وأبدى عميق الندم والأسف، وبعد عشرة أيام عجز فيها عن اختراق حاجز الصمت الذي تحصنت خلفه صرخ بنفاد صبر: ماذا أفعل لك أكثر؟ لقد اعتذرت ولم تقبلي عذري، تذللت ولم ترحمي كبريائي.. ماذا تريدين أكثر؟ الطلاق.. حسناً لا مانع إذا كانت هذه رغبتك.

وتقسم تلك السيدة أنها لم تفكر في الطلاق إلا بعد أن جرى على لسانه، إذ استخسرت قضاء العمر مع رجل احتملت خيانته عشرة أعوام ولم يحتمل فجيعتها عشرة أيام. وقد أثبتت جميع التجارب أن المرأة الصبورة العاقلة هي التي تكسب الجولة في النهاية بعد أن تتحول إلى حطام طبعاً، ولكن من أجل خاطر الأطفال يهون كل شيء، ومع ذلك فإن نسبة كبيرة من النساء لا يستطعن السكوت أمام خيانة الزوج! وليس كل النساء كبطلة احسان عبدالقدوس "رحمة الله" التي كتمت في صدرها علمها بعلاقة زوجها بصديقتها، وأجلت أحزانها حتى تصل إلى السبب أو الأسباب التي دفعت زوجها إلى أحضان غيرها وحرصت على أن تظل سمعة زوجها فوق الشبهات حتى حين اكتشف زوج الصديقة دليل الخيانة في سريره وواجهها به وأعلنت للزوج المخدوع بحدة أن هذا الدليل يخصها هي وقد فقدته أثناء زيارتها لصديقتها!! ثم هداها تفكيرها بعد عناء وعذاب إلى أن اعتمادها المادي على زوجها وتفرغها له أفقده الرغبة فيها، فعملت بدأب واصرار على انجاح مشروعها الصغير للهندسة والديكور، ونجحت واستردت ثقتها

بنفسها وانعكست الأدوار بصورة عجيبة إذ بات الزوج الخائن يخشى هذا الإستقلال وهذه الثقة ويخشى أكثر أن يفقدها بعد أن تأكد من حبه الكبير لها. حب لم يمنعه في لحظة ما من اغتيال حبها!! وأثبتت الإحصائيات أيضاً أن ٩٨٪ من الزوجات المخدوعات يواجهن الزوج بما اكتشفنه فوراً، أو يفقدن أعصابهن فتتعقد المشكلة أكثر ويتسرب الحب من منزل الزوجية فتموت الحلول.

الحل الوحيد للإستمرار كما يقول الخبراء هو التضحية، بالكرامة، بالأحساس.. بالألم.. ومن ثم محاولة النسيان.. لابأس بذلك.. ولكن لو كانت الزوجة هي الخائنة هل يضحي الزوج ويصبر ويكتم وينسى؟.. إسألوا الخبراء!!

يقال إن الرجل تأسره الكلمة الحلوة فإن لم يجدها في بيته فإنه يبحث عمن يسمعها له خارج أسوار الحياة الزوجية، ولكن ماذا عن الزوجة حين تفتقد الحنان والإهتمام والمعاملة الحسنة؟ ألا تراودها الفكرة نفسها؟ ألا تتعرض للإغواء وتهفو نفسها للحب حتى لو كان محرماً؟ ألا يخطر ببالهم أن المرأة المتزوجة قد تنحرف في غياب الرعاية والإهتمام والحزم أحياناً، وبعض الزوجات تستهويهنَّ فكرة المغامرة لمجرد المغامرة دون أن تكون هناك أسباب أو مبررات تدفعهن لهذا الفعل الشائن، وينقلبن إلى مراهقات حمقاوات يحتضن جهاز الهاتف أمام أطفالهن بكل صفاقة، ويبررن هذا بالأعذار لأَقرب صديقة بقولهن: غضب عني.. زوجي لا يفهمني!!

والرجل حين يعزف على أوتار عواطف امرأة متزوجة ويستميلها بكلمات منمقة تضعف مقاومتها وتدفعها للخطيئة إنما يفعل ذلك بقصد واضح لكل عاقل، فهو يعرف أن المرأة المتزوجة لن تطالبه بشيء ووضعها

الإجتماعي لا يسمح لها بأية مطالب وهي بعد كل هذا في موقف ضعيف أضعف مما تتصور هي، وحدث أن تعرفت سيدة متزوجة على شاب عن طريق الهاتف، وكانت تحادثه أمام أطفالها وفي غياب زوجها ساعات طويلة، وتطور الأمر ولم يعد يكتفي بالأحاديث، ومع التطورات الأخرى ووقعها تحت سيطرته الكاملة أصبح يأمرها بمقابلته في أي وقت يحدده دون أي حساب لكرامة الزوج المخدوع أو أطفالها الخمسة، وأصبحت تلك السيدة تعيش في رعب حقيقي طغى على حبها المزعوم للشاب المستهتر، فهي لا تستطيع الخروج في الوقت الذي يحدده عشيقها وفي الوقت نفسه تخاف أن ترفض أوامره حتى لا يؤذيها أو يهدم بيتاً يجلله العمار بسببها!! وظلت تلك السيدة تعاني حتى مل هو ووجد له ضحية أخرى.. هل تعتقدون إنها ارتدعت؟ الواقع يقول عكس ذلك؟ وهذه قصة أخرى..

وعلى أية حال أعجبني وصف ملك القصة القصيرة "انطوان تشيكوف" لمنزل جميل أثار إعجابه ودهشته ووقف يتأمله بانبهار وهو غارق في خضرة أشجار التوت والحور كأنما منذ الأزل، ويكمل تشكيوف وصف المنزل وأصحابه بقوله: شيش النوافذ في هذا البيت مغلق دائماً، فسكانه لا يحتاجون إلى الضوء، إنهم في غنى عنه، والنوافذ لا تفتح أبداً، لأن سكان البيت لا يحبون الهواء المنعش، فالناس المقيمون دائماً وسط أشجار التوت والاكاسيا والاحراش المتشابكة الندية لا مبالون تجاه الطبيعة، المصطافون وحدهم هم الذين حباهم الله القدرة على تأمل جمال الطبيعة، أما بقية البشرية فتغط في جهل عميق فيما يخص هذا الجمال، لا يقدر الناس ما لديهم من ثروة، ما نملكه لا نحافظ عليه، بل والأكثر من ذلك إن ما تملكه اليد تزهده النفس.

ونادراً جداً أن تجد من يعيش في الضوء ويستمتع بأشعة الشمس ودفء العواطف وفرحة الحياة.. وهذا الوصف صادق إلى أبعد حد، قليلون هم الذين يشعرون بالرضا عن أنفسهم وحياتهم أما البقية.. الأغلبية.. فتقضي العمر كله في الشكوى والتذمر، وأصحاب المنزل الجميل الذي وصفه تشيكوف يمثلون الأغلبيه التي تعيش على هامش الحياة دون حياة، وأصحاب المنزل كما جاء في القصة إمرأتان وحيدتان فقدتا عائلهما في معركة ما، ولولا أن أحد أصدقاء الزوج المتوفى ذهب لزيارتهما بدافع الوفاء لما علم بأمرهما أحد، فالأم الأرملة قد غرست عن جهل وحسن نيه في أعماق ابنتها الشابة الحسناء بذور الخضوع والإستكانة والسلبية، ومع أن الفتاة تتقن الفرنسية والحياكة وقدراً لا بأس منه من العلم إلا أنها لم تكن واعية لشبابها الغض وجمالها ودماثة خلقها، وكانت قانعة بالبقاء بين الجدران الرطبة والأثاث الباهت وحياكة جهاز عرسها، ولم يطل الصديق الزيارة المقبضة للنفس .. إذ أن الإثنتين الأم وابنتها أضجرتاه بشكواهما من كل شيء.. وبعد عدة سنوات فكر هذا الصديق أن يزور تلك العائلة ربما بدافع الفضول فوجدهما كما تركهما آخر مرة.. الفتاة تحوك جهاز العرس لعريس لا يأتي، والأم تندب حظهما العاثر، والنوافذ مغلقة والبيت ازداد رطوبة! وبعد أعوام أُخرى كرر الصديق الزيارة فهاله أن يرى الفتاة وقد ذبلت وتقوس كتفها وفقدت حيويتها وتركزت كل مظاهر الحياة في أصابعها النحيفة التي تحوك جهاز العرس بتركيز عجيب، وأقعدت الشيخوخه الأم عن الحركة وإن ظل لسانها طليقاً يكيل الإتهامات للقدر والناس والحظ والحياة! وفي الخارج كانت العصافير تغرد ابتهاجاً بقدوم الربيع. إن الذين خاضوا تجربة الطلاق يعرفون مرارتها جيداً كما يعرفون صعوبة التئام الجروح التي تنتج عنها، ولذلك عمدت معظم الدول إلى رفع

سن الزواج القانوني إلى ما بعد سن الرشد حتى يتمكن طرفا الزواج من إدراك أبعاد الزواج، وينضجا فكرياً واجتماعياً، والاحصائيات.

والأرقام تؤكد أن نسبة الأزواج الذين ينفصلون عن زوجاتهم وهم دون سن الرشد تثير الرعب، والضحايا عادةً الأطفال الذين جاءوا إلى الدنيا نتيجة نزوة وارتباط سريع لم يخضع للعقل والمنطق، وفي سن السادسة عشرة أو ما فوق ذلك بقليل تردد الفتاة وهي تتخيل نفسها ليلى محبوبة قيس: أحبه ولا أستطيع الحياة بدونه، ويردد الفتى الذي يكبرها بعدة أعوام فقط: إن لم اتزوجها سأفعل كذا وكذا.. ويتم الزواج، وبعد شهور تصرخ الفتاة: لا أطيق الإستمرار معه إنه كذا وكذا.

ويعلن الفتى عن رغبته في الانفصال بأسرع ما يمكن لأنه خُدع باسم الحب!! والذين يتراجعون عن الطلاق أو يرفضونه كمبدأ يأخذون بعين الإعتبار عشرات العوامل الحيوية الجوهرية في الحياة.. وهؤلاء الذين نتحدث عنهم – قد يكونون من الذكور أو الأناث – يعانون الكثير من الخلافات في حياتهم الخاصة، لكنهم يحاولون فلسفة المواقف ويضعون نصب أعينهم أهدافاً أسمى وأكبر من مشاعرهم الشخصية وإرضاء الذات، وقد يصل هؤلاء الصامدون إلى نوع من المهادنه الحقيقية مع الطرف الآخر أو يفوزون بحبه واحترامه عبر السنوات، والنساء بشكل عام لديهن استعداد للتحمل والصبر، والتضحية، فهن منذ نشأتهن الأولى يعتبرن بيت الزوجية المكان الطبيعي لهن، ويحلمن منذ الصغر بالأطفال والمملكة الخاصة والاستقلال المنشود.

وأكثر ما يخيف المعذبات من الزوجات ويمنعهن من المطالبة بالإنفصال فكرة حرمانهن من أبنائهن ونظرة المجتمع لهن، وكل أم تدرك تماماً ما قد

يأتي به الانفصال من ضياع لأطفالها، فتخضع نسبة هائلة من النساء لظروف سيئة ومعاملة قاسية ولا إنسانية من جانب الزوج بهدف حماية أطفالها من الحرمان من الاستقرار في حين - وكما ذكرت سابقاً - يرفض الأطفال هذا النوع من الاستقرار فهو أبعد ما يكون عن الأمان والحياة الكريمة، وهذا لا يعني إن الأطفال الذين يتنقلون من منزل الأب إلى منزل الأم بعد الطلاق لا يعانون من مشاكل ومتاعب ولكن يتخلصون من هذه العقد تدريجياً وينسون ما عدا نسبة قليلة تستلم للأمراض النفسية ويعجبها إستدرار الشفقة والبكاء على الذات إلى الأبد! وهذه النوعية تثير الغضب أكثر من العطف فغالباً ما تتوافر لهم حياة كريمة بعد الإنفصال لكهنم ينكرون هذه النعمة ويتقوقعون داخل شرنقة وهمية من المعاناة والعذاب. هناك أسباب عديدة وراء التريث في قرار الانفصال أو التهرب من مناقشته، ومنها الأوضاع الإقتصادية، فالزوجة التي لم تكمل دراستها ولا مورد لها تتبع زوجها مادياً وتعيش تحت رعايته الإقتصادية، وبالتالي تخضع لقراراته، أما الثريات من النساء أو الموظفات اللواتي يتقاضين رواتب مغرية فإنهن يراجعن أنفسهن عشرات المرات قبل الإنفصال فمسؤوليات الأبناء ونفقاتهم إلى جانب مسؤولية السكن والعلاج والضروريات الاخرى التي تبتلع الراتب قد تحولهن إلى مسخرات للوظيفة يخشين البطالة وانقطاع الرزق ويعتمدن على عملهن لا لتحقيق الذات ولكن لعدم الموت جوعاً.. وسبب آخر هو خوف المرأة من المجتمع، فالمجتمع يلفظ المرأة المطلقة ويحملها مسؤولية الفشل في حين يبدي تعاطفاً مع الرجل المطلق، أما في سلطنة عُمان فالوضع يختلف.

فمعظم النساء هناك لا يخشين أن يفوتهن قطار الزواج إذا وقع الطلاق،

هن لا يقبلن بأي رجل من باب أنهن استنفذن مرات الرسوب ولفشل
تجربة كما ورد في تحقيق صحفي نشر في إحدى المجلات، فالمرأة هناك
قبل وترفض ولا يقلل من مكانتها، إنها في خانه المطلقات، والطلاق في
ـمان ليس مشكلة، فاذا شعرت المرأة أنها غير قادرة على احتمال حياة
رفضها فإنها تمارس حقها الشرعي وتطلب الطلاق، ومن واجب الرجل أن
نحها حريتها إذا أصرت عليها أو إذا استنفد معها محاولات الإصلاح
تثالاً لتعاليم الدين الإسلامي. فإما إمساك بمعروف أو التسريح بإحسان ،
الرجل العُماني حين يتقدم للزواج من امرأةٍ مطلقة لا يصر على معرفة
سباب الطلاق ولا يفتش عن أسرار علاقة أصبحت جزءاً من الماضي،
تعامل المطلقة معاملة البكر حتى في مسألة المهر.

والسلوك الإجتماعي الذي تفرضه العادات والتقاليد العُمانية هو الذي
وجد نظرة المساواة بين المرأة المطلقة والفتاة، فكلاهما شخصية متكاملة ولا
نقص من قدر المرأة أن تكون قد طلقت مرة أو اثنتين طالما أن أسباب
لطلاق واضحة وليس فيها ما يشين، ورغم أن كثيراً من الشباب يفضل أن
كون الرجل الأول في حياة زوجته، إلا أن الغالبية العظمى لا تضع هذا
لمعيار كشرط للزواج، وإنما يكون المعيار الأكثر شيوعاً هو البيت الذي
خرجت منه شريكة الحياة ومكانته، ومدى تمسكه بالتعاليم الدينية، وليس
لمقصود بالمكانة الوجاهة الإجتماعية أو الغنى وإنما مدى احترام المجتمع
صاحب البيت، وإذا حصلت امرأة متزوجة على الطلاق فإنها لا تضع في
عتبارها كثيراً أن هذا الطلاق سوف يقف عقبة في طريق استمرار حياتها،
أو أنه سيحول دون تكرار تجربة الزواج مرة أُخرى، لذلك لا تتصرف بعصبية
ولا تقبع في مكانها خائفة من نظرات الناس أو اتهاماتهم، وإنما يحدث

العكس فهي تمارس حياتها كما كانت تمارسها قبل الزواج، ولا تندفع في اختيار زوج ثان للتخلص من لقب مطلقة كما أن الأهل لا يعاملونها كمخلوق ناقص ويتعجلون الخلاص منها بل يتركون لها حرية القرار والإختيار دون ضغوط أو منغصات! وفي بريطانيا تحتل الخيانة الزوجية المركز الأول في أسباب الطلاق، وتؤكد الكاتبة البريطانية "ماري ماكورماك" في كتاب صدر لها حديثاً بعنوان: ما بعد الطلاق: إن الخيانة هي السبب الرئيس للإنفصال بين الزوجين في كل المجتمعات حتى البدائية منها، فالخيانة الزوجية محرمة في الأديان، ومكروهة أشد الكراهية في كل المجتمعات المتقدمة والمتأخرة، وعندما يقدم أحد الطرفين على هذه الجريمة فإنه يقتل بيديه العلاقة الزوجية، والمجتمعات الشرقية تدين المرأة الخائنة ولا تعتب على الرجل الخائن في حين أن الحرام حرام.. والخيانة واحدة وعقوبتها واحدة، ولهذا يقول فضيلة الشيخ "حسن الشامي" كبير الوعاظ بوزارة الاوقاف بأبوظبي: كما يجب أن تحفظ المرأة نفسها فكذلك الرجل لا يفرط في عرضه، وفي قصة سيدنا يوسف عبرة لمن يعتبر إذ أعرض عن امرأة العزيز واستعاذ بالله، وعقوبة الخيانة واحدة للرجل والمرأة.. وإن ما يمنع أي شخص من أن ألا يخلص في حياته الزوجية هو الخوف من الله وإحساسه بمدى فداحة الذنب الذي يرتكبه في حق دينه ونفسه، ويرى أُستاذ علم النفس الإجتماعي "أحمد عبدالعزيز" إنَّ أهم الأسباب التي تؤدي للخيانة الرغبة في التغيير والمغامرة وكسر حاجز الملل، إضافة طبعاً إلى ضعف الوازع الديني، وإذا اعتبرنا إن المكالمات الهاتفية وسيلة من وسائل ملء الفراغ فإنها بالتأكيد من السلوكيات التي تدفع للخطأ، حيث يحدث نوع من الألفة التي قد تكون واهمة أو غير حقيقية، ولكنها تؤدي للنتيجة نفسها في كثير من الاحيان.

ورغم أن الشرع لا يفرق بين عدم إخلاص الرجل وعدم إخلاص المرأة فالإثنان لهما العقاب نفسه إلا أننا نجد المجتمع قد يقبلها من الرجل ولا يتقبلها من المرأة، وإذا كان الرجل لا يستطيع أن يستمر مع زوجة اكتشف خيانتها فإن الزوجة قد تفعل ذلك وتدوس على مشاعرها من أجل الأطفال، وإن كانت لا تغفر له هذه الزلة مهما أبدى من ندم ووعود، وبعض ردود الأفعال تجاه الخيانة حاد ومخيف كما حدث مع سيدة الهرم بعد اكتشافها أن زوجها وهو طباخ يعمل في فندق " ميناهاوس" في القاهرة على علاقة بفتاة أخرى ويعتزم الزواج منها، ولم تجد وسيلة تسترد بها كرامتها سوى قتله بالساطور وتمزيق جسده إلى قطع صغيرة، ولا أحد يمكنه التكهن بردود الأفعال المختلفة للنساء، فهذا يعود إلى عوامل كثيرة منها التدين والثقافة والوعي والحالة الإجتماعية والنفسية، فإذا كان الرجل يحسم الأمر بالهجر والطلاق فإن المرأة غالباً لا تفعل ذلك، وقد تفعل ما هو أسوأ.. وفي المحكمة الشرعية تسمع العجب.. فحين أعلن أحد الأزواج وأمام القاضي والشهود عن خيانة زوجته له أجابت ببرود: ولكنه هو من بدأ بالخيانة، فالقضية محسومة حسب قناعتها فما دام قد خانها فمن حقها أن تخون.. وتفسير آخر لا يقل غرابة عن الأول جاء على لسان رجل حفيت قدماه حتى نال قبول أهل الفتاة التي وقع أسير غرامها، وبعد أشهر من الزواج عاد يتردد خفية على أصدقائه العزاب ويصاحب بائعات الهوى والمتعة وبرر تصرفه بقوله: أحب زوجتي ولا يمكنني الإستغناء عنها لكنني رجل ومن حقي التمتع بحياتي الخاصة بعيداً عن عش الزوجية!

ولست أدري كيف يمكن أن تتوافق الرجولة بالمعنى الحقيقي الذي نعرفه ونقرأ عنه مع الغدر والخيانة! وأثبتت جميع التجارب أن المرأة الصبورة

العاقلة هي التي تكسب الجولة في النهاية، إذ ترجح كفتها وكفة أولادها، ولكن ما يحدث أن أكثر النساء لا يستطعن السكوت أمام خيانة الزوج، ويطالب خبراء الشؤون العائلية المرأة المخدوعة بالبحث عن الأسباب التي دفعت رجلها للخيانة ومن ثم معالجة الأمر برويه، والمرأة التي لا يهمها أمر زوجها أو التي تتحلى بصفات القديسين هي فقط التي تتجاهل المسألة، ولكن حتى هذه المرأة قد تتحول حياتها إلى عذاب وقلق لابد وأن تتغلب على حكمة البرود التي تنتهجها، فتلك الشابة التي علمت بأن زوجها على علاقة بأخرى ظلت تردد على مسامع الجميع وخاصة زميلاتها في العمل إنَّ هذا من حقه فهو رجل والرجل لا يعيبه شيء، وعندما انتهت تلك العلاقة بعد فترة طويلة تقدم لخطبة فتاة أخرى ولم تعارض أيضاً بل تظاهرت بالموافقة مدعيه أنه استشارها قبل أن يقدم على تلك الخطوة، وعندما تزوج حضرت حفل زفافه وهي بكامل زينتها في القاعة وكأنها أخت العريس لا زوجته.

وفي اليوم التالي سقطت فريسة مرض غامض وظلت لعدة شهور لا تفارق الفراش ونحل جسمها إلى درجة أثارت خوف ذويها.. وعندما عاد الزوج من رحلة شهر العسل عادت إليه، وصممت على أن تعيش ضرتها معها.. ولست أعرف رأي الأطباء النفسيين في مثل هذه الحالة، لكن من المؤكد أن هذه السيدة غير طبيعية وأنها معرضة للجنون أو الموت المبكر إذا استمرت تتظاهر بأن لا شيء تغير في حياتها مع العلم بأنها تزوجت عن حب، وهي تردد أمام الملأ بأن حبها مستمر لشريكها مهما حدث! في حين إن الزوج يستغل هذه العاطفة بالإستيلاء على جزء كبير من راتبها إضافة إلى أنها اقترضت من البنك لمساعدته في دفع المهر وتكاليف الزواج الجديد!

وحين يهرب الزوج إلى امرأة أخرى فإنه كما يبرر له الخبراء من بني جنسه، يهرب من الملل والروتين ورائحة البصل والتغيرات الفسيولوجية التي طرأت على زوجته إضافة إلى إهمالها له وانشغالها بالعيال والعمل والجمعية التعاونية والمدارس الخاصة بالأطفال وجبال من المسؤولية تثقل كاهل شمشون نفسه إذا عاد للحياة، وهو في غمرة بحثه عن أخرى تعيد لقلبه نبض الحياة لا ينظر لنفسه في المرآة ليرى إن التغييرات طالته أيضاً حتى وإن كانت مساهمته في أعباء الزواج ضئيلة قياساً إلى الزوجة، ودأب زوج من ذوي الوزن الثقيل له جسد مترهل يثير الإنتباه على معايرة زوجته أمام أهله والأقارب ببدانتها وقبحها وثقل دمها. والزوجة التي تفوقه جمالاً ودماثة خلق ووزنها أقل من وزنه بثلاثين كيلو غراماً على الأقل تبتسم أمام هذه السذاجة المتكررة وتقول: ما يخالف!! وإذا تجاوزنا هذه المفارقة الوقحة فلا يمكن تقبل مدحه لذاته فهو كما يدعى خسارة فيها وبإمكانه أن يتزوج أحسن منها ألف مرة وكل الفتيات ينتظرن إشارة منه إلخ.. مع العلم بأن هذا الزواج الذي يفتقد الإحترام والكرامة مضى عليه ٢٢ عاماً وأثمر عن سبعة أطفال أصغرهم في التاسعة.. ومثل هذا الرجل إذا تزوج مرة أخرى فسيقال إن التقصير من الزوجة وهو معذور! إن العدو الأول للزوجة هي المرأة الاخرى التي قد يداعب طيفها أحلام الزوج أو حتى عندما تتجسد أمامه في واقعة، ولقد أثبتت الدراسات الإجتماعية والنفسية التي نشرتها مجلة "روبوك" الامريكية مؤخراً إن شبح المرأة الأخرى في حياة الرجل هو أهم ما يقلق الزوجة ويهدد كيانها أياً كانت علاقتها بزوجها، فالمرأة لا تسلم بسهولة لإمرأة أُخرى وحتى ولو كانت المعركة بينهما تدور من أجل شيء تافه، فماذا تفعل إذن عندما تكون معركة مصير بينها وبين أخرى من أجل الرجل الزوج. الباحثة الامريكية الدكتورة "آنا ونيلز" الإخصائية النفسية

ومستشارة الزواج بمعهد "كيونت الامريكي" اهتمت بهذه المسألة وحاولت أن تحدد ملامح ومواصفات وتفاصيل المرأة الأخرى التي تشغل الزوج أو تستولي عليه، وبداية تقول "ونيلز" إنَّ المرأة الأخرى هذه ليست شبحاً، وليست وهماً، وليست من اختراع خيال الزوج.. وليست إسطورة تحاول الزوجة أن تعلق عليها فشلها في حياتها، ولكنها امرأة بكل ما تحمل هذه الكلمة من معانٍ هي امرأة تعلن وجودها بمهارة وتستطيع أن تعيش في حياة كل زوج، وتضيف: إن أهم ملامح هذه المرأة الأخرى أنها تعيش وتتنفس وتعمل من أجل هدف واحد ثابت.. أن تأخذ هذا الرجل لنفسها.. إنها تريد هذا الرجل فقط دون أن تضع أية عوائق ضد رغبتها فيه، إنها تعيش له فقط ومن أجل وجوده، فماذا تفعل هذه المرأة للإستيلاء على هذا الرجل؟ تقول: إنَّ هذه المرأة الأخرى حساسه جداً لمطالب الرجل النفسية، مدركة لكل ما يشتمل في نفسه من أشياء مهمة وأخرى تافهة، إنها تشعره بالإهتمام الخاص به، وبأن لا شيء يشغلها عنه، إنه هو الذي يهمها.. وهي تساعده على إثبات ذاته ليس كبطل أو سوبر، وإنما تهتم به كشخص.. كرجل.. أنها مثلاً تؤكد دائماً سعادتها به، بمبادئه، بثقافتة، باسلوبه في الحديث.. أو حتى تبدي دهشتها وانبهارها به وتتحمس لتصرفاته بمبالغة حتى لو كانت عادية وصبيانية وتافهة، باختصار فإن هذه المرأة الأخرى تسعى باتجاه هذا الرجل.. وتضخم حجم الأنانية. لديه وتضيف الباحثة:

إن هذه المرأة ذكية، بل ذكية جداً، فهي تستمع إلى مشكلات الرجل وهمومه باهتمام شديد، تتجاوب معه، وتشعره بأنه مضطهد، ومظلوم والحق معه ولكن البعض لا يدركون ذلك.. وهي بمشاعرها الفياضة وأسلوبها الدبلوماسي تؤكد له أنها القادرة على فهمه، وهي التي تريد أن

دفع عنه الظلم وتضعه في مكانه المناسب، إنها قادرة على أن تجعله يشعر
ائماً بأنه شخصية مهمة ومرغوب فيها، وهي تشاركه مزاجه الخاص
تطاوعه فيما يفكر فيه وتشجعه على أن يفعل ما يريد فلا تثير المشاكل ولا
عارضه فتعكر صفوه، وستقول الزوجات - والحديث ما زال على لسان
لدكتورة: إن هذا كله مستحيل على الزوجة. لأنها امرأة عادية ليست
بواصفات خارقة كما إنها مثقلة بالمسؤوليات والأعباء والمتاعب، وتقول
لباحثة: قد تقول الزوجة أيضاً إن سلاح المرأة الأخرى هو الإغراء.. والإغراء
لمبتذل أحياناً.. ولكنني أقول حتى لو صح هذا فلماذا لا تغرينه أنت أيضاً؟
نني أعتقد أن المشكلة أبعد من ذلك بكثير. ويمكن اختصار كل ما قد
يقال في جملةٍ واحدة مهمةٍ.. إن الرجل - أي رجل في العالم - يبحث عن
لمرأة التي تؤكد له أنه أعظم رجل، وإنَّ رغباته أوامر، وأوامره واجبة
لتنفيذ.. إن الرجل طفل كبير يبحث عن الصدر الذي يحتضنه بدفء
وحنان، عن اليد التي تمتد فتساعده لكي يقف من جديد، عن العقل الذي
يستطيع أن يلهو معه.. ويفكر معه.. ويعيش معه كل مراحل حياته بما فيها
من تلقائية وانفعالية.. بما فيها من جد وهزل ايضاً.

تقول إحدى الزوجات: مأساة كثير من الزوجات أنهن يهتممن
بالتفاصيل إلى حد الإختناق، والرجل يكره من تلاحقه في كل شيء، لابد
أن نترك له مجالاً لكي يتحرك فيه بحرية، وهذا طبعاً لا يعني أن تتجاهل
الزوجة بعض الأُمور ولكن أقصد ألا تجعله يضيق بها ومنها، ولذلك فالمرأة
الأخرى تجذبه لأنه يرى فيها مزيجاً من الحرية والإلتزام، من الجد والمرح، من
القوة والضعف، وهذا قد لا توفره الزوجة بملاحقتها له في كل شيء،
مشكلات البيت، تصرفاته، روتين الحياة، ولو فكرت الزوجة للحظات
لتوقفت عن كل هذا لأنها ستمل حتى نفسها.

وزوجة أخرى لها وجهة نظر مختلقة فهي تقول: أحيانا تنظر الزوجة إلى المرأة الأخرى لتعرف ماذا يجذب زوجها فيها، وقد تجد فعلاً ما ينقصها وتحاول توفيره لزوجها، وهذا ما أفعله أنا أحياناً، إذا لاحظت أن زوجي يهتم بهذه المرأة للباقتها أو لأناقتها، أو تصرفاتها الناعمة فلماذا لا أهتم أنا بهذه الأمور؟ ولا عيب في ذلك فأنا أعتقد أن كل ما تطمح فيه الزوجة أن تحافظ على زوجها، ولكن هل يتعارض هذا مع شخصية الزوجة التي تحاول تقليد المرأة الأخرى؟ تكمل الزوجة حديثها قائله: إذا كانت هذه الأشياء لا تتعدى المظهر العام أو بعض الكماليات فلم لا، أما إذا دخلت في صميم الجوهر فأنا أسفه، لا أريد أن أكون شخصية ممسوخة من امرأة أخرى، حتى هذا لن يرضي الرجل لأنه سيفقد في زوجته صدقها وتلقائيتها، وسوف يرفض فيها التصنع والمبالغة التي إنما يقبلها في الأخرى لأنها شيء عابر في حياته أو ظرف مؤقت يزول ويعود من بعد للأصل. وزوجة أخرى تحكي من واقع تجربة سعيدة فتقول: إن أية علاقة تقوم بين الرجل والمرأة الأخرى تبدأ دائماً بالصداقة ثم تنتقل إلى بقية الأمور الأخرى، فلماذا لا تكون الزوجة صديقة لزوجها، يثق بها فيحكي لها أسراره وكل ما يشغله ويفكر به، يحكي لها عن مشاعره وأحاسيسه وانفعالاته بعيداً عن أي حرج أو خوف من مسآلة أو عتاب، لو ظلت الزوجة صديقة لزوجها باعتقادي لما تركت مجالاً للأخرى تنفذ منه إليه. ويقول علماء النفس: نساء كثيرات يحببن أزواجهن ويضطلعن بكل مسؤوليات الزوج والبيت والأولاد بأمانة وجد وإخلاص، وعلى الرغم من ذلك فقد فشلن في إسعاد أزواجهن والإستحواذ عليهم: وكانت النتيجة هروب الزوج من البيت وإرتماؤه في أحضان أول إمرأة وجد لديها متسعاً من الوقت لكي تقول له كلمة حب.. وبقيت هي وحدها في البيت تندب حظها العاثر وخيانة زوجها دون أن تدري أنها

ـانت السبب . ومع ذلك فلو أن هؤلاء العلماء اضطلعوا بمسؤوليات البيت
الأولاد والزوج ومتطلباته وما يفرضه الزواج من واجبات اجتماعية وأعباء لا
حصر لها لما كان لديهم الوقت لكتابة حرف واحد ولكفوا عن إلقاء اللوم
على الزوجة التي يريدونها أن تكون المرأة الخارقة في زمن لم يعد فيه خوارق
لا معجزات . الطلاق تجربة مؤلمة وقرار خطير يتفق عليه الزوجان أو ينفرد
حدهما باتخاذه في لحظة يأس أو ثورة، ينتج عنه آثار قد تستمر إلى الأبد
وجود الأطفال .

وغالباً ما تكون الأنانية هي السبب الرئيسي للإقدام على هذه الخطوة
لبائسة، كأن يفكر الرجل في العودة إلى الحرية أو لتكرار التجربة مع أنثى
خرى تفرش له الحياة بالورود وتبهج أيامه وتتمتع بمزايا وصفات لا تتمتع
بها المرأة التي اختارها سابقاً، وتفكر المرأة إذا كانت هي صاحبة القرار - قرار
لانفصال التفكير السابق نفسه، والمحزن أن معدلات الطلاق تتزايد في
لعالم كله رغم إن كل ما يحتاجه الزوجان لتجنب هذه المحنة هو التعقل
لحظة واحدة، هي اللحظة التي تسبق إتخاذ القرار الخطير، ففي دولة
لإمارات العربية المتحدة أشارت الأرقام إلى أن عدد المطلقات عام ١٩٧٠،
بلغ ١٣٦٧ مطلقة، وارتفع العدد عام ١٩٨٠ إلى ١٧٢٧ وعام ١٩٨٥ إلى
١٧٩٩، وعام ١٩٨٦ إلى ١٩٠٠، وفي عام ١٩٩١ كانت النسبة كارثة إذ
بلغ عدد المطلقات ٧٢٢٠ مطلقة، وتقول إحصائية وزارة العمل والشؤون
الإجتماعية في أبوظبي لعام ١٩٩١ / ١٩٩٢ أن عدد المطلقات اللاتي
تقدمن بطلب الأعانة الإجتماعية بلغ ٣٦١٠ حالة في أبوظبي و ١٢٧١
حالة في دبي و ٩٢٢ حالة في الشارقة و ٦٢٤ في عجمان و ٦٦١ في أم
القيوين و ٩٦ حالة في رأس الخيمة و ٣٥٤ حالة في الفجيرة و ١٨٢ في

مناطق أخرى، وهناك الآلاف من الحالات التي لم ترصدها إحصائات الوزارة نظراً لأن المطلقات إما موظفات أو غير محتاجات للإعانة الإجتماعية، وهذا يعني إن عدد المطلقات ضعفي الرقم المذكور.

وفي الولايات المتحدة الامريكية أثبتت الإحصائيات وقوع مليون ونصف حالة طلاق سنوياً ومن بين كل زواجين يفشل واحد، وفي الشمال الغربي من المغرب العربي ترتفع نسبة الطلاق في بلاد البربر حتى تصل إلى ٩٩٪ وهذه كما يبدو أعلى نسبة في العالم كله. أما لماذا فالسبب بسيط وغريب، لأن العصمة في يد المرأة، والمرأة هناك لا تسيرها العاطفة بل المصلحة فعند حصولها على الطلاق تحصل على المهر وتصبح غنية ومرغوبة ويتحمل الرجل المطلق مهمة تربية الأطفال ورعايتهم، ولقبائل البربر عادات خاصة بالزواج إذ يقيمون احتفالاً سنوياً يتم فيه البيع والشراء واختيار الأزواج من قبل الفتيات الراغبات في الزواج. وتتم عملية الإختيار بعد نظرة سريعة من الفتاة تتوجه بعدها إلى الفتى الذي أعجبها وتمسكه من ذراعه وتخطبه لنفسها بجملة: "أسرت كبدي" أي إنك حزت على إعجابي ورضيت بك بعلاً، وقبل أن تتفوه بتلك الجملة تنظر إلى عينيه ملياً للتأكد من حسن اختيارها.. وكما يتم الإرتباط بسهولة ينتهي الطلاق بالسهولة نفسها.. ما عدا أن المطلقة هناك تعامل أحسن معاملة ويقدرها أهلها لثروتها، ويركض خلفها العرسان للسبب نفسه، ومن حقها بعد ذلك أن تتدلل كما تشاء، وأن تتزوج من تشاء وقتما تشاء.. وليس غريباً أن تتزوج الفتاة عشر مرات أو عشرين مرة أو أكثر في حياتها.

وفي السنغال إختل النظام الإجتماعي نتيجة الفقر والجفاف والجهل وترتب على ذلك كثرة الطلاق وتدهور وضع المرأة إلى حد يثير الاستنكار،

والمرأة في السنغال ليس لها رأي عندما يقع عليها الإختيار وتساق كالشاة إلى زوجها حيث يتم حبسها في غرفتها لا تغادرها شهراً كاملاً قد يمتد إلى شهور حتى تكون تحت تصرف عريسها في أي وقت يريده وحتى يتم الحمل، وتتولى سيدة عجوزة مهمة تغذيتها أثناء هذا الحبس التقليدي الفردي، وعندما تلد يهجرها الزوج ويبدأ في البحث عن زوجة أخرى لتتفرغ الأولى لرعاية المولود لمدة عامين، وقانون السنغال يسمح للرجل بتعدد الزوجات ولا يلزمه بنفقة نحو مطلقته أو أطفاله منها، بل ويعطيه الحق في سلب زوجاته كل ما يملكن إذا أراد، وليس للمرأة هناك أية حقوق بل عليها واجبات تهد الجبال، الطهو والتنظيف والعمل الخارجي لسد إحتياجات أسرتها كالإشتغال بالبيع وصنع السلال وكل ما تجيده من عمل.. والرجل عاطل عن العمل.. يعمل ثلاثة أشهر في السنة فقط في الحقول الزراعية وفي الشهور التسعة الباقية يأكل وينام ويتزوج ويظلم المرأة التي تعوله. وتلقي رائدة الحركة النسائية في داكار "روز" الضوء على الظلام الذي يلف النساء في السنغال بهذه الكلمات "إذا حصلت النساء على قانون يلزم الرجال باعطائهن أقل القليل فإن كل شيء سينقلب رأساً على عقب ولكن على مستوى القانون الحالي ليس هناك ما يحمي المرأة وليس هناك أي ضمان لها، ويمكن للرجل أن يطلق زوجته ولا يمسها أي سوء إذا تركها دون نفقة لعدم وجود متابعة لهذه القضايا وأيضاً لأن الذين ينظرون في القضايا رجال وأية قوانين تستحدث لصالح المرأة ستؤثر عليهم هم أيضاً، وإذن لتبقى الأمور كما هي أفضل بالنسبة لهم، والمرأة عندهم تعمل ليلاً ونهاراً ولا يمكنها شراء أو بيع قطعة أرض أو رأس ماشية دون إذن زوجها" .

وكما هو واضح فإن الظروف القاسية التي تعيشها لا تسمح لها بترف الشكوى من روتين الحياة الزوجية أو الملل أو الخيانة التي تقوض دعائم أكثر البيوت والأسر، إنشغالها بتوفير اللقمة لأطفالها لا يدع لها الوقت كي تفكر في حياتها هي.. في حين إن معظم النساء اللواتي يعشن في ظروف أفضل ويصممن على الطلاق ينحصر تفكيرهن في أنفسهن فقط، وتدل تصرفاتهن على الترف والطيش، على سبيل المثال تلك السيدة التي لم تمانع في زواج زوجها من أخرى تلهيه عنها وعن مطالبته الدائمة باهتمامها بأطفالها والبيت ولما حدث ذلك بدأت تشعر بنقص الموارد المادية التي كان زوجها يغدقها عليها بغير حساب قبل أن تدفعه إلى أخرى، وفكرت أن تنفصل عنه رسمياً وتظفر بالمنزل والنفقة وحريتها وتم لها ذلك بعد محاولات مريرة ومستميته من الزوج لإثنائها عن قرار يضر بالأطفال الأربعة.. أطفالها.. ولاحظ الزوج بعد ذلك أن مطلقته تنفق المبالغ الشهرية التي خصصها لصغاره على ملابسها ومكياجها وزيارة صالون التجميل الأسبوعية، وتنمي في نفوس الصغار الحقد على الأب وزوجته الجديدة وأطفاله منها، فتدفع الصغار إلى اللجوء إلى الوالد لطلب كل ما يحتاجونه من ملابس وأدوات مدرسية وكماليات، ويضطر الوالد إلى تحقيق مطالبهم على حساب حياته الثانية، وتحت وطأة الشعور بالذنب لإنفصاله عنهم رغما عنه، وفي المرات القليلة التي يعتذر فيها عن توفير احتياجات لا تنتهي وينبه أطفاله من زوجته الأولى إلى طلب ما يريدونه من والدتهم لأنها تتقاضى مبلغاً ضخماً من أجلهم، تصعقه إجاباتهم الحالية من أية براءة طفولية، أنت لا تحبنا.. أنت تحب أطفالك الآخرين أكثر.. ما تدفعه لأمنا ضئيل وغير كافٍ.. إلى آخر هذه البكائيات الملقنة، وفاض الكيل بالزوجة الثانية وشعرت بالغبن وعدم الأمان مع زوجٍ غير متوازن وغير عادل، ينوء

ت ثقل ذنب لم يرتكبه، ويظلم من تقف معه مادياً ومعنوياً بلا أدنى
طق، ولم يكن أمامها آخر الأمر إلا أن تطلب الطلاق! وأخرى هجرت
جها وطفليها التوأم ولم يكملا بعد عامهما الأول، وانقادت وراء عاطفة
رجاء صورت لها الحاضر مع زوج يحبها ويفي بكل واجباته كئيباً
لستقبل المجهول مع شاب غرير سحرها بعذوبة اللسان مشرقاً مجمل القول
الإحساس الناضج بالمسؤولية يشكل درعاً غير مرئي يصد عن النفس كل
ـربات اليأس والخيبة ومحاولات النكوص والتراجع وفض الشركة "شركة
رواج" وعندما نتكلم عن الطلاق ونتائجه لابد أن نذكر أسبابه..
لمؤشرات التي تقود إليه – كما يقول الخبراء – عشرة بدون ترتيب: الغيرة
المال– العنف – الأطفال – الصمت – الهوايات الخيانة الزوجية – الأقارب
العمل – الحياة الزوجية، وبخلاف تلك الأسباب هناك أوقات تتذبذب
بها المشاعر بين الزوجين بشكل مفاجئ .

وعاصف وتؤدي إلى الطلاق السريع، ففي الولايات المتحدة الأمريكية
فـز عدد العاطلين عن العمل من ٢ مليون إلى ٩ مليون، ودفع الاختناق
لاقتصادي الكثيرين منهم إلى الإنفصال سواء كان رسمياً عن طريق المحكمة
، دون إعلان تجنباً للنفقات التي يترتب دفعها للمحامين ورسوم الطلاق،
تأتي البطالة في المرتبة الأولى في تلك الأوقات التي ذكرتها، ثم الأعياد
النقاشات التي تدور حول تفاصيل صغيرة لا أهمية لها لكنها تؤدي إلى
وران العواطف وتخلق أزمة من لا شيء، كما ان الإنتقال من منزل إلى آخر
جديد يعرض الزوجين لتبادل الإتهامات بشأن تقصير الطرف الآخر في
تنفيذ ما هو مكلف به، أو ما هو منتظر منه ويتبع ذلك إرهاق بدني وتمرد
عاطفي غير مأمون العواقب، ميلاد طفل سواء كان الأول أو الرابع يشحن

القلوب بالقلق والمرارة، القلق من قبل الزوج الذي يرى زوجته مشغول
بأمومتها عنه، والمرارة من قبل الزوجة التي لا تجد مبرراً لغضب زوجها وهي
تقوم بواجبها كاملاً نحو أطفاله.. وهذه المشاعر التي لا يعبر عنها الطرفا
بصراحة تبعد المسافات بينهما وتقرب شبح الفراق، وتعد البطالة والأعيا
والبيت الجديد ومولد طفل بطل الموت حيث لا لقاء في دنيا الأحياء، فموت
فرد من أفراد العائلة قد يتسبب في موت العلاقة الزوجية دون قصد أ
تخطيط.

وتحكي إحدى الزوجات وهي أم لثلاثة صبيان أنها فقدت زوجها بعد
ما فقدت طفلتها بعام، وانها ما تزال حزينة على فراق طفلتها ذات السبع
شهور، ولكنها غير نادمة على فراق زوجها الذي طلقها وارتبط بأخرى
فهو لم يعبأ بإحساسها ولم يراع لوعتها وأحزانها، وكان يتذمر ويصرخ فيه
كلما استفاضت في الحديث عن فقيدتها، ويطلب منها الكف عن ذلك
بقسوة حاسمة، وهي كما تقول كانت تعلم أنه يتألم في قرارة نفسه ولكنه
كانت على حافة الجنون، وكانت تريد أن تحكي وتفضي بآلامها لأقرب
الناس إليها لزوجها.. ربما لو تركها تتحدث لهدأت نفسها وعادت إلى
ممارسة مهمامها كزوجة وأم، لكن ضيقه وتبرمه بها جعلاها تكرهه وتكر
العيش مع رجل أناني لا يفكر في مشاعر الآخرين إلا بمقدار ما تؤثر هذ
المشاعر على حياته، ويحكي رجل آخر عن سبب انفصاله عن زوجته بعد
حياة استمرت خمسة عشر عاماً وأسفرت عن سبعة أطفال. أنه لم يعد
يطيق النظر في وجهها بعد وفاة والدته العجوز، لقد تزوجها عن حب
وهذا الحب جعله أسير أوامرها ونواهيها، أبعدته عن أُمه وأقنعته بعدم
مساعدتها مادياً، وصورت أمه كامرأة طماعة تستغل أمومتها إلى أبعد حد

وعبثاً كانت الأم الأرمله تحاول شرح ظروفها للابن الأصغر، كانت تقول له عندما تراه في زياراته القصيرة والمتباعدة: يا ولدي هات ورقة وقلماً واحسب معي، مايدفعه شقيقك الأكبر يذهب للخادمة والسائق، ومايدفعه أخوك الاوسط للطعام وبنزين السيارة .

وقبل أن ينتهي الشهر أشتهي ريالاً واحداً ولا أجده، يا ولدي أنا لي إحتياجات، أشتهي أحياناً زجاجة عطر أو قطعة قماش أو هدية بسيطة أقدمها كواجب للمعارف والصديقات! وتنتهي الزيارة دون أن يجد الجرأة على مد يده إلى جيوبه العامره ويخرج مائة ريال للعجوز التي لا تبخل عليه بكل ما يتوافر في منزلها الصغير من طعام وشراب وكأنها تغريه بتكرار الزيارة ولو لدقائق. وفي الليله التي سبقت رحيلها سمع صوت الخادمة التي تعمل لدى والدته وتتولى مهمة إدارة قرص الهاتف لمعارف مخدومتها التي تدفعها الوحدة للإتصال بأبنائها وسماع أخبارهم عن بعد، قالت له الخادمة: ماما تريد أن تكلمك، عبست زوجته الجالسة بقربه وحذرته بإشارة من يدها من أمر يعرفه، حمله صوت أُمه الدافئ إلى عوالم كان قد نسيها أثناء جريه وراء المال والمركز وتأمين المستقبل لأطفاله وزوجته، تذكر طفولته والحب الذي كانت تغدقه عليه بسخاء ودموعها الغزيرة حين يسقط في أحضانها مريضاً أو ينقل إليها أخباره ومشاريعه وأحلامه التي تحققت، سمعها تقول للمرة الأخيرة: يا ولدي لم أرك منذ شهرين، غداً الجمعة تعال أنت والعيال وأمهم وتغدوا معي أريد أن أراك، لا أريد مالاً، صدقني لن أطلب منك شيئاً.. فقط تعال!! ولم يذهب، فرضت عليه زوجتة قضاء الجمعة مع والدتها في منزلها الذي ينفق جزءاً لا بأس به من دخله ودخل زوجتة عليه كل شهر، ويوم السبت سمع بخبر وفاة والدته، وجدتها الخادمة

نائمة في هدوء وفنجان القهوة أمامها لم يبرد بعد، ولم يقدر على البكاء.. لن تخفف دموع العالم كلة وطأة الندم الذي ينخر في رأسه ليل نهار.. بخل عليها ببضعة ريالات ينفقها عن طيب خاطر في وجبة عشاء فهل يسخو الآن بالدموع؟ هل ستصل إليها دموعه وتزيل عن قلبها الذي سكت إلى الابد غشاوة العقوق والنكران؟ ما نفع الحب الذي نتصور أننا نكنه لأقرب الناس إذا دفناه في أعماقنا وعجزنا عن التعبير عنه؟ وحارت زوجتة في أمره، الأيام والشهور تتوالى وتبدو عاجزة عن التخفيف عنه، النسيان لا ينفذ إلى أعماقه، يقضي معظم نهاره وليله ساهماً وعازفاً عن كل شيء!

ولم تطق صبراً، ولجت باب الغرفة التي صمم على الانتقال إليها بمفرده منذ فترة، وجدته يحدق في صورة متآكلة الأطراف خمنت أنها لوالدته، أرادت أن تقول شيئاً، لم يمهلها، أنهى حياته معها بكلمة واحدة: طالق! إنَّ موت فرد من أفراد الأسرة يكشف أحياناً كم هناك مشاعر ميته لم ينتبه أصحابها في زحمة الحياة إلى موتها، وتأتي بعد ذلك الإجازات وإقامة أحد والدي الزوجة أو الزوج معهما في آخر قائمة الأوقات الصعبة في حياة كل زوجين والتي قد ينشأ عنها خلاف ومن ثم انفصال!! الأسباب العشرة الرئيسية التي تؤدي إلى الطلاق تخضع لطرق المعيشة والبيئة والمجتمع الذي يعيش فيه الأزواج، في مصر يكثر الطلاق بسبب الجهل والفقر، وفي فرنسا بسبب العنف، وإنجلترا وأمريكا لارتفاع نسبة البطالة، وفي المجتمعات الخليجية لسوء فهم الذكور لدور المرأة وسوء الإختيار، وهكذا نجد أن كل مجتمع ينفرد بخصائص معينة وظروف مختلفة تجعل سببا دون الآخر يقفز إلى مقدمة النتائج المستخلصة من دراسات واستطلاعات دقيقة .

وعودة للمخاطر العشرة التي تتعرض لها كل حياة زوجية والتي إذا

ـكن تجنبها يسود الوئام والسلام سماء العلاقة المقدسة، وأبدأ بالغيرة التي
ـول عنها خبيرة علم النفس (زيلدا وست) أنها يمكن أن تكون جزءاً
ـادياً في أية علاقة، ولكن عندما تصبح مفرطة وتتجه نحو الإستحواذ
ـكامل، تتسبب في مشاكل لا تعد ولا تحصى، الغيرة المعتدلة قد تكون
ـيلاً على الحب ودافعاً للكمال، وإذا زادت عن الحد المعقول تحولت إلى نار
تميز الأخضر من اليابس، وتبدأ بالتهام صاحبها من الداخل قبل أن تمتد
ى الخارج. ونشرت الصحف الأمريكية خبراً موجزاً مفاده أن مطلقة في
ـربعين من عمرها قتلت زوجها وزوجتة بإطلاق الرصاص عليهما وهما
ـئمان ليلاً في منزلهما الكبير الذي كان سابقاً منزلها وبعد خروجها منه
ـحتفظت بالمفاتيح الخاصة به، وقد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة أن الجانية
ـدمت على جريمتها بسبب الغيرة من المرأة التي احتلت مكانها وسريرها،
استولت على قلب زوجها وتعاطف أطفالها الأربعة، والغيرة هي المحرض
ـقتل فعلاً، ولكن الدوافع مختلفة أو كما تقول الكاتبة البوليسية المعروفة
أجاثا كريستي) إن ساعة الصفر لا تنحصر في النتائج التي تسفر عنها بل
ي المقدمات التي تقود إليها. فقبل وقوع الجريمة المادية هناك صراع إجرامي
ـمرس يدور في الخفاء. وقصة السيدة هذه ينطبق عليها هذا التفسير .

بدأت القصة بشكل عادي، يلتقي اثنان في مكان ما، تتوهج شرارة
لإنجذاب بينهما وتتحول إلى حب ومن ثم زواج تماماً كما يحدث كل يوم
ـكل ساعة ولآلاف البشر من الجنسين في أنحاء المعمورة، الشاب محام على
ـدر كبير من الذكاء والثقة بالنفس، والفتاة جميلة ومثقفة وأنيقة وتعتمد
عتماداً كلياً على نجاح زوجها لتحصل على كل ما تحلم به من اكسسوارات
ـوملابس وعطور وسيارات فارهة تثير بها حسد صديقاتها، وتمر السنوات

ويلمع نجم المحامي (دان) ويصبح مشهوراً ليس فقط لبراعته في كسب القضايا الموكلة إليه، بل لأمانته وحسن تعامله مع زبائنه، ويتم انتخاب بالإجماع كرئيس للمحامين في مدينته، ومع نجاحه المطرد يبدأ التحول في سلوك المرأة التي اختارها عن حب وحقق لها ولأطفالهما الأربعة الرخا والأمان والإستقرار النفسي والمادي، بدأت تتصرف بعصبية وتنفق من رصيد زوجها دون حساب ودون أن تفكر بتوجيه كلمة شكر أو تشعر بالعرفان للرجل الذي يرهق نفسه من أجل أُسرته، وبدت مستسلمة لأوهام مرضية عن الدور الكبير الذي قامت به في مساعدة زوجها للوصول إلى أعلى المراتب، وعن نكرانها لذاتها وتضحياتها العظيمة من أجله، وأطلت هذه الأوهام برأسها الخطير على حياة الأسرة التي كانت نموذجاً للسعادة ورغد العيش، بدأت أول الأمر تؤنب زوجها وتنتقده أمام الصغار وتحول النقد إلى تصغير وتقليل من شأنه، وتطور الأمر إلى سباب وعبارات مؤذية تنهمر بعدها دموع الأطفال الذين لم يكونوا يتصورون أنَّ والدتهم قد تتفوه بها ولو على سبيل المزاح، وبحق والدهم الذي كانوا يدركون مدى حبه وتفانيه من أجلهم جميعاً. . وبدأت إبنتها ذات الخمسة عشر ربيعاً تتجنب دعوة أصدقائها للمنزل حتى لا ينصدموا في والدتها التي ما كانت تتورع عن التلفظ بالأقوال البذيئة أمام أصدقاء زوجها وأطفالها لتقلل قدر ما تشاء من قيمة زوجها وإن كانوا جميع المعارف يجمعون على أنها إنما تحقر نفسها بالدرجة الأولى، وبالتالي لم يعودوا يكترثون بها أو يحرصون على مجالستها، وبدلاً من أن تدرك أنها أصبحت مكروهة ومنبوذة تمادت في تصرفاتها ولم تلاحظ نفور صغارها منها والكراهية التي حلت محل الحب في قلب زوجها، كان كل ما يهمها هو أن تؤكد ذاتها بأسلوب مرضي سقيم، وأن تستولى على النقود التي حصل عليها زوجها " بفضلها هي "

كما تقول في كل مناسبة، وشعر (دان) إن الجحيم أرحم من معاشرة هذه لمرأة فطلب الطلاق، ووقفت هي كالمجنونة أمام القاضي تسب وتلعن وتتفوه أقذع العبارات غير آبهه بإعتراض محاميها الذي أدرك بعد حين أنه يرافع ني قضية خاسرة، وتعاطف القاضي العجوز مع الزوج المسكين وتساءل كيف أمكنه أن يحتمل هذا العذاب لسنوات.. وحكم له بالطلاق وجن جنونها ووقفت تشتم سيد العدالة وتتهمه بالتحيز لرجل من جنسه، وأنه عبد للوساطة، وكانت النتيجة حبسها لعدة شهور لم تتعلم من خلالها شيئاً فما إن خرجت حتى عاودت أُسلوبها القديم في الإستفزاز والتحرش وزاد الطين بلة ما نمى إلى علمها من رغبة زوجها بالزواج من زميلة وجد فيها كل ما افتقده معها، وكان أول شيء فعلته بعد سماعها هذا الخبر هو لذهاب إلى متجر لبيع الأسلحة حيث ابتاعت مسدساً ثم توجهت إلى منزلها القديم وأفسدت استعداد أُسرتها لعيد الميلاد بتمزيق الهدايا وتكسير واجهة المنزل الزجاجية، ولم يشأ طليقها أن يعرضها لمحنة السجن مرة أخرى وتنازل عن حقه مع استمراره بدفع النفقة الشهرية الضخمة (ستة آلاف دولار) ولم يؤثر موقفه النبيل في زعزعة إيمانها بضرورة القضاء على مستقبله الذي صنعته بتضحياتها الجسام كما تتصور، كانت تتصل عدة مرات في اليوم وتترك رسائل بذيئة يبثها جهاز التسجيل وتحمر وجوه الأطفال خجلاً لدى سماعها .

وكانت الخطوة الأخيرة أو قبل الأخيرة سرقتها لقائمة المدعوين لزفاف غريمتها، ومن ثم الاتصال بكل أصدقائها القدامى الذين وردت أسماؤهم في القائمة ومحاولة إثنائهم عن حضور الحفل بقصد إفساد الفرح، وتعاظم بؤسها وهي تنسحب بلا وعي إلى ركن معزول لا يلتفت إليها أحد وحيدة

إلا من غيرة مجنونه تنهش أعصابها وتجرها دقيقة بعد أخرى إلى الهاوية.. الغريب أنها بعد أن نفذت جريمتها المزدوجة لم تشعر بالندم بل بالظلم الذي وقع عليها، وقالت أثناء محاكمتها التي حكم عليها بالسجن المؤبد أنها ضحية، أما زوجها وزوجتة فتستنكر أن يقول عنهما الرأي العام ضحايا.. فهما مجرمان يستحقان الموت .

وغيرة هذه المرأة كانت من نجاح زوجها، اتكالها عليه في كل شيء جعلها تنظر إلى أعماقها بمنظار مشروخ لتكتشف أنها لا شيء.. هو يعمل طوال الوقت وهي ضاقت بطول الوقت، هو يجني أموالاً طائلة وهي تعتمد عليه في معيشتها، هو متحدث لبق حياته مليئة بالأحداث والنوادر وهي لا تجد ما تقوله ولا تجيد أمراً غير المناكفة، ولو أنها أو من حولها أوجدوا لها عملاً يشغلها ويمتص ثورتها على وضعها لما انتهت هذه النهاية.. الغيرة التي تصل إلى حد الإيذاء دليل نقص، وفي العصر الحديث تشوهت النفوس والقيم، وبات الأخ يغار من أخيه، والأخت من أختها والأم من إبنتها أو العكس.. وليس غريباً بعد ذلك أن تجد الغيرة المرضية طريقها بين الأزواج والزوجات وتدمر أواصر المودة والرحمة بينهم.

وأبشع أنواع الغيـرة تلك التي تكون من زميل أو صديق، روت لي صديقة أنها كانت مسافرة مع زوجها إلى دبي للراحة والإستجمام، وبعدُ عودتهما وقفت في المطار تنتظر أن ينهي زوجها إجراءات العودة، ورأته يقف ويتحدث مع شخص ما خمنت أنه صديق له ولفت انتباهها أن الصديق أشار نحوها عدة مرات وهي تقف غير بعيدةً منهما، ولاحظت وهما في طريقهما للخروج إن زوجها صامت ويتصرف بعصبية وضيق، وفي المنزل حكى لها أغرب موقف قد يتصوره انسان عاقل.. قال لها إن الشخص

الذي تبادل معه التحية في المطار زميل له في العمل، لكنه خامل وغير جدير بتحمل المسؤولية ومن الطبيعي وهذا حاله أن يتخطاه الجميع في الترقية، وزوجها أولهم لأنه حاصل على الشهادة الجامعية ومجد وملتزم، الأهم من كل تلك الأشياء أنه مخلص في عمله، الزميل المذكور كان معه على الطائرة نفسها لكنه لم يره إلا على أرض المطار وعلق الزميل على ذلك بقوله: طبعاً فلوسك كثيرة حتى تسافر في الدرجة الأولى.. على العموم لقد فاتتك البارحة سهرة لا تحلم بها، ولو كنت أعلم بوجودك هناك لدعوتك.. انظر إلى تلك الفتاة الواقفة هناك (أشار إلى زوجتة دون أن يعلم بالطبع) لقد كانت صديقتي لليلة واحدة فقط وكلفتني مبلغاً ليس بسيطاً.. لكن لا يهم من أجل الوناسة كل شيء يهون، ولم يستطع الزوج هضم تلك الكذبة الدنيئة والسكوت عليها فقال له بهدوء: لكنها زوجتى ولم تفارقني لحظة واحدة، وابتعد الزميل بعد أن برر جريمته بوجود تشابه بين تلك وهذه! وتقول الصديقة بأسى: تصوري لو أنني كنت مسافرة وحدي لشأن من شؤوني وحدث هذا الموقف، لابد إن زوجي سيصدقه أو على الأقل ستترك الأكذوبة آثاراً في نفسه، وتنعكس على علاقتنا معاً، ولا أخفيك سراً أن زوجي لم يعد يتحمس للسفر معي كالسابق وكأنه يحملني في اللاوعي وزر تلك الدناءة والخسة التي تعشعش في نفوس مريضة غير قابلة للشفاء! وكنت قبل ذلك أؤمن مع الناس بالمثل القائل: لا دخان من غير نار، لكن بعدما حصل معي تراجعت عن عدة قناعات خاطئة ومنها هذا المثل، فالنار الحقيقية التي ربما يعنونها هي نار الغيرة التي تدفع البعض إلى إطلاق الإشاعات المدمرة بلا وازع ديني أو أخلاقي، ولا يقل عنهم مرضا أولئك الذين يتناقلون الإشاعة ويضيفون إليها ما شاءوا من زيادات، وبمضي الوقت يصدقونها ويقسمون بأغلظ الأيمان على صحتها.

ومنذ زمن غير بعيد حكت لي إبنة عمي قصة فتاة من عائلة محترمة تعرضت للإغتصاب ووجدت في حالة سكر وإعياء شديدين.. الخ.. ولي وجهة نظر، وأثبتت الأيام صحتها، فالإشاعة حين تقرن بأسماء حقيقية ومعروفه في المجتمعات الصغيرة أكبر دليل على إنها كاذبة وملفقة وأطلقت لإسباب معينة، والحقيقة وحدها هي التي تنتشر دون حماس ودون أسماء.. وهذه القناعة جعلتني أصر على معرفة المصدر الذي استقت منه ابنة العم العزيزة الحكاية.. ورغم أني لا أعرف الفتاة من قريب أو بعيد، وبإمكاني أن أقول مثل غيري أمرها لا يعنيني في شيء.. فضيحتها فقط هي التي تسليني وتنعش مجالس النميمة والشر، إلا أني أردت أن أعرف وأبرئ ساحتها إذا ما توصلت إلى شيء مهم.. وكان. اتصلت بالمصدر الموثوق حسب كلام قريبتي، والمصدر الموثوق حولني إلى مصدر آخر موثوق أيضاً، والمصدر الآخر الموثوق إلى آخر وهكذا.. شهور طويلة وأنا أتحرى من المصادر الموثوقة التي لا نهاية لها والإشاعة تنهش عرض الفتاة وأهلها وتسمم حياتهم، وفي مثل هذه الحالات يعتمد المتضررون على الزمن.. فهو قادر على إسدال ستار النسيان على ذاكرة الناس.. لكنهم مخطئون فالناس يضجرون من الحكايات القديمة لكنهم لا ينسونها بل يسردونها لأولادهم ولأحفادهم.. وتظل الإشاعة سيفاً مسلطاً على رقاب الأبرياء إلى الأبد، والمهم إن محاولاتي أثمرت في النهاية، وعلمت بما لا يقبل الشك إن سيدة متزوجة ولديها طفلان وتعمل كمدرسة هي أول من أذاع الحكاية التي سمعتها حسب أقوالها من أخيها، وهو موظف كبير في التحقيقات الجنائية، أن هناك أدلة وبراهين ويقيناً مطلقاً بصحة الخبر شجع زميلاتها على نقله خارج أسوار المدرسة وتولى الآخرون المجهولون مهمة نشره، واتضح أيضاً أن تلك السيدة تزوجت عن حب والرجل الذي أحبته

ارتبطت به كان على علاقة بريئة ولفترة طويلة بجارته الشابة، ولظروف ما
م تصل العلاقة كما كان يخططان إلى الزواج.. وصارح الرجل زوجته على
ا يبدو بعلاقته بتلك الفتاة، وكان محتماً أن تراها مصادفة كلما قامت
يارة لأهل زوجها لأنها إبنة الجيران الباب قرب الباب.. وبدأت تراقب
وجها كلما ذهبا إلى هناك ولا تسمح له بالذهاب وحده مخافة أن يحن
قلب للأيام الماضية.. وتحول الحذر إلى شك، والشك إلى غيرة، والفتاة
لسكينة لاهية عما يدور في رأس الزوجة الغيور، حتى جاءت الضربة على
حين غرة فهدمت قواها وأسلمتها للحزن والعار دون أن تعرف صاحب
ضربة.. حقيقة أخرى غابت عن أذهان المتلقين والأبواق التي تسمع وتبث
ن الزوجة الغيور ليس لها أخوة كبار.. كلهم أصغر منها طلبةٌ في المراحل
لدرسية المختلفة. ويتحدث "ادوارد سبنسر الذي درس العلوم النفسية
الطب العقلي في كتابه "أعرف نفسك" عن الغيرة قائلاً :الغيرة كسائر
نواع الأعصاب يشتد ساعدها بالتشجيع، فكلما انغمس فيها المرء
استسلم لها، ازدادت قوة، وكلما ترك لها الحبل على الغارب سيطرت على
فكيره وهدمت قدرته على ضبط أعصابه وتعليل الأشياء تعليلاً منطقياً،
إليها يعزى السبب في الكثير من جرائم القتل، ترجع أغلب حوادث
لطلاق للغيرة، وما يتمثل على مسارح الزوجية من المشاهد الصاخبة
المآسي المحزنة التي لا تضر بالزوج والزوجة وحسب وإنما تتعداها إلى البنين
البنات، وإذا فحص طبيب الأمراض العقلية الرجل الغيور فحصاً دقيقاً،
بين له أن مرضه لا يقتصر على الخوف وحده، أي الخشية من فقدان الشيء
و الشخص الذي يحبه، وإنما يشمل فوق ذلك حدة الطبع ويغلب أن يكون
ـد ظهر عليه ذلك منذ نعومة أظافره، وإنه كان منذ سن مبكرة عنيفاً في
حبه وكراهيته، والغريب أن أمثاله يباهون عادة بشدة انفعالهم وسرعة

تأثرهم، ظناً منهم أن حدة الطبع دليل على القوة، والواقع إن العكس هو
الصحيح، إن عنف الطباع دليل على ضعف الجهاز العصبي، وهو ما لا يدعو
إلى التفاخر، ولا يحسد عليه صاحبه، وعلى من يشعر به أن يسلم بهبوط
الطاقة في الخلايا العصبية، ولكي نفهم كيف يتحول الخوف أو توقع الخطر
– وهو أول أعراض الضعف العصبي – إلى غيرة .

نوجز قصة هذه السيدة التي : كان زواجها سعيداً، وكان زوجها لا
يدخر وسعاً في سبيل إرضائها والسهر على راحتها، وكان بيتهما نموذجاً
للأناقة والراحة، وبالرغم من ذلك كانت على الدوام قلقة. . لا بسبب شيء
معين، بل بكيفية غامضة لا يمكنها تحديدها. ولا تدري أين مصدرها، ولم
يقل لها أحد أن الحمى التي أصابتها، والعملية البسيطة التي أجريت لها
بعد ذلك تسبب عنها هبوط في طاقتها العصبية. . حقيقة إن هذا لم يبلغ
درجة توجب شدة الإهتمام ولكنه كان كافياً لإشعارها بشيء من الخوف
وعدم الطمأنينه. ويستطرد الدكتور "سبنسر" قائلاً : وحاولت السيدة أن
تبحث عما ينقصها في الحياة ويسبب لها هذا القلق، فلم تجد سبباً معقولاً
ومع ذلك كانت تقول في نفسها إن هذا الخوف لابد أن يكون إنذاراً أو
تمهيداً لحادث على وشك الوقوع، وأن غريزة الأنوثة فيها تحاول أن تنبئها
بخطر لم يكشف عنه المستقبل بعد، ثم لا تفتأ تتساءل عن معنى هذا كله؟
وقد تظن امرأة سواها أنها ستصاب بمرض لم يكتشفه الطبيب بعد، أما هي
فتردد : إن الذي أخشى وقوعه قد يكون له علاقة بزوجي، قد تكون صحته
على غير ما يرام، ولكنها سرعان ما تتذكر أن الطبيب قد فحصه أخيراً
ووجد أنه في تمام الصحة، غير أنها رغم ذلك تظل أسيرة للخوف، كيف لا
وجهازها العصبي ضعيف، فتشرع في شحذ القريحة مستعينة بخيالها

لوقوف على سبب الخوف، فيوسوس هاتف في أذنها أن زوجها يحتمل أن يكون على معرفة بامرأة سواها، فهناك سكرتيرته مثلاً. . إنه كثيراً ما كان يتحدث عنها. . الغيرة إذاً كالشجرة تبدأ ببذرة، ولا يلزم أن تكون البذرة كبيرة طالما كانت التربة التي تحتضنها خصبة، إنَّ الخوف أو توقع الخطر الناتج عن التعب، كالسماد الذي يزيد الأرض خصوبة ويجعلها صالحة لهذا النوع من الزرع وإذا لم تتخذ الوسائل العلاجية لإزالة هذا التعب، فلابد أن يزداد شدةً، وكلما زاد تعبك، . . زاد خوفك – وتضاعف حساسيتك، وأصبحت حساساً لكل ما يقال وتظنه دليلاً" على الكراهية والإستهزاء والتجريح .

وقد أبدع شكسبير في روايته الشهيرة "عطيل" في وصف عقل نبيل ضنى أعصابه التعب فتلته الغيرة، ويرسم لنا عطيل لوحة فنية لما لاقاه من لمتاعب بعد عودته من ساحة القتال بقوله: حروب وحصار وكوارث مروعه مررت بها، حوادث خاطفة من سيل جارف وقتال عنيف. عهود تكسر. . وجنود تقع في قبضة عدو نذل، وتؤسر وتباع في سوق الرقيق.

وفي طب الأمراض العقلية الحديث حالات لا حصر لها للأمراض التي تتسبب من صدمات الحروب وأثرها في إنهاك الجهاز العصبي، ويذكر لنا عطيل كيف أن "ديدمونه" إفتتنت بهذا الوصف الرائع والمغامرات التي قام بها في ساحة القتال فقال: "أحبتني لما لاقيته من أخطار، وأحببتها لما لقيت فيها من عطف" بيد أن تلك المغامرات المثيرة براً وبحراً وتلك الحروب الطاحنة والحوادث المروعة كان لها عميق الأثر في جهاز عطيل العصبي. . كان حبه لديدمونه نبيلاً ولكن عقله كان سريع التأثر بسموم "ياغو" ذلك الوغد الخبيث وما كان يسره في أذنه. . وقد مهدت متاعب عطيل السبل لياغو فصادف مرتعاً خصباً للوشاية والدسيسة، وما كاد ياغو يوحي له

بالفكرة حتى أنشبت أظافرها فيه وأصبحت جزءاً منه وتحولت إلى غيرة وحشية فتكت بحبه لديدمونه ثم قضت على حياتها وحياته. الغيرة شعور إنساني لاشك في ذلك، يتحدد شكلها ودرجتها حسب شخصية كل واحد منا وتربيته النفسية والثقافية، والبعض منا قادر على السيطرة عليها أو إخفائها والبعض الآخر يخضع لسيطرتها ويسلمها قياد نفسه فتكون النتيجة في الغالب وبالا عليه .

ويروي الكاتب عبدالوهاب المطاوعة في كتابه (العيون الحمراء) قصة سيدة متزوجة وأم دأب زوجها على مناداتها أمام الجميع بـ (أم منخاز) غير عابئ بضيقها، وما يسببه لها هذا اللقب الكريه من حرج وألم، وعندما توفيت اعترف زوجها والألم يعصر قلبه بأنه فعل ذلك ليهز ثقتها بنفسها فهي باعتراف الكل سيدة جميلة ورقيقة ومتدينة ومحافظة إلى أبعد الحدود، وكان فخوراً بها في سنوات الزواج الأولى لكنه ومع تقدمه في السن استسلم لشعور بغيض تسلل إلى أعماقه وهو يلاحظ أن زوجتة تزداد جمالاً، وإن كانت منهمكة في واجباتها المنزلية لا تعير هذه المسألة أي اهتمام. لقد كان ببساطة غيوراً بلا مبرر، ورحلت شريكة حياته دون أن تعرف السبب وراء تحقير زوجها لها .

وإذا كانت الإحصائيات تقول إن المرأة أكثر غيرة من الرجل لأنها في حاجة دائمة للإحساس بكيانها وإثبات وجودها، فإن الملاحظة تشير إلى عكس ذلك. فالرجل قادر على تغليف غيرته برداء المنطق والكياسة والعلم؛ وتتحدث كاتبة معروفة عن تجربتها مع صديق كانت تعتبره بمثابة الأب الروحي لكتاباتها فتقول: تعودت أن أستشيره فيما أكتب وكان يوجه لي الملاحظات بسخاء وكان يقول لي كلما حظي عمل لي باهتمام أو جائزة إن

الحظ حليفك على ما يبدو! حتى إنني كنت أتردد كلما عنّ لي أن أكتب قصة أو مسرحية، وأتساءل خفية هل أنا موهوبة فعلاً أم إنني محظوظة فقط، وبين الاثنين الموهبة.. والحظ بونٌ شاسع ومساحة من الألم والرهبة والإقدام والتردد. ولم تشك لحظة في نزاهة هذا الصديق حتى صرح وهو على فراش المرض بأنه كان يغار منها ويتعذب لنجاحها.

وفي كتاب (الغيرة) "لنانسي فريداي" الطبيبة والباحثة الأمريكية تحليل رائع وشامل لهذا المرض الخبيث الذي يصعب اقتلاعه عندما يتفشى في الجسد والروح! وتقول نانسي في كتابها: إن شعور الغيرة قد يؤدي إلى ارتكاب جريمة قتل، كما إنه مصدر لكثير من الإبداعات المسرحية والروائية، غير أنه قد يسمم حياتنا ويلوثها، وفي البداية دعونا نفرق بين الحسد والغيرة فالغيرة هي الخوف من فقدان ما نملك والحسد هو الألم الذي نشعر به لإمتلاك غيرنا ما نتمنى أن نملك، والحسد هو الخطوة التي تؤدي إلى الغيرة، وهناك بعض النساء اللاتي يحسدن الرجال ولا يغرن منهم، فكيف تحسد المرأة الرجل؟. ما هو الشيء الذي يملكه الرجل وتتمنى المرأة الحصول عليه؟..

ويروي لنا رجل بلغ من العمر خمسين عاماً قصة أمه التي كانت تحسد أباه على أنه الرجل والسيد، سيد الموقف وسيد القرار، فيقول: كانت أمي دائمة الترديد: إذا حدث لك شيء جيد، فخذ حذرك لأن ما سيحدث في المرة القادمة سيكون سيئاً، فعلاً نما بداخلي هذا الإحساس، وأصبح قلبي ينقبض عند سماعي خبراً "جيدا" أو عندما يحدث شيء سعيد، فتتقلص عضلات معدتي، وأشعر بالآلام في رأسي، وأفقد القدرة على الكلام، وكان تحليل الطبيب النفسي أني متأثر بأمي حتى النخاع، أما لماذا فعلت بي أمي

هذا، فلأن أبي دفعها لذلك، فهي كانت من هذا النوع الذي يحب العمل والإستقلال، وفي يوم تلقت عرضاً للعمل في مجال كانت تحلم به، وحين عادت للمنزل فرحة وسعيدة وأخبرت والدي، نظر إليها ببرود وقال: إنك لن تستلمي هذا العمل أبداً، وقالت له: إنها ستكون غالبية الوقت في البيت وأن هذا العمل لن يلهيها عن واجباتها كزوجة وأم، لكن أبي لم يوافق ورفض حتى مناقشة أسباب الرفض وحتم المسألة بقوله: يكفي أنني أرفض، وانعكس ذلك على تربيتنا، فبدأنا نعرف جليسات الأطفال، ورفضت إرضاعي عندما كنت وليداً. وآثرت أن تجود بعواطفها على واحد من إخوتي، فبدأت الغيرة تعرف طريقها إلى نفوسنا نحن البقية، ثم تطورت إلى كراهية لدرجة أن أختي أختارت أن تتزوج وهي في السابعة عشرة من عمرها للتخلص من هذا الجو، كانت أمي تميل إلى السيطرة على الذكور منا، فكان علينا أن ننفذ كلامها دون مناقشة ونفعل كما تفعل ولا نجرؤ على مخالفة رأيها، وقد أفسدت هذه التربية حياتي فنشأت إنساناً غيوراً وحسوداً، أحسد الآخرين على سعادتهم، وأغار على النساء اللاتي عرفتهن. فمن شدة خوفي من فقدهن، كنت أفقدهن بالفعل! إن الغيرة والحسد عندما ينشآن عند الطفل وهو صغير بسبب عوامل لا دخل له فيها فإنهما يصبحان مدمرين لحياته عندما يصل إلى سن الرشد، ويصبح عنده شعور دائم بأنه أقل من غيره مهما كان ذلك غير صحيح، وستؤرقه سعادة الآخرين، أما تعاستهم فتسعده، وتصبح أية محاولة لإرضائه عقيمة، فالغيرة والحسد كالوباء، يمحوان السعادة من حياة الإنسان، وتكون هناك رغبة دائمة في نسف سعادة الآخرين فهما يقتلان ما لا يستطيعان امتلاكه، إن الغيرة تستطيع أن تتخذ أشكالاً عديدةً، فهناك بعض الأشخاص الذين يرفضون الإعتراف بغيرتهم ويحاولون إخفاءها بشتى الطرق، فيختلقون

'سباب التافهة حتى ينفسوا عن غيرتهم، وتكون أعراض الغيرة واضحة
.عاً ما لدى النساء العاملات في مجال واحد، غيرة مرضية تتدثر بشعار
مصلحة العامة والإخلاص للعمل، وتخطئ المرأة التي تتوهم إن العشرة
الزمالة الطويلة قد تتحول إلى صداقة وطيدة، وكم من قلوب تحطمت لهذا
"كتشاف المتأخر، المرأة لا تخلص الود لزميلتها لأسباب لا تتعلق بالتنافس
لطموح والنجاح وما إلى ذلك، وتتأثر العلاقة بالأزياء والمكياج والعطور
االشبع أو الخواء العاطفي .

وألخص هذا المعنى في قصة حدثت لصديقة عزيزة تزوجت حديثاً،
ستلمت عملها الجديد بعد شهور من الزواج. تقول الصديقة: وضعوا
مكتبي الصغير بجانب مكتب ضخم لسيدة متزوجة وتكبرني بعدة أعوام
ي غرفة متوسطة الحجم ومزدحمة بقطع الأثاث الثقيلة، ومنذ اللحظة
'ولى قررت أن أكسب رضى هذه الزميلة والزميلات الأخريات في المكاتب
مجاورة لا بغرض المنفعة وإنما بهدف الإستقرار، فلا طاقة لي على المشاحنات
اللغو الفارغ والنميمة، وكنت أعلم إن الوظيفة التي أشغلها عادية ولا
تشكل خطراً على الموظفات، فلا مجال للترقية ولا المكافآت أو أي شيء
خر.. لاشيء سوى الراتب الشهري والراحة الذهنية التي كنت أنشدها في
بيتي الثاني الذي قد أقضي فيه نصف عمري، وكنت أظن أن هذه الحقيقة
معروفة للجميع، وبالتالي لن تكون هناك غيرة من أي نوع، وكم كنت
ساذجة وأكثر من غبيةٍ، فبعد أسبوع واحد فقط استدعاني المدير وأنبنى
على خروجي يوم الخميس من العمل دون إذن، وأخبرته أنني أبلغت وعلق
بقوله: لم يبلغني أحد وأرجو ألا يتكرر ذلك، وانصرفت من عنده دون أن
يطرق الشك إلى رأسي في زميلتي.. وافترضت بأنها نسيت وغاب عنها

أن تخبره، فنحن مجموعة فتيات نعمل في مكاتب متفرقة ومتجاور،
وعلاقتنا مباشرة مع المدير ولا تملك أي منا سلطة الإشراف أو إصدار الأوامر
وإذا اضطرت إحدانا للتغيب أو الإنصراف باكراً عليها أن تبلغ الزميلة التي
تقاسمها الغرفة بذلك لتتولى مهمة إبلاغ المدير بعد أن توقع على ورقة
الإنصراف في الطابق الأعلى بالشؤون الإدارية، وتوالت الحوادث الصغيرة
المزعجة التي لم أعرها اهتماماً في البداية، وأرجعتها إلى ظروف العمل
وضريبة الإستقلال المادي في كل زمان ومكان، وأخلصت العطاء لعملي
وزميلتي في المكتب التي آسرتني بمرحها وبساطتها، واخترت عن طيب
خاطر القيام بعملها أثناء زياراتها اليومية للمكاتب الأخرى وتغطية
خروجها الإضطراري عدة مرات في الأسبوع إلى مدارس الأولاد أو زيارة
الطبيب أو أي شيء آخر يتفتق ذهنها عنه! وكنت أتحدث عنها كثيراً أمام
زوجي حتى أن زوجي فاجأني مرة بقوله كأنك تتحدثين عن واحدة أخرى
غير هذه، كفاك مدحاً لها، فلست أرى ما ترينه، وكان زوجي قد رآها عدة
مرات أثناء زيارتها لي وأبدى ملاحظة لم تعجبني قال إن وجهها غير مريح
وتناقشنا كثيراً في هذه النقطة ولم نتفق! إذ كنت أجد أن من الظلم إطلاق
الأحكام بناءً على نظرة أولية خاطفة أو جلسة واحدة، وليس كل إنسان
مؤهلاً للحكم على البشر وتصنيفهم من وجهة نظر خاصة وضيقة. وكم من
الوجوه العادية المظهر تخفي وراءها كنوزاً من المعرفة والطيبة والتفهم، وكم
من وجوه تسلب الألباب ويستتر خلفها المكر والخديعة والشر كله، وزميلتنا
تلك لم تكن جميلة ولا قبيحة.. كانت جذابه وقادرة على استمالة القلوب
بسرعة عجيبة وخسارتها كما علمت فيما بعد بسرعة أكبر، شيء واحد
فقط كان ينفرني منها ولم يتسن لي الوقت لمصارحتها به، إذ توالت
الأحداث والمتاعب سراعاً بحيث كنت عاجزة عن التقاط أنفاسي وترتيب

وراقي وجدولة عواطفي، كان يلذ لها أن تلعب دور الوصي علينا جميعاً،
وبلا استثناء، وأصبح عرفاً غير مكتوب استشارة الزميلات لها في كل
صغيرة وكبيرة تدخل في نطاق العمل والإستئذان منها إذا دعت الحاجة
للخروج المبكر. وكنت أعجب لهذا فلا شيء يؤهلها لهذا الدور القيادي،
لم تكن أكبر سناً من الأخريات وهناك من هن أقدم وأعلى منها في السلم
الوظيفي، وعدا ذلك كانت تحرص على التأكد من صدق الأعذار التي تساق
إليها وتحاسب من يكذب حساباً عسيراً، على سبيل المثال استأذنت زميلة
وقورة للخروج في أحد الأيام لإصطحاب طفلتها المريضة للعيادة، وجاء من
يخبرها أنه رأى تلك الزميلة تتسوق في متجر معروف صباح ذلك اليوم،
وتلقت الزميلة الوقورة درساً في الأخلاق من زميلتي دفعني للإنسحاب
خجلاً واشمئزازاً من تلك المعاملة السيئة التي تلقتها زميلتنا وأسالت
دموعها، وقذفتها أمامنا، وفي كل مرة كنت أهم بالخروج من المكتب كانت
تسألني إلى أين، وأعتدت فيما بعد أن أجيبها قبل أن تسأل ليس خوفاً منها
وإنما تجنباً للإحتكاك بها ولأني كنت أحمل لها وداً في قلبي حرصت على
أن أبقيه، وما إن أستقر في المكان الذي أخبرها بتواجدي فيه حتى يعلو رنين
الهاتف وأجدها على الخط تسألني عن شيء ما أو تبلغني بأمر ما لا
يستدعي الاتصال، وأقفل الخط بعد انتهاء المكالمة القصيرة واحتار في تفسير
النظرات الغامضة التي تطل من أعين الزميلات اللاتي كنت أزورهن وأتبادل
معهن المسامرة لقطع الوقت، ويبدو إن عقلي تمرد على تلك الوصاية إذ
وجدتني ذات يوم أقول لها وأنا خارجة: سأكون عند ليلى في قسم
الطباعة، في حين كنت قاصدةً مكتب المدير لأطلعه على بعض الأوراق
الخاصة بالعمل، ولاحظت وقبل أن تنتقل قدمي الأخرى إلى داخل المكتب
الفاخر أن وجه المدير أصبح كلوحة سيرياليه اختلطت فيها الألوان وهو يراني

واقفة أمامه وسماعة الهاتف تلتصق بأُذنه وصوتها المرتفع الذي لم ينبهها أحد إلى ضرورة التحكم فيه يردد: قلت لك خرجت بدون إذن، هذه الفتاة متسيبة وقليلة أدب، الكل يشكو منها، أعمالها أقوم أنا بها، وهي تنتقل من مكتب لآخر أو تتهرب من الدوام.. يجب أن تجد حلاً لهذه المسألة التي طالت .. بصراحة لا أريدها في مكتبي، تشغل الخط طول النهار وتعطل سير العمل .. ورأيت وجه المدير يتدرج في التلون، فمن الأحمر إلى الأصفر إلى الأخضر إلى الأسود، تمتم بشيء ما وأعاد السماعة إلى مكانها، وانصرفت أنا دون تعليق! وإذا كان هناك حكمة تقول إن المصائب لا تأتي فرادى فكذلك الحقائق.. إذ ما لبثت ودون أن أعاتبها أو أفاتحها فيما سمعت أنها تعلم بما علمت، وإذن لابد أن المدير المحترم أخبرها وأذن بذلك.. أما لماذا فعل ذلك والحكمة تقتضي ألا يفعل حتى لا تحدث متاعب لا ضرورة لها في العمل، فلأنه وكما علمت ومن زوجي بالذات يرتبط بزميلتي التي كنت أحسبها صديقتي بعلاقة محرمة..

وإنّ جميع الزميلات والزملاء يعلمون بهذا، والحديث الشريف يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»، إلا أنَّ الجميع كان ضعفهم خاضعاً للمصلحة وللقمةٍ التي لا يملكُ قطعها إلا رب العالمين، وكانوا بغباء وصفاقه يباركون هذه العلاقة الآثمة ويتسترون عليها ويعاملون مرتكبيها بكل إجلال واحترام، ولا عجب في ذلك في عصر ماتت فيه القيم وتداعت الأخلاق وانقلبت الموازين، فالمرتشي والسارق والزاني هم أفضل الناس طالما يملكون القوة.. قوة المال وقوة المركز! ولن أطيل .. تجاهلت زميلتي التي حسبتها صديقة واعتبرتها غير موجودة وأسقطتها من عقلي وقلبي وكان ردها على

ذلك إفشاء أسراري الصغيرة التي بحت بها في لحظة صفاء، ومحاولة إفساد العلاقة بيني وبين زوجي بالمكالمات المجهولة والرسائل السوداء.. ولم تهدأ الزوبعة إلا بعد شهور فقدت فيها الكثير من أعصابي وأمني الداخلي وثقتي في المقربين، ومضى زمن قبل أن أدرك الدافع الحقيقي وراء حربها الضروس، لقد كانت تحترق بنار الغيرة، كانت خائفة من أن أحتل مكانها في قلب المدير. وأسحب السلطة التي تستمدها من ولعه بها.. أفكار مريضة لإنسانة مريضة، وما أراحني فعلاً هو أنني كنت معافاة فكرياً، وهي كانت معاقة بوسواسها وعقلها .

ولم يجانب صديقتي الصواب في هذه الجملة التي أنهت بها قصتها، فالغيرة دليل ضعف، والشخص الذي يجعل الطرف الآخر يغار هو القوي وهو سيد الموقف، والأطفال وهم في سن صغيرة يجدون صعوبة في التنفيس عن غيرتهم كما تقول صاحبة كتاب «الغيرة» فيلجأون في معظم الأحيان إلى البكاء ولكن بعد مرور ثلاثين عاماً تخرج الكلمات من أفواههم قاتلةً، وعادةً فإن الشخصية التي تغار منك أو تحسدك، لا تحبك، ولكنها قد تعاملك معاملة جيدة، إذا شعرت بالشفقة تجاهك، فإذا كنت أقل من الآخرين فإن كل شيء سيكون على ما يرام، بمعنى أنه لا تكون هناك غيرة أو حسد، فلماذا الغيرة والحسد وأنت لا تساوي شيئاً؟ أما إذا كنت أحسن منهم حالاً فيجب أن تأخذ حذرك، فالعيون كلها ترصد تحركاتك وتنتظر يوم وقوعك، ولكي تتفادى أن تكون من هؤلاء الحاسدين عليك بالإعتزاز بكرامتك، فهي خير وقاية ضد الغيرة والحسد، فعندما يكون رأينا في أنفسنا جيداً، نعيش في أمان وثقة فإذا هجرنا الحبيب مثلاً فهي ليست نهاية العالم، فبفضل ثقتنا بأنفسنا نعلم علم اليقين أن اليوم الذي سيقدر

فيه إنسان آخر حبنا آت لا ريب فيه، والذي يسبب لنا في بعض الأحيان أزمة نفسية أننا لا نضع في اعتبارنا الهجران ونعتقد أن الآخرين معرضون له، أما نحن فالإستثناء، وقد ظلت سيدة مطلقة لعدة شهور توجه سؤالاً واحداً لا يتغير لأقاربها ومعارفها: لماذا طلقني؟ والجواب كان معروفاً للكل ما عداها، فقد أحالت حياة زوجها وأطفالها إلى جحيم بسبب الغيرة، ولم يجنبها جمالها الذي تتباهى به هذه النهاية، والشك نوع آخر من أنواع الغيرة، فالشخص الشكاك ليست لديه أدلة، بل هو يعيش على أوهام في خياله، فهو يخلق الأشخاص والأحداث والأماكن ثم يبدأ في الغيرة، ولكن هل نحن مسؤولون عن هذه المشاعر؟!! قد نشعر في بعض الاحيان بالخجل أو الإحساس بالذنب، وذلك عندما نكتشف أنفسنا متلبسين بالغيرة، إحساس بالخجل لأن صورتنا اهتزت أمام العالم الخارجي، أما الإحساس بالذنب فلأننا تصرفنا بطريقة لا تليق بنا، حتى لو لم يلاحظ أحد، وهناك مثال الزوج الذي يذهب مع زوجتة للمسرح مع صديق، وأثناء الإستراحة يذهب الزوج ليدخن سيجارة، وعند عودته يلاحظ أن زوجتة والصديق يتحدثان بصوت منخفض ورأساهما متقاربين، إذا كان الزوج ليس لديه ثقة كافية بنفسه فإنه سيشعر بأنه طعن في كرامته، فإذا سألته ممن تغار، سيجيبك أغار منه.. بل منها.. لا منهما الإثنين، لا أدري!! المهم أني أغار وهو هنا يعاني من مشكلة التعبير عن نفسه، فهو يحسد صديقه على قدرته على جذب إهتمام زوجته، ويحسد قدرة زوجتة على الإستمتاع بإعجاب شخص آخر، ويحسد الإثنين على السعادة التي يفترض أنهما يعيشانها والتي يفتقدها هو الآن، ويشعر بضآلته أمام نفسه، لقد قتل الشك اعتزازه بكرامته، واليأس لا يأتي بسبب أننا فقدنا حبيبنا، بل لأننا سنضطر لأن نعيش بدونه، فمع فقدان الحبيب، يطفو إحساس بالنقص في

شخصيتنا، فطالما فقدناه، فإن هذا يعني أننا لسنا على ما يرام، ونبدأ في فقد ثقتنا بأنفسنا، والغيرة دليل أننا نحب أنفسنا أكثر من الطرف الآخر، فعندما تولد الغيرة تنمو مشاعرنا النرجسية، فنحن نفكر كيف نحمي أنفسنا في المواجهات والجروح أكثر من تفكيرنا في احتياجات الطرف الآخر، ونفسية الإنسان مثل الزرع، إذا لم تتلق إحتياجاتها منذ الصغر كما يتلقى الزرع الضوء والماء فإنها تنشأ ضعيفة ولا تنفع معها أية مقويات لإصلاحها، فالطفل يحتاج في البداية إلى كل اهتمام وحب أبويه، وهذا أهم شيء له في السنوات الأولى، فالإهتمام بنرجسية الطفل وهو صغير يولد عنده الإعتزاز بالكرامة عندما يكبر، فالطفل يجب أن يسمع أبويه يمدحان ذكاءه وموهبته وشجاعته، وهذا يعني الكثير له، وأطفال اليوم يفتقدون هذا وحيث يغيب الأبوان فترات طويلة عن المنزل أو يكونان متواجدين ولكن لا يعبآن بتخصيص وقت لأطفالهما، وخطوة خطوة يرفض الأطفال بعد أن يكبروا نقد أبويهم وتدخلهم في حياتهم، فهم تخلوا عنهم في الصغر فلماذا يريدون التدخل الآن فعندما نفتقد الأشخاص الذين يعطوننا معنى لحياتنا فإننا نصبح غير متسامحين، إن الحياة معركة، ويبدأ هذا الصراع مبكراً جداً فالطفل في سنواته الأولى يتعلم فن الصراع من أجل الإحتفاظ بما لديه بدءاً من الإحتفاظ بنظرة أُمه وانتهاءً بلعبته، ويكبر الطفل وكذلك الصراع، فلم تعد المسألة مسألة الإحتفاظ بنظرة الأم أو باللعبة، بل الاحتفاظ بالحبيب، وهناك بعض الأشخاص الذين يتمتعون بثقةٍ بالنفس لا حدود لها، وهم يعلمون تماماً أنه لو ظهر لهم غريم، فإنه لن يقف أمامهم كثيراً، فهم يشعرون أنه ليس من السهل تبديلهم ويجدون في المنافسه رياضة صحية، من قبيل تجديد النشاط، وإذا حدث ما ليس متوقعاً وفقدوا الحبيب فهم لا ينزعجون فقريباً سيقابلون شخصاً آخر يعرف كيف يحبهم، وكلما تأصلت

هذه الأفكار داخلنا أصبحنا أقل غيرةً، ودور المنافسة في موقف الغيرة يفهم خطأ في كثير من الاحيان، فهناك نوعان من المنافسة، النوع الأول وهو ما يطلق عليه (المنافسة المفتوحه) وهي منافسة تترجم بالتصرفات، فالشعور يتحول إلى أفعال يستطيع أى شخص أن يراها، أما النوع الثاني من المنافسة فهو داخلي وموضوعي، وبالرغم من أنه داخلي فإن النتيجة يكون لها أكبر الأثر، فإذا قررت الدخول مثلاً في منافسة مع غريمتي، فإن من غير الضروري أن أتصرف بطريقة مرئية، إذ من الممكن أن أكون منافسة خطيرة لها ولكن مع الإحتفاظ بمشاعري داخلياً، فإذا قلت لنفسي : إنها جميلة جداً، ولكني أفضل منها، فإنني أعلنت نفسي فائزة وبطريقة هادئة، أما إذا مررت بلحظة ضعف فإنني سأقول لنفسي (إنها أفضل مني بكثير ليست لدي أي فرصة) فلقد هزمت نفسي داخلياً برغم أنه لم يحدث شيء ظاهري، والأمر مختلف عند الرجال، فالمنافسة بين النساء متخفية وقوية وخطيرة، أما بين الرجال فالمنافسة شيء ضروري، فهي لعبتهم، ففي أحد الأبحاث تم إثبات أن الغلمان يتشاجرون في كثير من الأحيان أثناء اللعب ولكنهم لا ينهون اللعب بينهم أبداً، فالمناقشات الأكثر حدة تنتهي دائماً بهذه العبارة : دعونا نستأنف اللعب، بل إنهم يستمتعون بهذه المناقشات الحادة أكثر من اللعب نفسه. أما الفتيات فإنهنَّ يضعن دائماً نهاية للعب، وهذا النوع من اللعب يجعل بعض اللاعبين يسيطرون على آخرين، وعندما تصل المسائل إلى حد وضع نهاية للعب، فإنَّ هناك اطرافاً تتنازل، فالأطفال هنا يتعلمون متى يتنازلون حتى تستمر اللعبه، ونحن نعيش في عالم غير مستقر، فحالياً تنتهي نصف حالات الزواج بالطلاق، وفي الماضي كان الأطفال يخافون من أمنا الغولة التي كانت تسبب لهم الكوابيس، أما اليوم فكوابيس الأطفال سببها الخوف من فقدان أحد الأبوين بسبب الطلاق، وفي كثير من الاحيان

تكون الغيرة هي أحد أسباب الطلاق، وفي الولايات المتحدة الأمريكية وقعت جريمة في الشهر الثامن من عام ١٩٩٢ إهتز لها الرأي العام وأثارت ضجة لا مثيل لها، وحين يستثار الناس لجريمة في بلد تقع فيها الجرائم في كل دقيقة فهذا يعني أنَّ الجريمة غير عادية، وهي فعلاً كذلك، فالمقتول كان طفلاً في الشهر السادس من عمره، والقاتلة شقيقتة التي تكبره بعام وبضعة أشهر.. جرته من فراشه في غياب الأم وظلت تضرب رأسه بالجدار حتى لفظ أنفاسه، وقالت ببراءة والأطباء النفسيون متحلقون حولها مبررة فعلتها: ضربته لأن والداي يحبانه أكثر مني!

وفي دولة الإمارات العربية المتحدة تحدث الناس طويلاً عن صبي صغير لم يكمل عامه الثاني وكيف اختفى عصر أحد الأيام وفشلت كل المحاولات للعثور عليه وكادت والدته تموت حسرة لفقده، وفي اليوم الرابع أشارت شقيقته إلى حفرة عميقة غفل عمال المجاري عن إغلاقها وقالت: تجدون أحمد هناك! وجاء رجال الشرطة وأخرجوا جثته وسط ذهول الجيران وصراخ والدته، وكانت الغيرة ايضاً هي السبب. ما نوع هذا الشعور الذي يجرد الأطفال من براءتهم ويسلب البالغين إنسانيتهم ويحول من يستسلم له إلى حطام آدمي؟ لقد توصل العلماء إلى إدراك أسرار المجرة والطبيعة، وتوصلوا إلى اكتشاف أعظم الإختراعات وأوجدوا علاجاً لأخطر الامراض ولم يتمكنوا حتى الآن من كشف أسرار النفس البشرية رغم مئات النظريات وآلاف الأبحاث والدراسات التي تدور حولها وعنها ومن أجلها! واعتقد أن كل تلك النظريات والأبحاث إضافه إلى جهود الخبراء وعلماء الإجتماع والاختصاصيين تقف عاجزة ما لم يكن الشخص نفسه موضوع البحث راغباً في الشفاء والتحرر من عجزه! فلا يكفي مثلاً إخضاع الشخص المدمن

للعلاج في مصحة خاصة وتحت إشراف أكبر الأطباء ما لم يكن هو لا من حوله مقتنعاً بهذه الخطوة، حالما يتم شفاؤه بعد رحلة العلاج المقررة سيعود بإرادته إلى الإنتحار عن طريق الإدمان، وليس معقولاً أنْ يترك الأطباء أعمالهم ويتفرغوا لمراقبته وهو حر طليق وكذلك أمر الواقع تحت تأثير الغيرة فما لم يدرك مدى الضرر الذي يلحق به وبالآخرين نتيجة لهذا الشعور الكريه ويحاول أن يراقب سلوكه ويدرس المسببات ويثق بقدراته، فإن مؤسس علم النفس ذاته لو بعث من قبره لما استطاع مساعدته! تظهر الدراسات والإستطلاعات التي يقوم بها الخبراء أن حوالي نصف الرجال والنساء الذين انفصلوا أو تطلقوا قد أبدوا ندماً وحسرة على قرارات الإنفصال أو الطلاق، كما أنها تشير إلى أن هذا العقد، وهو يخطو أولى خطواته سوف يشهد علاقات زوجية ملتزمة أقوى وأكثر دواماً. وفي بريطانيا تم إنشاء مؤسسة تضم صفوة الخبراء وعلماء النفس وتهتم بعلاج مشاكل الزوجات والأزواج الذين تتعرض علاقاتهم الزوجية لبعض الهزات والصدمات التي تؤدي في الغالب إلى الإنفصال والطلاق، وقد اكتسبت هذه المؤسسة شهرة واسعة بعد أن وافقت الأميرة الراحله ديانا - أميرة ويلز - على أن تكون راعية لها منذ عدة أعوام، وإن عجزت هي نفسها عن حماية زواجها من الأنهيار ومن ثم الإنفصال الذي أعلن رسمياً في اواخر عام ١٩٩٢- وترأس المؤسسة خبيرة علم النفس الشهيرة (زيلدا) التي تقول: المرأة تريد زوجاً وأباً صالحاً، تريد شخصاً يقاسمها مشاعرها، لكنها أحياناً تتوقع وتطلب أكثر من اللزوم، وهذا يُسبب إرتباكاً للرجل خصوصاً إذا كان قد تربى تربية تقليدية، ولم يكن يرى أباه مطالباً بكل هذه الأمور، وهنا تبدأ المشاكل، ومن أهم المتاعب التي تعترض مسيرة حياة اثنين حلول ضيف ثقيل يُدعى (الصمت) والصمت هنا هو السكون الذي يسبق

العاصفة، ويقول الدكتور عادل صادق أُستاذ الطب النفسي بجامعة عين شمس: إِن صمت الزوج يصيب الزوجة بأمراض عديدة عضويه مثل اضطراب الدورة الشهرية، فقدان الشهية والصداع لأن هذا الصمت دليل على الإهمال وموت الحب، ومن الطبيعي أن الكلام بعد الزواج يقل عن أيام الخطوبة ويقتصر على الأمور الهامة والحياتية، لكن هناك صمت غير طبيعي وهو ما ينتج عن عدم الرغبة في الكلام لأسباب كثيرة أهمها وأخطرها فقدان الحب، وهو ما يعني فقدان الرغبة، أو يكون بين الزوجين توتراً كان يكفي لأن ينقلب معه كل حوار إلى خناقة، فيلجأ الزوج أو الزوجة إلى الصمت تجنباً للمشاكل أو قد يسود الحياة الزوجية عناد وصلابة رأي وعدم تقبل الرأي الآخر عند كل مناقشة مما قد يدفع أحد الأطراف إِلى الصمت، وقد يعزى الصمت إِلى اختلاف المستوى الثقافي واختلاف نسبة الذكاء أو اختلاف الإِهتمامات أو إِصابة أحد الطرفين بمشاكل نفسية كالإِكتئاب أو مشاكل العمل أو يكون صامتاً بطبيعته، ويحب أن يسمع ويتأمل دون كلام، وهذا النوع الاخير من الصعب إِخراجه من دائرة السكون وإِغراؤه بمتعة التعبير عن نفسه والمشاركة الاجتماعية، وتحكي زوجة لرجل من هذا النوع والمرارة تغلف نبرات صوتها: لم أعتقد أبداً أن الصمت طبع في زوجي، لقد استمرت خطوبتنا ثلاثة أشهر وكنا نتحدث عبر الهاتف بالساعات.. لا أنا التي كنت أتكلم وأتكلم، وهو كان يعلق بكلمة أو كلمتين وكان هذا الإِنصات التام من جانبه يشعرني بسعادة تفوق الوصف. وهل هناك أجمل وأروع من رجل يسخر كل حواسه للإِصغاء إِلى شريكة حياته؟ لم يدر في خلدي أبداً إِن هذه السعادة وجه آخر للتعاسة فيما بعد، الأيام والشهور والسنين تمضي بنا كئيبة مملة. نجلس معاً كصنمين.. هو لا يجد شيئاً يقوله وأنا عاجزة عن إِثارة اهتمامه بجديتي، حاولت أن أجعله

يتحدث عن عمله عن أصدقائه عن هواياته.. لكن لا حياة لمن تنادي، لا أنكر إنه كريم وكريم جداً لا يبخل بالنقود على أطفاله وبيته، وأنه هادئ ومسالم وطيب السريرة، لكنني لا أتصور أن أقضي بقية حياتي أسيرة الصمت مع رجل يعشق الصمت، وتؤكد الدكتورة "عزة كريم" خبيرة الأسرة بالمركز القومي للبحوث الإجتماعية والجنائية أن الصمت إذا ساد الحياة فهو مؤشر خطير لفتور العلاقة الزوجية، ومن أبرز أسبابه اهتمام الأم بأطفالها على حساب اهتمامها بالزوج، وتركيز الزوج كل اهتماماته على جمع المال دون إعطاء نفسه فرصه لالتقاط أنفاسه والجلوس مع زوجته والتحدث إليها ومعها، وفي سعيه إلى جني الأموال قد يضطر إلى قضاء فترة طويلة خارج المنزل بعيداً عن أُسرته، وهذا الغياب الطويل يؤثر على اللغة المشتركة التي تربطهما بعضهما ببعض لإختلاف القيم إلى حد ما، والإهتمامات والثقافة والمعرفة، فالزوج المسافر على الدوام دائماً تتوسع مداركه بالتدريج ويكتسب سواء شاء أم أبى عادات جديدة ويلتقي بأنماط مختلفة من البشر ويتعرف على سلوكيات مغايرة لبيئته.. وكل هذه الأشياء مجتمعة تعزله عن الزوجة التي تنتظره في البيت.. فتراه يغدق عليها الهدايا ويبخل عليها بالحوار نبض السعادة الزوجية، وقد لا يتمكن الزوج من الإفصاح عن مكنون صدره وهو ما يجعله يخضع لما يكن بداخله من مشاعر الإبتعاد عنها، وتبدأ مرحلة صمت قاتلة رغم إن الذي يسبب هذا الصمت القاتل مشكلة تافهة لا تستحق! وتوضح الدكتورة عزة إن الوقاية من هذا الصمت القاتل تكمن في محاولة فهم كل طرف للآخر لأن كلمة فهم يستهين بها البعض فلا يعطيها ما تستحق من اهتمام، والبعض يدعي من موقف واحد أنه قد استوعب الذي أمامه وفهمه، إلا أن الواقع يقول إن فهم الشخص شخصاً آخر مسألة صعبة ومعقدة، وقد تستغرق عدة

سنوات، ولكن الإصرار على الفهم في حد ذاته يدفع الحياة إلى الاستمرار، والفهم متى عرفنا ابجدياته استمرت الحياة في كل صحتها وقوتها، وعاش الزوج مع زوجته حياة سعيدة، والصمت مسؤول عن فشل علاقات كثيرة غير العلاقة الزوجية، وكم من صداقة حميمة أفسدتها أخبار ملفقة من أُناس لا ضمائر لهم، وآثر أطراف العلاقة الانسحاب في صمت بدل المكاشفة والبوح، وكم من زمالة عمل تحولت إلى عداوة للسبب نفسه وحتى بين الأشقاء والأسرة الواحدة يحدث سوء فهم يتحول إلى قسوة وقلة اكتراث بصلة الدم لأن الأطراف المتخاصمة تتجنب الحوار وتحتمي وراء الكبرياء الزائف والصمت القاتل!

ومن أجمل القصص التي كان بطلها الصمت قصة أزهار السيدة هاريس لـ (بول غاليكو) وتبدأ القصة بسفر السيدة هاريس وهي عجوز في الخمسين من عمرها إلى باريس، كانت مهنة هذه السيدة النحيلة البسيطة الهندام الخدمة في البيوت مقابل خمسة عشر سنتاً في الساعة لكسب قوتها والمحافظة على استمرار وجودها، والأكثر من ذلك كان هذا العمل المرهق يشكل لها نوعاً من الإعتزاز المستمر بالمنزل، ويملأ قلبها فخراً ورضاً إذ كانت تدخل الشقق لتجدها حظائر خنازير فتتركها نظيفة براقة زكية الرائحة، لكنها تتقاضى أجراً هزيلاً لتتركها رائعة ، وها هي الآن على متن الطائرة لأول مرة في حياتها، بل إنها المرة الأُولى أيضاً التي تغادر فيها لندن يحملها هدف كبير إلى عاصمة الفرح والأناقة، لطالما كانت حياتها تعباً لا نهاية له، والراحة الوحيدة التي تتوافر لها من حين إلى آخر كانت تتمثل في زيارة تقوم بها إلى السينما أو إلى المقهى القابع في الزاوية المجاورة لمسكنها، والصحبة الوحيدة أيضاً التي تبعد شبح الوحدة عنها كانت تقتصر على

لقاء صديقتها (باترفيل) حيث كانتا تقضيان الأمسيات في مطبخ كل منهما بالتناوب تحتسيان الشاي وتراهنان أسبوعياً على كرة القدم والفريق الفائز، وتكتفيان عاماً بعد عام بلذة الحلم دون تحقيق أي فوز حقيقي، ومنذ ثلاثة أعوام فقط إنقلبت حياتها الهادئة رأساً على عقب، وكان ذلك عندما فتحت خزانة ثياب السيدة (دانت) لترتبها فاكتشفت ثوبين هناك، أحدهما كان سماوي اللون مع بعض الكريم والعاج، والآخر صارخ من الساتان القرمزي فيه أقواس حمراء كبيرة وزهرة حمراء ضخمة، تسمرت في مكانها وكأنها فقدت القدرة على النطق، إذ لم يسبق لها خلال حياتها أن شاهدت شيئاً مذهلاً وجميلاً مثلهما لعل عالمها بدا مملاً باهت اللون، لكن السيدة، هاريس أحست بشغف بالجمال والألوان أفصح عن نفسه قبل تلك اللحظة من خلال حب الأزهار، فخارج نوافذ شقتها وعاء لإزهار الجيرانيوم المفضلة لديها، وفي الداخل حيثما تجد فسحة لذلك كان ينتصب وعاء صغير يضم زهرة جيرانيوم أو أي نبته مزهرة أخرى تشتريها بخمسة بنسات جاهدت كثيراً في كسبها، كذلك والذين تعمل لديهم كانوا يقدمون إليها أحياناً بقايا أزهارهم المقطوفه فتأخذها ذابلة إلى المنزل وتحاول معالجتها وإعادة النضارة إليها، كانت الزهور وسيلتها للهروب من الصحراء المتحجرة الكئيبة التي تعيش فيها، وكانت الزهور شيئاً تعود إليه في المساء وتستيقظ من أجله في الصباح، لكنها حين وقفت أمام المبتكرات الرائعة المعلقة في الخزانة، وجدت نفسها وجهاً لوجه مع نوع جديد من الجمال ـ جمال اصطناعي ابتكرته يد الإنسان الفنان، في تلك اللحظة بالذات باتت ضحية للفنان وتولد في أعماقها توق لإمتلاك مثل ذلك الثوب، لم يكن ثمة معنى أو سبب لذلك، فهي لن ترتدي مثل هذا الإبتكار، ولا يوجد مكان في حياتها لواحد مثله، كان شعورها أنثوياً صرفا، لقد رأته ورغبت فيه رغبة

جامحة، شئ ما بداخلها تاق إليه غريزياً مثلما يتوق الطفل إلى شيء لامع، أما إلى أى مدى كان ذلك التوق عميقا فهذا ما اتضح في الأيام والشهور لتالية، لقد بات لديها هدف تعمل من أجله، ومن أجله حرمت نفسها من المتع البسيطة كالشاي والتدخين وارتياد المقهى ودور السينما، وظلت على مدى ثلاثة أعوام تضع البنس فوق البنس حتى تمكنت من شراء بطاقة سفر ذهاباً وإياباً وتمكنت بفضل السيدة الأمريكية التي تعمل لديها من تحويل جنيهاتها إلى دولارات دون أن تلجأ للمصارف، وما قد يترتب عليها من الزام بدفع ضريبة قد تصل إلى نصف الألف والأربعمائة دولار، التي جمعتها بصبر وتصميم، وها هي الآن في باريس في مبنى كريستيان ديور بالذات، قدماها تغوصان في السجادة السميكة ويداها تضغطان على حقيبتها الكالحة التي تحتضن الدولارات الخضراء، وفي الطابق الأول التقت بمديرة المؤسسة السيدة "كولبرت" ومن سوء الحظ أن المديرة في ذلك الصباح كانت معتلة المزاج فقد تشاجرت مع السيد "غوف" رئيس دائرة المحاسبة الشاب دونما داع، ووجهت ملاحظات قاسية لعارضات الأزياء العاملات في الدار ولم تستثن منهن نجمة دار الأزياء الرقيقه "نتاشا" ، أما لماذا تركت المديرة زمام أعصابها يفلت بهذه الصورة، وهي المرأة المشهود لها بقوة الأعصاب وصواب الرأي وحسن التعامل مع الآخرين، فلأنها لأول مرة في حياتها تعترف بينها وبين نفسها بالعجز عن مساعدة الرجل الذي أحبته وارتبطت به منذ عشرين عاماً وهو زوجها "جول" ، كان جول العزيز طيباً وذكياً وتفوق المعرفة الكامنة في طرف اصبعه كل الباقين في مكتب العلاقة الخارجية، لكن شيئاً واحداً أو بالأحرى إثنان كان ينقصانه فهو لم يعد قادراً على التحدث عن نفسه بسلاسه ـ ولم يكن لديه أصدقاء يدعمونه، ولذا بقى موظفاً صغيراً وصل زملاؤه إلى المراتب العليا بفضل خدماته ومهاراته!

وقد استسلم جول لليأس، لم يعد يطمح في أى ترقية وقد أصبح في الخمسين من عمره . . ولما كانت زوجته لا تجد الكلمات المناسبة للتخفيف عنه فقد غرق الإثنان في صمت يائس. وكانت علاقتهما التي صمدت أمام أعتى العواصف على مدار عشرين عاماً تنهار الآن جزءاً بعد جزء، وهكذا انتقلت مرارة السيدة كولبرت إلى العمل، وبدأت تؤثر على أولئك الذين حولها، وفي ذلك الصباح وقفت أمامها السيدة هاريس تسألها بسذاجة عن مكان الاثواب لتنتقي منها ثوباً لها. وببرود من يستخف بالواقف أمامه أجابتها المديرة قائلة أخشى أنك أتيت إلى المكان الخطأ، نحن لا نستعرض أثواباً هنا، المجموعة تعرض بصورة خاصة بعد الظهر، ملأ غضب عارم صدر السيدة هاريس وهي ترى الحلم الذي تعبت من أجل تحقيقه يتهاوى. فها هي السيدة كولبرت تعلن لها ان لا مكان لها في الصالون ومن المستبعد أن تحضر أية عروض هذا الأسبوع وكما لو أنها قادرة على المبيت في باريس ليلة حتى يفترض أن تبقى أسبوعاً آخر. . وشرحت بوضوح للمرأة الصلبة الواقفة تنظر إليها كيف إنها غسلت الأطباق وضحت بالكثير من أجل الحصول على ثوب من كريستيان ديور، وأنها لن تتراجع الآن وقالت أشياء أخرى كثيرة لم تغير الموقف حتى صاحت أخيراً: أوه. . أليس لديكم أيها الفرنسيون أي قلب؟ أنت الناعمة للغاية والباردة! ألم يسبق لك أن تمنيت بكل جوارحك الحصول على شيء وبكيت كلما فكرت فيه؟ ألم تمكثي ساهرة في الليالي تتمنين شيئاً وترتعشين لانك ربما لن تتمكني من الحصول عليه؟!! .

ووقعت كلماتها كالسكين في قلب السيدة كولبرت التي فعلت ذلك تماماً ليلة بعد ليله، وهي ممدة يقظة ترتعش ألماً لتتمكن من القيام بشيء من

أجل رجلها، وفجأة أصبحت عيناها التعيستان الداكنتان أسيرتان لعيني الزائرة الغريبة، لقد تطلعت إمرأة إلى عمق امرأة، وكان ما رأته السيدة كولبرت ملأها بالاشمئزاز أولاً ثم بالإندفاع العاطفي المفاجئ ثم بالتفهم. كان الاشمئزاز موجهاً إلى نفسها، إلى برودها وقلة تعاطفها مع الآخرين، وفكرت بخجل كيف تصرفت مع السيد غوفل والبائعات وحتى مع نتاشا عارضة الأزياء ولكن قبل كل شيء روعت حين أدركت أنها تركت نفسها تصبح قاسية هكذا بالافكار التي عاشت معها يومياً فأصبحت عمياء صماء عن الاحتياجات الانسانية والهتافات المنبعثة من القلب البشري، واجتاحتها موجة من التقدير لشجاعة المرأة وبسالتها، فإذا استطاعت هذه المرأة الفقيرة ان تعمل بجلد من أجل ثوب لن ترتديه أبداً في الغالب فكيف تعجز هي عن تحقيق شيء لزوجها، ورتبت المديرة الامر بحيث تتمكن السيدة هاريس من حضور عرض المساء لتنتقي الثوب الذي تريد، وهناك اكتشفت السيدة هاريس أن مدير الحسابات الشاب غوف مغرم بعارضة الأزياء (نتاشا) إلى حد بعيد، لكن الاخيرة تجهل عواطفه وهو مؤمن أنه غير قادر على توفير الرفاهية والغنى لها إذا حدث وفكرت فيه، وعلمت كذلك بعد أن توطدت علاقتها بنتاشا أن الفتاة رغم الحياة الصاخبة التي تحياها بائسه وتريد أن تحب وتُحب، ويكون لها منزل خاص هادئ وأطفال، ولانها كانت لا تملك سوى ثمن الثوب وبطاقة العودة، والثوب الذي اختارته لن يكون جاهزاً إلا بعد عدة أيام، فقد قبلت دعوة غوفل للاقامة في منزله، وساهمت إلى حد كبير بإعادة النظام إلى الفوضى الضاربة بمعونة نتاشا التي بدأت تميل لغوفل بحكم ترددها لرؤية هاريس، واستطاعت العجوز بخبرة السنين وحكمتها ان تدفع الإثنين للمصارحة ومن ثم الإرتباط، كما إنها وببساطتها المعتادة تمكنت من الإستحواذ على قلب الماركيز الذي حضر عروض كريستيان ديور وكان

معقده مجاوراً لمقعدها . . وعندما حدثته عن بؤس السيدة كولبرت والظلم الواقع على زوجها استطاع بنفوذه ترقية (جول) وحين عادت هاريس إلى لندن سعيدة بثوبها الغالي تركت خلفها خمسة قلوب سعيدة لم تكن لتنعم بالسعادة لولا الخادمة العجوز التي تمكنت ببساطتها من إزالة غبار الصمت عن تلك القلوب!! .

ولأُستاذ الطب النفسي بجامعة الأزهر الدكتور محمد الشعلان رأي خاص يتخلص في أن الصمت حجبٌ للمشاعر وبين الصمت والكلام لغة وسطى يعبر عنها الشخص بحركات اليدين وتعبيرات الوجه وحركة الجسد، وهي لغة يمكن أن تحل محل الكلام، فالزوجة لا تحتاج أكثر من التعبير عن الحب، والرغبة، والكلام وسيلة ضمن وسائل متعددة للتعبير عن الذات!! .

ويرى الدكتور أحمد خيري أستاذ الطب بجامعة عين شمس أن تجدد المكان يدفع الأزواج إلى الحوار، فالكلمات تبرز مع المكان الجديد، ولهذا يستحسن استغلال عطلات نهاية الأسبوع والعطلات السنوية في فتح صفحات الحوار المغلقة، وخلق إهتمامات جديدة تبعث على الحب والاثارة، وتقول إحدى السيدات معبرة عن الحدث السعيد الذي طرأ على حياتها: اعتدت صمت زوجي وتكيفت مع هذه العادة بعد سبع سنوات من الزواج، وبعدما رزقنا بطفلين ساعداني على التأقلم مع رجل بت أستثقل ظله وأندم على اقتراني به وأنا المرأة المثقفة التي أحتل مركزاً مرموقاً . . وهو الموظف العادي الذي توقف تعليمه بعد الشهادة الإعدادية ، ولم أكن راغبة في الانفصال وحرمان أطفالي من رعاية والدهما وحدبه عليهما ولم أكن سعيده أيضاً . . إلا أنني قنعت بنصيبي وكتمت ثورتي على هذا الوضع السقيم بداخلي، وذات يوم وقبل أن يتسمر أمام شاشة التليفزيون كعادته

بهدوء وصمت فاجأني بقوله بصوت خافت وخجول: ما رأيك بأن نشتري منزلاً خاصاً بنا؟ وكنا حتى تلك اللحظة نقطن في مسكن مؤجر، وبالطبع رحبت بالفكرة وأحضرت قلماً وورقة وجمعت ما معه وما معي وما يمكننا معاً تدبيره، وفي اليوم التالي تقدمنا للمصرف نطلب قرضاً وخرجنا مساء اليوم نفسه نبحث عن منزل معروض للبيع، بعد أن تركنا الطفلين لدى والدتي. وطوال الطريق كنا نتحدث عن مواصفات البيت، بيتنا، وكنا نتناقش عن عيوب ومزايا كل بيت نشاهده.. وأصبح هو يتعجل العودة للمنزل وأنا أنتظره بعد عودتي من العمل بلهفةٍ لنكمل نقاشاتنا.. وبعد أن وُفِقْنا بالعثور على منزل جميل وسعره معقول بدأنا نتجول لساعات في المتاجر ننتقي الأثاث والفرش!! وحين انتقلنا بعد ستة شهور إلى منزلنا الجديد كانت حياة جديدة بانتظارنا.. وعلمت من زوجي الذي ظل معرضاً عن الحديث معي أنه كان يخشى أن أراه سطحياً أو تافهاً إذا ما اطلعت على أفكاره.. وفي الحقيقة لم أجده كذلك واكتشفت لدهشتي أن لديه حساً فكاهياً يشيع المرح والدفء في حياتنا جميعاً!! هذه السيدة لم تنعم بالشراكة الحقيقية إلا بعد سنوات سبع والله وحده يعلم كم عدد الأُسر التي وقع فيها الانفصال بسبب الصمت والإستسلام له!! .

وكان الفيلسوف العظيم سقراط يحث تلاميذه على طرح الأسئلة ليعرفهم أكثر، ولاحظ في إحدى المرات أن واحداً من تلامذته لا يسأل ولا يتكلم فصرخ فيه: تكلم حتى أراك، ولدينا مثل شعبي قديم يقول: اللي ما يعرفك ما يثمنك، والصحيح أن الذي لا يتكلم معك لا يستطيع معرفة خبيئة نفسك وبالتالي سيبخسك قيمتك، وتبادل الحوار قد يقربنا بعضنا البعض، وقد يبعدنا.. فالطيور على أشكالها تقع، أي إن كل طير يتوالف

مع من يتقارب معه في الصفات وما إلى ذلك، والانسان كذلك يتصاحب مع من يماثله في العمر والثقافة وأشياء أخرى ولا شك أن للصمت مزايا كثيرة أحياناً، وصفة الحكماء الصمت، فهم يسمعون أكثر مما يتكلمون، ويكسبون بالصمت ما يخسره الآخرون بالكلام، إلا أن الصمت بين الزوجين.. الصمت الذي يطول ويتحول إلى جدار يفصل بين الإثنين غير مرغوب، وموت غير معلن للعلاقة الزوجية، وأحد الفلاسفة قال: قل لي ماذا تحب اقل لك من أنت! .

ويقال أن الإمام الشافعي كان يجلس في الجامع والتف حوله تلامذته، يسألونه عما استعصى عليهم فهمه وهو يجيب، إلا واحداً ظل صامتاً لا يفتح فمه بكلمة، وفي كل مرة يحاول الإمام أن يمد رجله ليريح من وضعه يتحرج من هذا الرجل الوقور الذي ينظر إليه بوقار، ولا يسأل، وأخيراً تكلم الرجل وكان كلامه تافهاً، فقال الشافعي: لقد آن للشافعي أن يمد رجله! .

وإذن فالكلام وحده قادر على كشف خبيئة النفس، وحين يبادر أحد الأزواج بقوله: لم يعد هناك ما يقال، فإنه يقطع بهذا الإستسلام تيار الحياة الزوجية، فالصمت موصل رديء للحرارة في العلاقات الانسانية .

حين وطأ «كريستوفر كولمبس» أرض (سان سلفادور) في الأرض الجديدة أمريكا كانت هناك شجيرة صغيرة على سفح جبل تمد فروعها الطفولية لتشهد ما يجد على موطنها من متغيرات، وكبرت الشجيرة وامتدت عروقها حتى الأعماق وأصبحت أُماً لأجيال عديدة، الأمهات ينمن تحت ظلها والأطفال يتسلقون غصونها، والآباء يدورون حولها يبحثون عن مساحة خالية في جذعها، ويحكون ذكرياتهم معها عندما كانوا في مرحلة الصبا، وجاء رجال الطبيعة يدفعهم الفضول لمعرفة تاريخ ميلادها وسر

احتفاظها بشبابها، درسوا وحللوا وبحثوا ثم أعلنوا أن عمرها يزيد عن أربعمائة عام، أربعمائة عام والشجرة المارده تسخو بظلها على الجميع وتصغي للجميع وتكتم أسرار الجميع، أصيبت في حياتها الطويلة بالصواعق أربع عشرة مرة، ومرت بها العواصف العاتية والثلوج العنيفة أربعمائة عام متوالية، وهي صامدة في مكانها، ثم حدث أخيراً أن زحفت جيوش الهوام والحشرات الصغيرة وتغلغلت في جذورها وظلت تنخرها وتقرضها حتى سوتها بالأرض وكأنها لم تكن أبداً، لقد زالت تلك الشجرة العملاقة من الوجود بفعل هوام من الضآلة بحيث تسحق المئات منها بأصابع قدميك، ونحن كلنا بشكل ما مثل هذه الشجرة، عمالقة أمام التحديات الصعبة، أقزام في مواجهة صغائر الأمور، هل سمعتم أو خطر ببالكم أن يقع الطلاق بسبب مشط أو حذاء أو أي شئ آخر لا تتساوى قيمته المادية مهما ارتفعت مع ما قد ينتج عنه من آثار معنوية ونفسيه وهدم لكيان أسرة بكاملها؟ .

وتحكي سيدة أنها انفصلت عن زوجها بسبب حذاء غالي الثمن تلقته هدية من إبنها الأكبر بمناسبة العيد، وكان الحذاء أصغر مقاساً من قدميها فطلبت من الإبن إستبداله، إلا أن ذلك لم يكن ممكناً كما أخبرها، فالبضاعة لا ترد ولا تستبدل في ذلك المتجر الفاخر الذي اشترى منه هديته، وكانت هذه المناقشة بين الاثنين تجري على مسمع من الأب، الذي اقترح بفرح أن يقدمه لزوجته الثانية، وبالطبع لم توافق أم العيال على هذا الاقتراح المهين وقالت: أفضل أن أرميه في القمامة على أن ترتديه زوجتك، وتطور الأمر إلى تراشق بالكلمات ووقع الطلاق ! .

ويحكي رجل آخر أنه طلق زوجته وأم طفليه لسبب لا يقل تفاهةً عن

الأول، إذ كان من عادته كل جمعة أن يطلب من الخادمة إعداد ما يروق له من الأطعمه للغداء خلاف الأيام الأخرى التي تتولى فيها زوجته اصدار الأوامر الخاصة بالوجبات الغذائية، وفي ذلك اليوم أمر الخادمة بأن تعد له طبق دجاج بالفرن واختفى في مكتبه يقرأ حتى الساعة الواحدة كعادته في يوم اجازته، وعلى المائدة فوجئ بطبق كبير من المكرونة بدلاً من الطبق الذي اختاره، استفسر، قالت له الزوجة الاولاد اشتهوا مكرونة، فصرخ: وأنا أليس من حقي أن أشتهي شيئاً؟ أليس لي كلمة في هذا البيت؟ أنت الرجل وصاحبة القرارات في كل شئ، تشجعين الخدم على عصيان أوامري ، وأنا الذي أصرف عليهم وعليك؟ وأطاح بطبق المكرونة على الأرض وهو يصرخ وزوجته تصرخ، والأطفال يبكون.. ووقع الطلاق بسبب المكرونة!

وكثيراً ما يقع الخلاف بين الزوجين أحياناً لأسباب معقولة، ومعظم الاحيان لأسباب تافهة ، وهكذا يدور الإثنان في دائرة، مكهربة لا خروج منها إلا بتصريح الزوج بالفرقة .

تقول إحدى السيدات: بعض الرجال يجردون المرأة من كل حقوقها ومن إنسانيتها أيضاً، ويعتقدون أنها أدنى مرتبة منهم، ولقد ضقت ذرعاً بتحكمات زوجي فهو يرى أنه لا رأي للمرأة فوق رأي الرجل حتى لو كان رأيها صحيحاً، وكانت أولى معاركنا بعد أن رفضت الانصياع لأوامره، وخرجت لزيارة احدى صديقاتي، وعند عودتي دب الخلاف وتأزم الموقف فطلقني، وكانت تلك هي المرة الأولى، وعدنا لاستئناف الحياة مرة أخرى، وحاولت بشتى الطرق أن أبني جسوراً للمودة والتفاهم إلا أنه كان يمنعني من أشياء كثيرة كنت أثق في أنها من حقي، وحتى الطفل الآن إذا أمرته بألا يفعل هذا أو ذاك بادرك بالسؤال: لماذا! فإن لم يقتنع بوجهه نظرك فإنه قد

يفعل ما نهيته عنه خفية، أن الإقتناع وحسن الاقناع أمران ضروريان في الحياة الزوجية، أما أن يمنعني من زيارة أهلي مثلاً ثم يقول لأنني لا أريد وكفى.. فهذا أُسلوب مهين لي كإنسانة وأم وزوجة .

وذات يوم اتصل بي من مقر عمله وكنت أتحدث وقتها مع بعض صديقاتي فهن المتنفس الوحيد لي بعد أن منعني من الخروج، وكرر الاتصال على ما يبدو وكان الخط مشغولاً.. فجاء إلى المنزل وهو فريسه لغضب أهوج وطلقني للمرة الثانية، وللمرة الثانية عدت إليه.. أنا لا أكره زوجي ولا أتمنى الإنفصال عنه، ولكن لم أعد أحترمه، وأخاف أن يتحول هذا الشعور إلى كره ، وفي الوقت نفسه لم تعد لدينا أنا وهو سوى فرصة أخيرة قد يهدرها بتهوره في أية لحظة، ولعل الشعور بالذنب والخوف من فقدان الأمل في الإستمرار بعد تكرر مرات الطلاق يدفع الزوجين لكبت انفعالاتهما والضغط على أعصابهما.. وهذه المعاناة ليست في صالحهما ولا في صالح أطفالهما إذا كان لديهما أطفال .

يقول أحد الأزواج: لا أذكر انني وهي كنا السبب في المرة الثانية، لقد تزوجتها وأنا أدرك تماماً فارق الثقافة بيني وبينها، فأنا حاصل على مؤهل جامعي وهي لم تكمل دراستها الإبتدائية، ومع ذلك ربط الحب بين قلبينا وبعد الزواج بدأت أعاني من الفارق الكبير بيننا، فهي لا تفهم كثيراً من الأمور، ورزقنا بالأولاد والبنات وبدأوا الانتظام في المدارس، وبدأت مسؤولياتهم تزيد، ووقتي أغلبه يضيع في العمل من أجل تأمين حياة أفضل لهم، ولكن من الذي يستطيع متابعة الصغار، في مدارسهم ودروسهم؟ أن زوجتي تقرأ وتكتب بالكاد ولا وقت عندي للإهتمام بهم ، وفي إحدى المرات وأثناء نقاشنا خرجت المناقشة عن حدود المعقول فاضطررت لتطليقها

وبعدها بيومين عدنا من جديد وكأن شيئاً لم يكن، ولكنها لم تكن الأخيرة، فبعد فترة قصيرة وقع اليمين للمرة الثانية وكانت هي السبب حيث اشتد الخلاف بيننا فأهانتني، ومثل المرة الأولى والثانية عدنا لاستئناف حياة لا طعم لها من أجل الصغار وأصبحنا أنا وهي نتجنب الإحتكاك حتى لا يقع الطلاق الأخير ! ورجل آخر يشرح سبب انفصاله بقوله: تزوجتها وقد أعجبت بحسبها ونسبها وأخلاقها.. وأسسنا معاً عش الزوجية ولكن لم نهنأ به، تحولت الفتاة الرقيقة الخجول التي اخترتها عن اقتناع إلى فتاة أخرى غيور يسكنها الشك وسوء الظن، كانت تشك في تصرفاتي وتتهمني بخيانتها دون دليل، ثم تثور وتحتد وتطلب مني الطلاق، احتملت منها ما لا يحتمل، وتجاهلت طلبها المتكرر بالطلاق حتى ضقت ذرعاً بصبري الذي كانت تعده ضعفاً مني فطلقتها، وبعد خمسة عشر يوماً خابرتني من منزل أهلها حيث تقيم واعتذرت لي عن سلوكها وأقسمت ألا تعود إلى ما كانت عليه، فصدقتها.. وأرجعتها إلى عصمتي، ولم تمض عدة أسابيع حتى وقع الطلاق الثاني، إذ عادت إلى محاصرتي بالشكوك والتجسس على أشيائي الخاصة، وظننت أن سكوتي عن هذه التصرفات المقيتة لفترة سيتيح لها أن تطمئن وتتأكد من استقامتي ومن ثم تستعيد ثقتها بنفسها، لكن يبدو أن هذه الاحتمالات لم ترد بخاطرها، كانت تعيش فقط لتعذبني.. ووقع الطلاق أيضاً.. وتدخل الأهل والأصدقاء وبعد محاولات واجتماعات ومناوشات وإرهاق عصبي ونفسي عدنا زوجين من جديد.. لكنها هذه المرة أضافت سلاحاً جديداً لمجموعتها الفتاكة في حربها الوهمية مع الزوج المغلوب على أمره الذي هو أنا.. هذا السلاح الجديد هو الإبتزاز.. ففي أعماقها كانت ترفض التغيير وما دامت لن تتغير فالطلاق الأخير واقع لا محالة، ولهذا كانت تبتزني قدر ما تستطيع وتحول النقود إلى ذهب تودعه

في البنك باسمها.. ولا أخفي عليكم انني أرثي لها بقدر زهدي فيها ، فالأموال التي تتكالب على جمعها لن تعوضها طويلاً وأنا قادر على تعويضها في أي وقت.. أما حياتها الزوجية التي استهانت بها فأجهل كيف ستعوضها فيما بعد. لا تبدأ المشاجرة في الواقع مع أول كلمة غاضبة تنطلق وإنما تبدأ فعلاً عندما يتوافر جو التوتر الذي تخلفه بعض المواقف، وهناك طرق عديدة لأن يسبب الإنسان خناقة مثلاً أن يفعل ما يعرف أنه يضايق الآخر، أو أن يتكرر نسيانه لأشياء قد يراها بسيطة لكنها تهم شريك حياته جداً، في كثير من الأحيان يكون أحد الطرفين بالذات هو الذي يبدأ المشاجرة دائماً، ولكن هذا لا يعني بالضرورة أنه الطرف ذو السلوك الرديء، قد يكون الآخر هو المتسبب فيما يحدث بهدوئه الزائد مثلاً أو بعدم اهتمامه وقلة مشاركته، وقد يكون أحد الطرفين هو المهزوم دائماً في كل خناقة، لعل الآخر منطقه أقوى أو ذاكرته قوية يستدعي منها الأحداث ويؤيد بها وجهة نظره دون أن يعطي الآخر فرصة حتى لترتيب أفكاره، تحكي زوجة انتهت حياتها بالطلاق أن زوجها كان يذكرها عند كل مشاجرة بهفواتها الصغيرة والتي مضى عليها سنوات وسنوات في حين كانت هي تعجز عن تذكيره بأخطائه الكبيرة في حقها، وعندما تنفرد بنفسها تشعر بالغضب والإهانة حتى أعلنت بعد ثلاثة عشر عاماً أنها لا ترغب في الاستمرار، والذي يعرف أنه سيكون مهزوماً قد يحاول تجنب حدوث أية خناقات متبنياً شعار «السلام بأي ثمن» وقد يصبح أكثر شراسةً وأشد إيذاءً أثناء المشاجرة لتعويض هزيمته المتوقعة، وإذا تكررت المشاجرات في موضوع معين فعلى الزوجين أن يبدءا البحث فيما وراء هذا التكرار، قد يكون هناك موضوع حساس لا يواجهانه، ولكن الواقع أنه ليس هناك موضوع حساس أو مؤلم بذاته وإنما نحن كأفراد الذين نتحمل المسؤولية تجاه

موضوعات بعينها قد لا تكون لها الحساسية نفسها عند الآخرين، فإذا جرى حوار بين الزوجين فلدى كل منهما حساسية تجاه موضوع معين فإنه يمكن تجنب كثير من المشاكل لو تمكنا من مناقشته بدون انفعال ووصلا إلى حل مناسب ومُرضٍ لجميع الاطراف، وقد تكون هناك خناقات متفرقه تنتج عن أحداث بسيطة تبدو غير مرتبطة بعضها ببعض، بينما الواقع أن هناك سبباً واحداً يجمع هذه الخناقات الصغيرة في خيط واحد، مرة أخرى إذا جلس الزوجان وهما هادئا الأعصاب، وحاولا التعبير عن مشاعرهما تجاه الموضوعات الحساسة بالنسبة لهما، فإنه يمكن تجنب الكثير من سوء التفاهم، إذا فهم الزوج مثلاً مشاعر زوجته الحارة تجاه أمها، فإن هذا يمكنه من عدم التطرق لأي موضوع يتعلق بها ويثيرها كأن تكون زوجته قد اعتادت تخصيص مبلغ كل شهر لوالدتها أو ما شابه ذلك. نعم، يمكن أن تكون المشاجرة بين الزوجين دليل عافية وصحة العلاقة بينهما ويؤكد مؤلف كتاب « الحب اثنان » أن المشاجرة فن والصلح فن لأن الحياة رجل وامرأة يجمعهما أكبر قدر من التفاهم والإنسجام والرغبة الأكيدة لإنجاح مشوارهما في الحياة، ولا تخلو حياة زوجية من مشاجرات، وإذا خلت فإن هذا شيء يدعو إلى القلق، وليست هذه دعوة للمشاجرة دون داع وإنما هناك خناقات صحية يجب ألا تختفي من علاقة الزواج، وهناك خناقات أخرى محطمة يجب أن يتجنبها كل متزوج.

مميزات المشاجرات الزوجية

والآن ما هي مميزات كل نوع وكيف نتعامل معه ؟ هذا ما سنتناوله فيما يلي : غياب المشاجرات الزوجية لا يعني بالضرورة أنه زواج ناجح على العكس تماماً، قد يكون غياب المشاحنات بما تتضمنه من احتكاك بين الطرفين مؤشراً على العزلة والتباعد الذي تتسم به حياة هذين الزوجين، تذكر زوجته أنها كانت تتجنب دائماً الدخول في شجار مع زوجها، وكان هو يصرخ ويتهم ويشتم أحياناً ثم يهدأ ويتعامل معها بعد فترة وكأن شيئاً لم يكن، في حين تكون هي مشحونة من الداخل بانفعالات الغضب والكره والثورة لعلمها بأنها لم تخطئ حتى تتلقى العقاب، وذات مرة وجدت نفسها ودون أن تدري طرفاً إيجابياً في مشاجرة ، تقول هذه الزوجة : أخبرته بأنني لم أعد أحتمل الغبن، وذكرته بأنه أخطأ في كذا وكذا وأنني تغاضيت عن هذه الأخطاء بإرادتي وليس معنى هذا أن يتمادى في انطباعه بأنه على حق، وعلا صوته أكثر. . واضطررت إلى معاملته بالمثل، وبعد أن أنهكنا الصراخ، اعترفت له بأن الصراخ لن يوصلنا لنتيجة وأن عليه أن يسمعني بهدوء ويناقشني دون عصبية فإذا ثبت خطئي سأتحمل اللوم وسأحاول عدم تكراره وعليه أن يفعل هو ذلك! ومنذ ذلك اليوم بدأت خلافاتنا تأخذ مساراً آخر، كما أن قلبي بدأ يصفو نحوه بعد أن تعودت إفراغ ثورتي وكذلك هو. ونحن في الأصل نتشاجر لأن كل طرف يحمل وجهة نظر يراها غير قابلة للنقاش فيما يختص بموضوع معين، وهكذا لا ندخل في حوار وإنما يتحول الأمر إلى خناقة، قد تنبع المشاجرة أيضاً من احساس متضخم بالذات ورغباتها مع تجاهل وجود الآخر ورغباته المختلفة عنا، وأحياناً يكون الاحساس بالوحدة أو الرغبة في الحصول على اهتمام الآخر

ورعايته هو السبب الحقيقي وراء الخناقة، وكثيراً ما يضاف إلى ذلك رغبة ثانية في معاقبة الطرف الآخر لأنه لم يدرك وحده احتياجنا للصحبة والمشاركة. وتتخذ المشاجرة أشكالاً مختلفة، هناك مشاجرات مليئة بالصراخ الذي قد يكون محاولة جذب انتباه الطرف الآخر، وإعلاناً صارخاً عن الرغبة في الحوار، وبعض المتزوجين تكون خناقاتهم صامتة لا يتبادلان فيها الحوار إلا في حدود بسيطة وفي منتهى الأدب، لكن كل منهما يعلن للآخر بصمته المدوي هذا أنه يريد أن ينعزل عنه ويطرده من مساحة اهتمامه. والفائدة الأساسية لأي مشاجرة هي أنها تساعدنا على إخراج ما في دواخلنا.. مخاوفنا.. مشاعرنا.. توقعاتنا تجاه الطرف الآخر، الخناقة صحية إن صح التعبير، فبعد انتهائها تخلق جواً من الفهم والتقارب الحنون بين الزوجين، إنها بمثابة خروج قصير عن خط السير ثم العودة مرة أخرى.. هي تصحيح مسار للعلاقة إذا تجنب الطرفان جرح المشاعر وقول ما لا يمكن نسيانه. وينبهنا مؤلف كتاب «الحب اثنان» إلى الأخطاء التي قد نقع فيها عند حدوث الشجار فيقول: تعمد ايذاء الطرف الآخر بكلام جارح شيء مرفوض لأنه يصنع جروحاً غائرة قد لا تلتئم العلاقة بين الطرفين بعدها أبداً، ثم أن تكرارالكلام الرديء قد يجعل الآخر يصدقه ويفشل في الخروج من اساءة لا تنسى أبداً حتى في لحظات الإنفعال تذكر أن من يقف أمامك هو نصفك الآخر، شريك عمرك الذي - وأن كنت تشعر بالغيظ تجاهه في اللحظة الآنية - تحبه في الواقع وتكره أن تفقده، ثم أن انتهاء المشاجرة بالهدنة وليس بالسلام الحقيقي هو أسوأ ما يمكن أن يحدث، فهذا يعني أن الطرفين توقفا فقط لالتقاط أنفاسهما ليستعدا لجولة ثانية وثالثة ورابعة، وحدوث ذلك الموقف سببه في العادة أن كل طرف متشبث بموقفه ويصر على أن ينصاع له الطرف الآخر باستسلام غير مشروط، وهناك طرق متعددة

لوقف الخناقة بدون إنهائها: قد يكون بالاتفاق الصامت بين الطرفين أنه لا فائدة من مناقشة ذلك الموضوع مرة أخرى.. وأن كانا في الغالب يعودان للتشاجر حوله مرات ومرات، وقد تنفجر الزوجة في بكاء حار مما لا يسمح باستمرار الجدال، أو عند انطلاق الزوج خارج المنزل صافقاً الباب وراءه، أو قد تدخل الزوجة غرفتها وتغلق عليها الباب معلنة قطع المشاجرة، واعتاد زوج الهروب من المنزل كلما أثارت زوجته موضوع الاولاد الذي كان يتكرر كل مرة، فهو مقتنع بأنه غير مقصر في حقوقهم فهو يعمل معظم الوقت من أجلهم ، وهي تطالبه بالإهتمام الحقيقي بهم.. بدراستهم.. هواياتهم .. ومتابعة علاقاتهم خارج المنزل وفي المدرسة، فالأولاد باتوا على أعتاب المراهقة وأكبرهم بدأ يحمل علبة السجائر علناً وهو لم يتجاوز الخامسة عشرة بعد، ويقضي معظم وقته محتضناً الهاتف، والثاني في الثالثة عشرة من عمره كثير الغياب ومهمل في دروسه، ويقضي سحابة نهاره في الشارع مع أولاد سيئي السمعه، والثالث في التاسعه كثير الرسوب كأخويه ويحاول تقليدهما في كل شيء، وفي غياب السلطة الأبوية ضاع الحب وضاع الأولاد واستمر الخلاف حول موضوع واحد لا يتغير، ومن أسوأ العادات التي قد يمارسها الزوج أو الزوجة الإحتفاظ بضغينة داخلية لنصفه الآخر حتى بعد انتهاء المشاجرة، وينصح الكاتب الأزواج بقوله: توقف فوراً عن هذا السلوك، ولا تقل أبداً هذه طبيعتي أو لا أستطيع أن أتغير، هذه العادات السيئة أشبه ما تكون بالخلايا السرطانية التي تنهش العلاقة الزوجية وتتركها مهترئة وخالية من الحياة، مزيد من التعبير الصريح عن مشاعرك قد يساعدك في التخلص من هذا الأسلوب ومن الخطأ أيضاً أن تتعامل مع موقف المشاجرة بمفهوم الكسب والخسارة «هو فاز في المرة السابقة، يجب أن أفوز هذه المرة» فبهذا الأسلوب سيكون الزوجان في الواقع خاسرين معاً، كما أن

تدخل طرف ثالث في الخناقة قد يجعلها تتفاقم بدون داع، قد لا يكون التدخل مادياً حقيقياً، وإنما هناك طرق غير مباشرة لاستحضار طرف ثالث واستخدامه كوسيلة للضغط على الطرف الآخر، مثلاً قد يذكر الزوج ما كانت أمه تفعله في مثل هذا الموقف، أو تصر الزوجة في داخلها على اتباع نصيحة صديقة بألا تجعل زوجها ينتصر عليها، واستغراق كل طرف في اجترار مشاعره وغيظه دون الوعي بالآخر سلوك سلبي لا يساعد على الوصول إلى نهاية مرضية للمشاجرة، قد يكون مفيداً للزوجين أن يتوقفا عن الصراخ بعد خمس دقائق من بدء المشاجرة، ليس بغرض الإستعداد للجولة الثانية، وإنما ليرى كل منهما نفسه جيداً، يمكنه أن ينظر في المرآة ويعيد الكلمات الحادة التي تفوه بها، بالنبرة نفسها وتعبير الوجه نفسه، قد يفهم عندئذٍ لماذا كان رد فعل الطرف الآخر ملتهباً، تقول زوجة: فاجأني زوجي وسط مشاجرة عنيفه بقوله: أنظري إلى وجهك تبدين كشيطان مريد، أقفلت على نفسي الباب ونظرت إلى نفسي واعدت الجملة الجارحة التي قذفتها به كعادتي وهالني ما رأيت.. ياإلهي كم هو محق.. نحن الذين نختلق مشاجراتنا كما يقول مؤلف كتاب «الحب إثنان» ونحن الذين علينا إنهاؤها، لا يهم كيف ننهيها أو من يقوم بالخطوة الأولى، المهم أن يصل كلانا إلى القناعة بأن استمرار العلاقة الجميلة الثرية بيننا أهم كثيراً من رغبة كل منا في التشبث بوجهة نظره، أو رفضه موقف المهزوم، فإذا وصلت إلى هذه النقطة فلا تنتظر وإنما تقدم وعبر عن ذلك الاحساس بالشكل الذي يرضيك، المهم ألا تكتفي بعدم الإستمرار في الصراخ مثلاً، أو حتى الهمهمه ببضع كلمات غير مفهومة بقصد الإعتذار، عليك أن تعبر لشريكك بوضوح وصراحة عن رغبتك الحقيقية في أن تتخطيا معاً تلك اللحظات المؤلمة، السؤال الآن هو: هل يمكن تجنب حدوث المشاجرات بين

الزوجين والإجابة: نعم، يمكن تجنب حدوث المشاجرات أو تقليل عددها وتخفيف حدتها والنصيحة الذهبية هي : لا تدخر المشاعر الرديئة أو المضايقات بداخلك، فهي تتراكم حتى يصبح خروجها ضرورياً، كما يخرج البخار من وعاء الضغط، وعندها قد يكون للإنفجار دوي وآثار مؤلمة لا يمكن علاجها، لا تتوقع من شريك حياتك أن يفهم مشاعرك دون أن تبوح بها بدعوى أنه يحبك، أما الموضوعات التي تختلف وجهة نظر الزوجين فيها فيجب ألا يهربا من مناقشتها وإنما ليزداد فهم كل منهما لرأي الآخر ومشاعره فتقل حدة الاختلافات وما قد يتبعها من مشكلات. الطريقة الثانية لتجنب المشاجرات بين الزوجين هي ما يدعوه المؤلف « التلامس الحنون » بين الزوجين فغياب التباعد المادي بين الزوجين يساعد على القضاء على أي مشاعر ضيق أو تباعد يمسها أحدهما تجاه صاحبه، التلامس يعيد كل منهما إلى موقعه في بؤرة وعي الآخر، ويذكرهما بخصوصية العلاقة التي تجمعهما وتفردهما. هناك بعض المواقف التي تتخلل الحياة الزوجية فتسبب جرحاً غائراً في العلاقة تحتاج بعده إلى نوع من التضميد، مشاجرة عنيفة مثلاً يندفع خلالها أحدهما أو كلاهما إلى إيذاء الآخر وإهانته بالقول أو الفعل، أو لحظة حوار صادق يكتشف فيها أحد الزوجين أنه كان بدون أن يدري يخيب أمل صاحبه فيما يتوقعه في علاقتهما، كأن يكتشف الزوج فجأة أن عمله يأخذ كل جهده ووقته إلى الحد الذي يجعل زوجته تغرق في الإحساس الجارح بأنها وحيدة مهملة، في مثل هذه المواقف قد لا تكفي كلمة إعتذار بسيطة ليعيد الأمور إلى نصابها، وإنما المطلوب هو إعادة التئام « الإثنين معاً » كما يلتئم طرفا الجلد عند الجرح، فيصبحان صديقين مرة أخرى، والمصالحة بهذا المعنى لا يكفي لتحققها أن تقول لنصفك الآخر « أنا آسف » الافضل أن تقول سامحني، الإعتذار كثيراً ما يلحقه تبرير للخطأ أو

حتى مجرد تفسير، كأن تقول «لقد استفزني سلوكك، أو لقد كنت متعباً لا أدري ما أقول «أي إنك تركز على نفسك، على مشاعرك.. ورغباتك أما سامحني فهي تحمل نفسي معنى الإعتذار نفسه لكنها تجعل التركيز على الطرف الآخر.. أنت تضع نفسك بين يديه.. وتعلن له بمنتهى الحب والثقة إنه جدير باحتوائك .

ويعطينا المؤلف سيناريو تفصيلياً كمثال على مصالحة من هذا النوع، هو وهي حدثت بينهما مشادة عنيفة لم يدخرا وسعاً خلالها في إطلاق الكلمات المهينة الجارحة لها، في اليوم التالي كان يفكر في طريق العودة ماذا سيفعل!! لقد كان جارحاً أكثر مما يجب ولن يكفي أن يبالغ في اللطف كنوع من الإعتذار، وعندما وصل إلى المنزل كانت آثار البكاء تطل من عينيها الحمراوين المنتفختين، وعندما حاولت يداه الإحاطة بكتفيها ومواجهتها أشاحت بوجهها عنه، لكنه تشبث بها وقال: حبيبتي لقد كان سلوكي قبيحاً جداً بالأمس، لا يكفي أن أقول آسف، ولكن هل تسامحيني؟ استرخت عضلات جسمها بين يديه وأجهشت بالبكاء وهي تدفن رأسها في صدره، وهمست بعد لحظات: نعم أسامحك!! وعندما توقفت دموعها قالت: لقد كنت أعد العدة لموقف عاصف جديد، أردت أن أوضح لك مدى الإيذاء الذي سببته لي بالأمس، لكن عندما طلبت مني أن أسامحك توقفت فجأة عن التفكير في مساوئك! وبدأت أدرك أنني لست إنساناً كاملاً، ومن أكون أنا لأمنحك العفو ، لقد وضعت نفسك بين يدي ولن أنسى هذا أبداً. إن شلال الغضب الهادر يمكن أن يتبخر، كأن لم يكن إذا منحت نفسك للآخر من جديد، إذا وضع نصفك الآخر نفسه بين يديك فلا تجعل قبوله معلقاً بشروط محددة، وبقدر ما يسامحني أسامحه أو

ن أسامحك حتى أحصل على ضمان بأنك لن تكرر ذلك مرة أخرى، أو لن سامحك حتى أتأكد من أنك فعلاً تغيرت، إذا فعلت ذلك فأنك تتعالى عليه.. وعلى مشاعره وتنسى أنك في الماضي القريب اخطأت في حقه، لم يضع لك شروطاً للصلح، في الواقع لا أحد يمكنه أن يضمن المستقبل، ن يقول «أعدك بأن ذلك لن يتكرر أبداً» المصالحة الصادقة بين الزوجين عني أن كلاً منهما سيكون أكثر فهماً للآخر وبالتالي أكثر حرصاً على مشاعره، ولكن لا شيء مضمون مائة في المائة فيما يتعلق بالعلاقات لإنسانية، لا تبالغ أيضاً في إيلام نفسك إذا أخطأت، فالذي لا يغفر لنفسه لا يستطيع أن يسامح الآخرين، والعائق الأساسي أمام المصلحة بين الزوجين هو كبرياء الإنسان التي تمنعه من أن يعترف بأنه أخطأ، أو يتصرف بشكل يوحي بذلك، لكن المصالحة الإلتئام التي نتحدث عنها لا تهتم بمن المخطئ ومن المصيب، إنها تعبير صادق عن رغبة الإثنين في التوحد من جديد بصرف النظر عمن أخطأ ومن أصاب. ليس صحيحاً في علاقة الزواج أن يكون أحد الطرفين دائماً البادئ بالمصالحة حتى لو كانت الحجة في ذلك أن أحدهما يجد التفوه بكلمات الإعتذار أكثر صعوبة مما يجدها الآخر، وحتى إذا كان الذي لا ينطق بكلمة الإعتذار يتصرف بلطف ورقة زائدة كنوع من المصالحة، فالطرفان في معظم الاحيان قد اشتركا في الوقوع في الخطأ، وهما مسئولان معاً عن تنقية الجو بينهما وإعادة حياتهما المشتركة إلى مسارها الطبيعي، وإذا اكتسب الزوجان هذه العادة «أن يكون أحدهما دائماً البادئ بالمصالحة» قد يتحول الموضوع إلى مجرد شكل خارجي يظهر خلاف ما يبطن، فالأول يعتذر دائماً بينما يحتفظ في أعماق نفسه بإحساسٍ دفين بالضغينة ينمو على مر الأيام، والثاني يتقبل الصلح وهو لا ينوي أن يغير شيئاً من سلوكه أو طبيعته ليتجنب مواقف الشجار مع الآخر..

اعتادت زوجة المسارعه في الاعتذار بعد كل خلاف ينشب بينها وبين زوجها حتى لو كان هو المخطئ وتبرر تصرفها بقولها: أكره الخصام ولا أستطيع النوم أو الأكل وزوجي في حالة غضب مني، ويبدو أن زوجي لم يفهم طبيعتي المسالمة ففي آخر مرة تشاجرنا فيها صفعني على وجهي وانصرف غاضباً ، ولم يكن ممكناً أن أغفر له هذه الإساءة، وانتظر زوجي قيامي بالخطوة الأولى للمصالحة وطال انتظاره، وبعد ثلاثة أيام لم يدر بيننا أي حوار فاجأني بقوله: لقد تغيرت كثيراً! لم تعودي تحبينني!! صرخت فيه: ياإلهي عن أي نوع من الحب تتكلم؟ هل الحب الذي تحمله لي يعطيك الحق بضربي وتجريحي بقوارص الكلام ثم يدفعني حبي لك إلى الإعتذار عما أحدثته أنت من شروخ في علاقتنا؟!!

في ذلك اليوم قلت الكثير قلت له كل ما اختزنته في صدري، وتقبل ثورتي واعترافاتي بدهشة، وقال لي بعد أن توقفت عن العتاب: لكنك عودتني البدء في الصلح ، وكنت في كل مرة أنتظر منك هذه المبادرة، فاعذريني! لحظات المصالحة بعد الخصام أو الشجار تمثل تجربة ثرية في حياة أي زوجين، انها إعادة اكتشاف كل منهما الآخر ونفسه، إنها إعادة لمشاعر الود والحنان التي عرفها الزوجان عند بداية التوحد في علاقة الزواج . من المؤكد أنه لا توجد ضمانات أكيدة لاستمرارية أي زواج ، ولكن هناك قواعد وأسساً يجب أن يبنى عليها الزواج، فإذا كانت هذه القواعد والأسس ثابتة وصلبة إستقام بنيان الزواج العمر كله، وبالطبع قد يحتاج هذا البنيان للرعاية بين حين وآخر شأنه شأن أي شيء آخر في العالم، لكنه لن يكون آيلاً للسقوط، ويؤكد الخبراء أن الفترة التي تسبق الزواج هي التي تحدد نوع البناء الذي سيتم تشييده « ثابت - متزعزع - تجاري - الخ » وهذا ما

يسمى بالاستكشاف وجس النبض، وفيها يعرف كل طرف حدود رضاه أو نفوره من تصرفات الآخر في المواقف التي يمران بها، فإذا كان حد الرضا معقولاً فإن الحياة الزوجية يمكن أن تمضي بوئام رغم العقبات التي قد تتعرض لها لاحقاً، أما إذا كان ..... غير مقبول فإن من الأفضل عدم المخاطرة بالإقدام على تجربة الزواج والتعلق بحبال الأمل والوهم ، وتحذر الدكتورة « جان » المستشارة في علم العلاقات الإنسانية بجامعة برمنجهام ببريطانيا من الاعتماد كليةً على فترة الاستكشاف هذه أو ما نسميه بفترة الخطوبة – إذ كما ذكرنا سابقاً – هي فترة مضللة يتظاهر فيها الطرفان بالكمال والمثالية المطلقة، ورغم ذلك لا بأس من المحاولة وتكثيفها في هذه الفترة حتى تتضح معالم الأمور، وفي جامعة لندن خرج الدكتور « هنري ديمتري » أُستاذ علم الإجتماع بدراسة هامة ومفيدة لكل إثنين يتأهبان لولوج عش الزوجية، يقول الدكتور « هنري » عن دراسته أنها خلاصة تجارب آلاف الحالات التي أجابت عن أسئلة بكل صراحة ودون أي مواربة، وهذه الحالات حكت عن تجاربها قبل الزواج وبعده، بعض الحالات عاشت حياة سعيدة صافيه لا تشوبها أي شائبة أثرت على مجرى الحياة الزوجية، أما بعضها الآخر فإنَّ الاختيار الأساسي كان خطأ وطبعاً دفعوا ثمن هذا الخطأ غالباً، ويؤكد الدكتور هنري أن هناك عدة نصائح يجب أن يضعها كل مقبل على الزواج في اعتباره قبل أن يشتري ورود الفرح ويطبع بطاقات حفل الزفاف وأول هذه النصائح البحث عن الأشياء المشتركة، وتقليل الخلافات هي النصيحة الأولى للزواج السعيد، فالخلافات قبل الإرتباط ربما تكون واضحة جداً ويتغاضى عنها أي طرف على أساس أن هذه الخلافات ستذوب وتتلاشى فيما بعد وهذا الخطأ الأول الذي يقع فيه الطرفان، ففي أحيان كثيرة لا يذوب أي شيء، وتتعمق الخلافات بشكل يستحيل معه التراجع أو

حتى التنازل من طرف لصالح الطرف الآخر.

خذ مثلاً مسألة الأطفال إنها مسألة يجب الإتفاق عليها من البداية، فالمرأة التي يقول لها من يتقدم لزواجها أنه لا يحب الأطفال يجب أن ترفضه فوراً، مهما كانت المشاعر وقتها، وحتى لو كانت المرأة توافق على هذا الرأي، فإنَّ علم النفس في هذه الناحية بالذات يرفضها تماماً، فالساعة البيولوجية للمرأة التي تحكم عواطفها وتصرفاتها وحالاتها النفسية تجاه أي شيء تتغير بعد سن الثلاثين، فإذا كانت المرأة قبل هذا السن لا تميل إلى الأطفال فإنها بعد هذا السن سترغب وبشدة بأن يكون لها طفل تغدق عليه حبها وحنانها.

شاب اشترط على خطيبته تأجيل فكرة الإنجاب إلى ما بعد حصوله على الماجستير والدكتوراة فهو سيصطحبها معه إلى آخر الدنيا "أمريكا" ويريد منها أن تتفرغ له، وأن يطيلا شهر العسل عدة سنوات، ووافقت على طلبه، وبعد زواجهما واستقرارها في ذلك البلد البعيد بثلاثة أشهر كانت تبشره بحملها ولابد أنها كانت تتوهم بأنه سيسعد بتعمدها إهمال الموانع التي أحضرها بنفسه، أو أن تحول الفكرة التي كانت مؤجلة إلى واقع فعلي سيغير من مفاهيمه وسيوحد بينهما أكثر، وكانت ثورة الشاب عنيفة وحادة حتى أنه لم يتقبل وجودها معه، وما يتبع هذا البقاء من رعاية واهتمام لابد أن يوليها لها في فترة الوحم والحمل وهو يرى أنه أحق بالرعاية والإهتمام، وعادت رغماً عنها إلى أهلها وهي في الشهر الخامس وظل هو هناك، وبعد أن وضعت مولودها أعلمته برغبتها في السفر إليه لكنه رفض بإصرار، وطلب منها أن تبقى حيث هي إلى أن ينتهي من دراسته وعلمت فيما بعد أنه مرتبط بفتاة من ذلك البلد.. وأن سنوات الغربة قتلت عواطفه نحوها

وهي بعـد كل هذا تتسـاءل: مـاذا فعلت حتى يرفضني بهـذا الشكل؟ والخلاف كما يبدو كان واضحاً منذ البداية، فتلك الفتاة أخفت رغبتها في تكوين أسرة قوامها الأطفال عن خطيبها وأقرته في مسألة التأجيل ظاهرياً، ولو أنها تناقشت معه لأمكن التوصل إلى إتفاق قد يرضي الطرفين، أما إذا كان الخلاف على تطبيق المبدأ نفسه فأمر آخر، فإذا كان الخلاف على عدد الأطفال مثلاً يمكن الوصول إلى حل وسط، فإذا كان الرجل يحب أن يكون لديه ستة أطفال والمرأة ترغب في ثلاثة فإن التقارب سهل جداً في هذه المشكلة، ويذكر أن شاباً جامعياً انفصل عن خطيبته وسط دهشة الجميع لأنه اختلف معها في تسمية الأطفال الذين قد يرزقان بهم في المستقبل وقال: إذا كنا لم نتفق على الأمور البسيطة فما بالك بالأمور الكبيرة.

تخطئ المرأة أحياناً عندما تتصور ان الرجل يحاول أن يتنازل ويساعدها في البيت، ويقول د. هنري إن الرجل أحياناً كثيرة قبل الزواج يحاول أن يقنع خطيبته بأنه يستطيع أن يقوم بكل شيء في البيت، وأنه حتماً سيساعدها، جميل جداً أن يساعد الزوج، ولكن المشكلة إن الزوجة قد تعتبر هذا الأمر واجباً، وتحاول أن تجعله روتينياً، وهذا في حد ذاته يقلب الحياة جحيماً، من الأفضل أن تشكر الزوجة زوجها على مساعدته، وترفضها في أحيان كثيرة، هذا الرفض يزيد من حماس الزوج، أما إذا قررت الزوجة منذ البداية أن الزوج يجب أن يقوم بشغل البيت إجبارياً، فإن عليها أن تعيد التفكير في هذه الفكرة .

وهناك أسئلة لابد للفتاة أن تطرحها على نفسها قبل أن تتورط بالموافقة على أي قرار مثلاً هل توافق على العيش بعيداً عن أهلها؟ هل هي على إستعداد لأن تقبل ذلك؟ عليها أن تجلس وتفكر في هدوء بعد أن تتعرف

على طموحات خطيبها، بمعنى هل هي على إستعداد لأن تتزوج رجلاً يمكن أن يصبح في يوم من الأيام سفيراً أو وزيراً أو رجلاً مهماً؟ أم أنها من هؤلاء اللاتي يرضين بالقليل، وليس لديها أي طموح أو أحلام؟

والتعرف إذن على الطموحات والأحلام يسهل الحياة في المستقبل، ويسوي طرقاً ربما تكون وعرة في طريق الزواج، والمال من الأمور التي تسبب المشاكل في الحياة الزوجية، وما لم يتعرف كل طرف على موقف الطرف الآخر من المال، فإن المشاكل قد تتصاعد إلى درجة الإنفصال السريع، ومن الضروري كما يقول الدكتور هنري أن يتعرف كل طرف على إمكانيات الطرف الآخر وكيفية تعامله مع المال، فالزوج الحريص قد لا يعجب المرأة أحياناً، والزوج البخيل قد يكون مرفوضاً تماماً، المهم هو وضع الحدود والخطوط الفاصلة منذ البداية، فإذا اتفق الطرفان على ألا يتدخل كل منهما في طريقة تعامل الطرف الآخر مع المال منذ البداية، فإن الزواج يمكن أن يسير في طريق مفروش بورد الثقة وأزهار التسامح، ولكل إنسان حياته السابقة قبل الزواج، هذه الحياة مليئة بالمعارف والأصدقاء وإذا لم يتقبل أحد الشريكين صداقات شريكه، فإن مشاكل لا حصر لها ستنشأ نتيجة هذا الرفض، وتذكر زوجة أن أكثر خلافاتها مع زوجها بسبب تدخله في صداقاتها ورفضه وسخريته من صديقات ارتبطت بهن على مدى خمسة عشر عاماً، وتقول هذه الزوجة: إنه يريد أن يشطب حياتي السابقة ويحرمني من صديقات العمر، يريد أن يلغي حقي في اختيار من أرتاح لصحبتهن، فقط لأنه لا يريد، وكم أشعر بالكراهية نحوه حين يلجأ إلى أساليب رخيصة الغرض منها إبعادي عن رفيقات الطفولة والصبا.. ويظل يردد أكاذيب بدأ يصدقها لكثرة ما رددها.. صديقتك هذه سيئة ولا أحب

أن أراها في منزلنا، وصديقتك الآخرى طويلة اللسان وأخاف أن تتأثري بها.. وفلانه فعلت كذا وكذا؟ وأود أن أقطع محاضرته البغيضة التي تبدأ بعد كل زيارة أو محادثة هاتفية لي مع إحدى صديقاتي وأصرخ فيه: وهل أصدقاؤك أفضل؟ كل أصدقائك يمارسون شتى أنواع الرذيلة "الزنا - الكذب - الإدمان النميمة، ومع ذلك تجالسهم وتفخر بصداقتهم فمن أعطاك الحق بتقييم صداقاتي والوصاية عليّ!! ولابد أن يترك الزوج كما يقول المؤلف مساحة من الوقت لزوجته تقضيها مع صديقاتها أو إذا لم يفعل فإن الكذب الأبيض أو ما هو أشر "الحقد" سيعرف طريقه إلى قلب الزوجة، وعلى الزوجة أيضاً أن تفعل الشيء نفسه. على كل إثنين يفكران في إنشاء أسرة ألا ينسيا أو يُنسى أحدهما على الأقل أن للآخر أسرة كاملة يشعر بالولاء نحوها، ويدين لها بالوجود ومحاولة قتل هذا الشعور بحجة أن لديه أسرة جديدة يعد انتهاكاً لأبسط حقوق الشريك، وحقه في الحب لأفراد أسرته "الأبوين الإخوة الأخوات" وتخطئ المرأة إذا تصورت أن الزوج يمكن أن يتخلص بسهولة شديدة من حبه لأسرته، وبالذات حبه لوالدته لقد اعتاد أشياء معينة منذ الصغر، ووالدته هي أقرب مخلوق إليه، وأكثر الناس معرفة به وبأدق خصوصياته، فكيف يهجر حبًّا بلا مقابل لأجل حب مشروط؟ وإذا أصرت المرأة على تغيير زوجها فإنها يجب أن تفكر بهدوء ودون أن يلحظ الزوج تعمدها هذا التغيير، وإلا فإن النتائج ستكون عكسية مائة بالمائة، فإذا اعتاد الزوج مثلاً أن يقضي يوم الجمعة مع أسرته، وهي تريد أن يقضيه مع أسرتها فإن التغيير يأتي بأن تقرر أن يقضياه سوياً في الخارج بعيداً عن أسرته وأسرتها، ورويداً رويداً تبدأ الحياة الجديدة، والشيء الهام الذي يجب أن تدركه المرأة كما يقول الدكتور هنري أستاذ علم الإجتماع بجامعة لندن هو أن تحاول إسعاد الزوج من خلال أسرته، فتعمل على أن

تكون زيارته لأهله مسألة تسعدها وليست مجرد واجب، والشيء نفسه يجب أن يفعله الزوج إذا أراد حياة سعيدة وعلى الإثنين أن يجيبا عن سؤال هام قبل الزواج :- هل هما على استعداد لقبول أسرة كل طرف في حياته الجديدة؟ إذا كان الجواب بالإيجاب فلا خوف من الدخول في العش الذهبي فوراً!

وأذكر بهذه المناسبة أن شاباً اشترط على خطيبته ألا تزور والدتها المطلقة التي تعمل وتعيش بمفردها، ووافقت الفتاة على. كل شروطه ومن ضمنها هذا الشرط الغريب للتخلص من سيطرة والدها وزوجته، مع العلم بأن والدها لم يكن يسمح لها بزيارة والدتها، فكانت تزورها خفية كلما سمحت الظروف، وبعد الزواج بفترة اكتشف زوجها بأنها تحادث والدتها هاتفياً وهدد وتوعد وخيرها بين البقاء معه أو العودة إلى دار أبيها إذا ما استمرت تذكر والدتها وتحادثها دون علمه، إستعطفته.. ورجته أن يقدر حبها لوالدتها وأن يسمح لها بالإتصال بها وألا يقطع صلة الرحم، لكنه حسم الأمر بقوله: كلمتي واحدة ولن أتراجع عنها، لو كان فيها خير لما طلقها والدك ومنعك من زيارتها. هذه الفتاة أصبحت أماً الآن وتعيش مع زوجها لأنها لا تجد مكاناً آخر تذهب إليه، وإذا سألتها عن شعورها نحوه فإنك ستسمع هذا الجواب: أكرهه كما أكره والدي وزوجته، لقد حرموني من حنان أمي وحبها، جعلوا أنفسهم قضاة وقطعوا صلة الرحم التي حرم الله قطعها فكيف يمكن أن أحب من أرادوا أن يعلموني الكره .

وأنتقل إلى موضوع آخر، إذا عرفت أن خطيبتك كانت مخطوبة لشخص قبلك وكانت سعيدة بخطبتها، فإن هذا الأمر من المفروض ألا يغضبك، المفروض ألا يغضبك الماضي الجميل لزوجتك، والأفضل أن تركن

للأصلح، والأصح في مسألة الزواج والأسرة أن تتمسك بالمبدأ الذي يقول: إن ما لا نعرفه لا يجعلنا نسهر الليالي، فالمعرفة بالماضي قد تسرب إلى قلوبنا الغيرة، والتفاصيل التي يصر الشريك على معرفتها من شريكه "وأعنى تفاصيل علاقة ما في الماضي" قد تؤرقه وتظل دائماً في مخيلته وأمام عينه كغشاوة تحرمه من رؤية كل ما هو جميل في الحياة وفي حياته الزوجية على وجه الخصوص، والغيرة الزائدة عن اللزوم صفة الضعفاء غير الواثقين من أنفسهم، الحاضر هو الذي يهمنا، والتصرفات الحالية هي المقياس الذي يحدد ردود أفعالنا. هذا ما تقوله الدكتورة "جان" المستشارة في علم العلاقات الإنسانية بجامعة "برمنجهام" والحياة الزوجية رغم ذلك يجب أن تقوم على التصارح لأن المصارحة تفتح باب القبول والإندماج الفعلي لبناء مستقبل واحد، والصراحة ليست في الحديث عن ماضٍ لم يعد له وجود بل عن حاضر موجود. عن ماذا تحب وماذا تكره، طموحاتك.. أحلامك.. صفاتك.. مشاعرك .. معتقداتك .. كل هذه الأشياء دون تزييف أو تجميل، حتى لا يصدم الشريك فيما بعد بإنسان آخر يختلف تمام الإختلاف عما كان يعرفه أو يعتقد أنه يعرفه في فترة الخطوبة!! والزواج كما تقول جان هو أن نقترب ممن نرتاح له، بعيداً عن العواطف الجامحة وتخدير العقل، فالزواج مسألة مختلفة تماماً، ولذلك فإن كل الماضي "حتى لو كان جميلاً يجب أن ننساه بمجرد أن نضع أقدامنا على أعتاب الحياة الزوجية .

عندما سئل الموسيقار الكبير محمد الموجي في لقاء صحفي عن كيفية الحفاظ على رابطة الزواج قال: معاً على طول الحياة بالتآلف والتفاهم والتضحيات، بالمشاركة القوية في السراء والضراء، في لحظات الإنتصار ولحظات الإنكسار، في لحظات النجاح الضخم، وفي لحظات الفشل

الذريع، كانت زوجتي أم أمين هي كل هذه الأشياء، شاركتني البدايات الصعبة، وشاركتني النجاحات الضخمة، كانت هي دائماً مستمعي الأول، وجمهوري الأول، أذكر يوم قال لي الفنان الراحل محمد عبدالمطلب في بداية الخمسينيات عن لحن "صافيني مرة" : لحن إيه ده يا إبني.. ده غُنا خواجاتي، يومها اهتززت قليلاً، لأنه رفض حتى أن يسمع اللحن إلى آخره، لكن أم أمين قالت لي : لا تحزن هي أغنية المستقبل! "معلومة" هذه الأغنية هي التي أطل المرحوم عبدالحليم حافظ على جمهوره بها! ويكمل الموجي : بقاؤها معي من بقاء فني معي، فني كله نابع منها، وقوفها معي دائماً وفي أحلك الظروف جعل فني لا يتخلى عني ولا أتخلى عنه، أم أمين زوجتي وأم أولادي هي التي ينطبق عليها شعر الصديق الراحل مرسي جميل عزيز: على طول الحياة.. نقابل ناس.. ونعرف ناس.. ونرتاح لناس عن ناس، لقد ارتحت إليها وارتاحت اليّ، وشاركتني في كل شيء في الحلوة وفي المرة .

"وأقول لكل فتاة مقبلة على الزواج لابد أن تتحملي وتساندي زوجك، وأقول للشاب لابد أن تكون زوجتك محط اهتمامك الأول والأخير، وأن يتم تبادل التضحيات وأن تكون المشاركة وجدانية.. لحظتها سوف تستمر الحياة إلى ما لا نهاية.. ويبقى الإثنان معاً على طول الحياة " . ما أروع أن يردد زوج مضى على زواجه خمسون عاماً هذه الكلمات عن شريكة عمره وعن الزواج!! .

أكدت الدراسات العلمية الحديثة أن هناك ما يسمى بالشجار الإيجابي، وهذا النوع من الشجار له قواعده وأصوله وإذا عمل به الأزواج فإنه يعمل على توثيق العلاقة بينهم ويبدد غيوم التعاسة من سماء حياتهم.

ويؤكد الدكتور "جويد" من جامعة وسكونسن الأمريكية أنه يترتب

على الزوجين تعلم أصول الشجار الإيجابي. قد تكون هذه النظرية جديدة، إلا أنها نتيجة للدراسات والمستندات التي توصل إليها الخبراء وأثبتوا صحتها وجدواها، وقد أدت هذه النظرية الجديدة إلى انهيار النظريات التي كان يعتمدها خبراء الزواج والمستشارون في الشؤون الزوجية والذين كانوا ينصحون بعدم دخول الزوجين في شجار بل محاولة التوصل إلى تسوية، كما كانوا يطلبون من أحد الطرفين في حال حدوث الشجار ووصوله إلى الذروة مغادرة المكان إلى أن تهدأ النفوس، في حين أن النظرية الجديدة تطالب بعكس ذلك تماماً، فالزوجان اللذان يعملان على التهرب من مناقشة أمورهما لخوفهما أو خوف أحدهما على الأقل من تأزم الموقف وما ينتج عنه من غضب أو خصام، أو التراجع إذا حدث النقاش طمعاً في صلح قصير المدى إنما يعملان على تعميق الهوة بينهما لأن أسلوب الكبت والخوف من توجيه الملاحظات وإبداء الرأي يشبه إلى حد ما انتشار الخلايا السرطانية في الجسم على غفلة ثم لا يكتشف أمرها إلا بعد أن تتحول إلى أورام ملحوظة وقد تكون النهاية!! لذلك جاءت تسمية الشجار الإيجابي حيث يكون كل من الزوجين حراً في التعبير عن رأيه وصريحاً في الإعلان عما يدور في رأسه من أفكار، وحين يصل كل شريك إلى درجة من النضج تؤهله لتقدير محاولة شريكه في التعبير عن نفسه والإهتمام بما يقوله حتى لو كان على شكل إنفعالات بركانية فإنه سيمسك بطرف الخيط الذي يقوده إلى أعماق شريكه في العلاقة والفهم والتفهم يؤديان كما هو معروف إلى الود والإستقرار، وأولى الخطوات التي يجب أن يتبعها أي شريك بعد نشوب الخلاف الإصغاء إلى ما يقال والتمعن في المواقف والكلمات، لأنه بهذه الطريقة يشعر شريكه بأنه لا يستخف بكلامه ولا يستهين بآرائه، ويحترم وجهة نظره حتى لو لم تكن صحيحة، والملاحظ دائماً أن الأزواج حين

يختلفون وتعلو أصواتهم ويتحول النقاش إلى صراخ لا يصغى بعضهم إلى بعض، فهم يتكلمون أو يصرخون في وقت واحد، وعندما ينهكهم التعب يصمتون أو ينسحب أحدهم معلقاً الموقف دون حل، أو يتوصلون إلى ترضية مؤقتة لا تحل المشكلة، وهناك زوج أراد أن يختبر صحة ما يقال من أن الأزواج لا يصغون لمشاعر شركائهم التي تترجم إلى كلمات عند المشاجرة ويكونون منهمكين في ترتيب أفكارهم للرد والدفاع عن أنفسهم بعد أن يلتقطوا شذرات قليلة من أفواه محدثيهم، هذا الزوج سأل زوجته بعد أن هدأت العاصفة وعاد الصفاء إلى نفسيهما إثر شجار حاد: هل سمعتيني عندما صرحت لك بحبي، سألت الزوجة: متى فعلت ذلك؟ قال الزوج: أمس عندما اختلفنا قلت لك: ومع ذلك أحبك! ثلاث مرات كررت هذه الجملة على فترات متباعدة فكيف لم تنتبهي!.

وهذه الحادثة تذكرنا بحكاية السيدة التي قدمت لضيوفها الكعك وقالت لهم: هذا الكعك صنعته أمس بيدي، اشتريت كل مكوناته بنفسي، عجنت الطحين والسكر والبيض وتركته لفترة ثم خبزته مع الزرنيخ : مادة سامة: وتركته لفترة قبل أن أضيف له المواد الأخرى، وكانت الردود تثير الدهشة: رائع.. طيب.. لذيذ.. شكراً.. الخ.. لقد التقط الضيوف الجملة الأولى فقط ليردوا عليها ولم ينصتوا لبقية الحديث وإلا لما تناولوا الكعك الذي ادعت صاحبته "للتجربة فقط" أنه مسموم. وفي الستينيات قامت جامعة "مينسوتا" بإجراء نفس هذا الإختبار على آلاف الطلبة واستغرق عدة سنوات، ثم أجروا اختباراً مماثلاً لعدد كبير من رجال الأعمال وأصحاب المهن والحرف، وكانت النتائج العامة هي أن الشخص العادي "نصف المستمع" حتى لو حاول الإنصات بكل كيانه يستوعب فقط

٥٪ من الحديث الذي أنصت إليه بعد الإنصات مباشرة، وقد اشتكى أحد مديري المتاجر الكبرى من هذه النقطة فقال: إن نصف هذا الإستماع سبب لعمالنا غير المدربين مشاكل كثيرة، فإن إحدى العميلات تقول مثلاً: أريد بلوزة كالمعروضة في الواجهة مقاس ١٤ وبأكمام قصيرة، ويمضي البائع مهرولاً ببلوزة مقاس ١٤ ولكن بأكمام طويلة، وتكرر العميلة العملية تقول "أكمام قصيرة" ويعود البائع لإستحضار طلبها وهي واقفة تنتظر .

إن مثل هذه الحوادث البسيطة تكلف المتجر أموالاً لا يمكن توفيرها، فهناك جهد لا فائدة منه يبذله العامل، وتقليب لا داعي له في البضاعة، وأهم من هذا كله شعور العميل بالضيق، وهذا ما يجعلنا نؤكد للبائع أثناء التدريب قولنا له "أحسن الإنصات قبل أن تتصرف" .

ويقول الدكتور رالف المكلف ببرامج فن الإنصات أن الإنصات في الواقع ملكة عقلية يمكن تنميتها عن طريق التدريب والممارسة وقد ثبت أن كل الطلبة الذين تلقوا هذه البرامج زادت أمامهم فرص النجاح في حياتهم العملية بنسبة ٢٥٪ ان عملية الإنصات تحتاج إلى أكثر من مجرد ترك الموجات الصوتية تصل إلى أذنيك تماماً، كما إن عملية القراءة ليست مجرد النظر إلى الكلمات، إن حسن الإنصات يستلزم نشاطاً عقلياً ولكن هناك في طريق هذا النشاط بعض العقبات، ومن بين هذه العقبات أننا نفكر بأسرع ما نتكلم، فمعدل سرعة الكلام، للشخص العادي ١٢٥ كلمة في الدقيقة، ونحن نفكر بسرعة تبلغ أربعة أضعاف سرعة الكلام، وهذا يعني أنه في خلال الدقيقة التي ننصت فيها إلى أحد يكون لدينا وقت فراغ يكفي للتفكير في أربعمائة كلمة، فإذا كنا لا نحسن الإصغاء، فإننا نصبح على مر الأيام ضيقي الصدور عند سماع الأحاديث، وهكذا تتحول أفكارنا عن

الإنصات لحظة، ثم تعود إلى المتحدث، ويكون في تلك الثواني قد سبقنا بمراحل فيصعب علينا اللحاق به، وهكذا يسهل على أفكارنا أن تعود إلى الشرود مرة أخرى .

والمستمع الجيد يستغل سرعة التفكير في عملية الإنصات وذلك بأن يكرس الوقت الزائد من تفكيره في استيعاب ما يقال له وغربلته وأيضا الإنتباه لتغيير نبرة الصوت وتعبيرات الوجه وحركات اليد واهتزاز الجسم فكلها كلمات صامتة بالإضافة إلى الكلام المنطوق، ومهما كان شعورك نحو المتحدث فلابد أنك ستعرف شيئاً جديداً أو مفيداً على نحو ما، أن التركيز هو أكثر من نصف المعركة كما يقال، ولهذا نجد ضعاف الإنصات يميلون إلى الشرود بأذهانهم أما المنصت الجيد فهو يقاوم الشرود ويقترب من المتحدث ولا يقاطعه إلا مضطراً لكي يفهم نقطة ما قبل أن ينتقل إلى نقطة أخرى، ومن بين الأسباب التي تستدعي حسن الإستماع إلى ما يقال لك أن تكون ببساطة حسن الذوق، مجاملاً، وسوف تظفر بكثير من المعلومات، بالإضافة إلى أن الناس سينصتون إليك عندما تتحدث لأنك لابد ستكون قد تعلمت الكثير، وأصبحت بحسن إصغائك متحدثاً لبقاً يحب الناس الإنصات إليه! .

إن التركيز على ما يقوله الطرف الآخر "شريكك في الحياة يساعدك على فهمه أكثر، وعندما تصغي إليه بكل جوارحك بدلاً من الإنسحاب إلى الداخل للإستعداد للهجوم عليه بكلمات وحجج قوية يكسبك نصف المعركة وربما كلها!! فقد يكون مخطئاً دون أن تدري وقد تكون له وجهة نظر لم يحسن الحديث عنها، وبتركه يسهب في الحديث عنها ستتضح لك الصورة وقد يوقعه اندفاعه في الكلام دون مقاطعة في كشف ضعف حججه

إذا كان مخطئاً فتستطيع بعد ذلك أن توضح له الخطأ الذي اعترف به للتو!!

في مقتبل العمر يظن كثيرون أن النجاح في الحياة الإجتماعية يتوقف على المقدرة على الحديث المتواصل والإعتراض على ما يقال والإختلاف حوله، ويعتقدون بصورة لا تقبل الجدل أن الشخص الاجتماعي هو الذي لا يكف عن الثرثرة والتعليق والتباهي بمعلوماته وذكرياته ونوادره وأنه بذلك يترك انطباعاً حسناً ويحوز على الرضا والقبول.. الجميع باستثناء قلة نادرة يتوهمون أنهم يصغون جيداً، في حين أن معظمهم يتكلمون بمعدل ١٢٠ إلى ١٨٠ كلمة في الدقيقة، ويفكرون بمعدل أربعة أو خمسة أضعاف ذلك، أي أنهم عندما يكفون عن الكلام يسرحون بعيداً بأفكارهم. ومعظم الناس كذلك يستمعون للشق الأول من حديثك ولا ينتبهون للباقي، وهذا يحدث في عيادات الأطباء وفي المتاجر وفي المجالس الخاصة وفي العمل، وحتى بين أفراد الأسرة الواحدة، وأغلب هؤلاء لا يجدون حرجاً في تجاهل محدثيهم والإنشغال المفتعل بإدارة قرص الهاتف أو بتصفح مجلة أو تقليب بعض الأوراق أو شرب الشاي في حين لو وضعوا أنفسهم موضع محدثيهم لأدركوا إلى أي مدى يتنافى هذا التصرف مع الذوق العام.

ولكن كيف يمكننا أن نحسن مقدرتنا على الإصغاء؟ .

أجمع خبراء علم النفس والإستشاريون في مشكلات الزواج والطلاق وشؤون العائلة على نقاط عدة أهمها: وتكرر التدريب على حسن الإصغاء بالكف عن التلهي بمشاغل يمكن إرجاؤها، والنظر إلى المتحدث مباشرة وتشجيعه بإيماءة أو إشارة يد والتركيز على ما يقال.

والأطباء النفسيون يحذرون من صعوبة إعادة الثقة في النفس لأشخاص نشأوا في محيط لا يصغى فيه ذووهم إليهم أو بعضهم لبعض، وفي معظم

الأحيان تنقطع الصلات الإنسانية لعدم وجود المصغين وكثرة المتحدثين. يقول مستشار مشهور وناجح في الشؤون العائلية: إنني في الواقع لا أعمل كثيراً لإعادة الأمور إلى مجاريها بين أفراد العائلة، وجل ما أفعله هو أن أهيئ الفرصة لكل منهم لكي يتكلم بدوره، بينما أشترط على الآخرين عدم مقاطعته، وغالباً ما تكون المرة الأولى خلال السنوات التي أمكنهم الإصغاء فيها لبعضهم البعض. الإصغاء الجيد دليل اهتمام ومحبة، وهو عمل لا يكلف كثيراً ومردوده رائع، إذ يكفي أنه يبعد العزلة، ويجرد المرء من الأنانية، ويحيط من يطبقه في حياته بدفء المحبة والصداقة الخالصة ويجعله محبوباً ومرغوباً في كل زمان ومكان. لماذا يتحرج الأزواج من الإعتراف بمشاعر الود لشركائهم في حين يكونوا أكثر سخاءً في ترديد عبارات الحب قبل الزواج؟ ما الذي يجعل الكلمات العذبة تتوقف عند طرف اللسان في حين تندفع الكلمات الجارحة أو الجافة دون تروٍ؟

لماذا ما تزال المواريث القديمة التي ترى في التعبير عن الحب بالكلمة أو باللمسة انتقاصاً من كبرياء المرء وقدره؟

إن الطبيعة لا تخجل من إعلان حبها للبشرية جمعاء بتفتح الورود واخضرار العشب ولمعان الرمال حين تنسكب فوقها أشعة الشمس الذهبية، وبارتطام أمواج البحر بالصخور في موسيقى منغمة، وبشدو العصافير في الصباحات الباكرة وقطرات الندى تلمع فوق أوراق الشجر إنك لا تملك أمام آلاف الأشياء الجميلة التي تغدقها علينا الطبيعة الأم إلا أن تهتف: يا الله!! وتفتح ذراعيك وقلبك لتحتضن هذا الجمال ولا تملك أمام هذا العطاء إلا أن تحب.. تحب الصيف والشتاء والخريف والربيع، فكل فصل يحوي من المتع والجمال الكثير، وأمام الحب لا تملك إلا أن تحب، لكن معظم الأزواج وممن

يملكون قلوباً مفعمة بالحب لكل الأشياء الجميلة لا يجدون الجرأة لإظهار عاطفتهم لزوجات يتلهفن لسماع كلمات الإطراء والغزل فما إن يغلقوا أبواب منازلهم خلفهم حتى تتحول الرقة إلى أوامر: هل الغذاء جاهر؟ أين وضعت الجرائد؟ لا أريد إزعاجاً.. أيقظيني في الساعة الخامسة، أحضري لي كوب ماء.. لا رغبة لي في الحديث، أنا متعب وأريد أن أنام، وتظل الزوجة تدور وتدور كفراشة حائرة تشتاق لرحيق العسل لا لمرارة الروتين والتجاهل .

ويقول "دايل كارنجي" لو يدري الأزواج إلى أي مدى قد تؤثر كلمات الحب في حياتهم الزوجية لرددوا هذه الكلمات صباحاً ومساءً، إن للكلمة اللطيفة وقع السحر في النفوس فهي تذهب البغضاء وتذيب حواجز الكره والنفور وتقرب المسافات البعيدة وهي مع ذلك لا تكلف شيئاً ولا تنقص رصيد العواطف، ويبدو أن كبرياء الذكور المزعومة وعلى مر العصور تحول بينهم وبين السعادة المرتجاه، وتلطيف الأجواء الزوجية بنسيم الحب، وقبل ستين عاماً اعترف الأديب الراحل عبد القادر المازني بهذه الحقيقة فقال: لم أسمع ولم أر في طفولتي كلمة أو إيماءة أو نظرة تشي بالحب بين أمي وأبي وكان يخيل لي أن العلاقة بينهما قوامها الإحترام المتبادل أكثر مما كان قوامها الحب.. ومات أبي وأنا صغير وخلف لي أمي، فحزنت عليه اثنتين وثلاثين سنة لم تخلع فيها السواد يوماً واحداً، وقد يكون هذا من الإكبار لا الحب.. وأسألها في كهولتها "ماذا كنت تحبين في هذا الرجل المزواج المتعب الذي لم أسمعه يقول لك كلمة حب، وجعل حياتك معه جحيماً فائراً بالغيرة؟ فكانت تؤخذ علي حين غرة وتقول قبل أن تفكر: إنك لا تساوي الظفر الذي كان المقص يطيره من أصبعه، وتراني ابتسم فتدرك أنها اعترفت

فتغضب أو تتكلف الغضب، وأحياناً تطردني من مجلسها وهي تجاهد ويأبى وجهها إلا أن يضحك وتقول لي: طيب قم، كفى قلة حيا، كلا لم يكن للحب ذكر في بيتنا ولم أسمعه إلا على لسان جدي عندما قارب المائة وجدتي عندما ناهزت الثمانين، وكانا قد ردهما الهرم إلى مثل حال الطفولة وسذاجتها فصارا يتناجيان ولا يعبأن بحكم الآخرين، الحنو وعذوبة الصوت والذوبان وحلاوة اللمعة في العين التي انطفأ نورها أو كاد.. واضطراب الشفتين إذ يقول الشيخ برقه "حبيبتي.. هل تذكرين ما وقع ياحاجة.. فتهز رأسها المصبوع بالحناء، ويفتر ثغرها... ويومض السرور في عينيها، ويشرق وجهها وتقول: إيـ يـ يـه، ممطوطة طويلة، ولكنها آية الرضى والحمد لله والإغتباط بجمال الذكرى والإمتنان لأنه يسبق كلامه بقوله: حبيبتي.. وأحس بفرحة غريبة على هذين الوجهين اللذين غضنتهما الأعوام فأرتمي على جدتي وأطوقها وأقبلها وألح عليها أن تجاهد ضعفها وتقبل جدي فتطيعني وتهوى على خده بفمها الفارغ فيكون لقبلتها صوت غريب فأضحك وأضحك".

ويكمل الأديب عبدالقادر المازني مسيرة الأزواج في كل زمان ومكان فيقول: وأنا الآن رجل، ولي زوجة وبنون، وأنا إبن هذا الزمن، لا ذاك الذي عاش فيه أبي وجدي من قبله، ومع ذلك أراني أستحي أن أقول لزوجتي إني أحبها فلا يليق بي أن أقول ذلك ولها هؤلاء الأولاد، وأحس أن زمن الكلام في ذلك قد فات.... وهو لم يفت في الحقيقة..... فلافرق بيني وبين أبي وإن كان بين زمنينا كل فرق، وما زلنا نحس اللجام على أشداقنا والأعنة الخفية التي تصدنا وتوجهنا وجهة غير التي تدفعنا إليها عواطفنا.. وما أعرف أني استطعت قط أن أقول لزوجتي إني أحبها بالغاً ما بلغ جنوني بها،

فإذا شق على الكبح ونازعتني نفسي إلى أن أقول، قلت، ولكن مازحاً أو متظاهراً بالمزاح متصنعاً له لأشككها، ولأني أستحي أن أنطق باللفظ، أو على الأصح لأني أشعر أني إذا قلت الكلمة فقد صرت عبدها - أعني عبداً للكلمة - وإنها تتخذ مني حصاناً تركض به وأنا من لا أطيق أن أحس بقيد ما، ولو كان من حرير، فلجامي أشده وأصرفه كما يتراءى لي، فإذا شعرت بأن يداً أخرى تريد أن تقبض على الزمام طار عقلي وفقدت اتزاني وركبت رأسي، وأكون واثقاً أن هذا خطأ وأنه عناد صبياني.. لكني مع هذا لن أقول لها أحبك ..

ويبدو والله أعلم أن هذا الأديب رحل عن دنيانا دون أن يبوح لأقرب الناس إليه، المرأة التي شاركته أفراحه وأحزانه، بحبه لها، وأذكر أن صديقة سألتني وهي في حيرة حقيقية عن وسيلة تمكنها من تعريف زوجها - وهو إبن خالتها بالمناسبة - بحبها له، وإبن خالتها هذا عاش مغترباً تسع سنوات، وكانت هي تكتم هواها في صدرها سنوات عديدة، ولما عاد واختارها زوجة كادت تطير فرحاً، ومر عامان على زواجهما دون أن تبوح له بالحب الذي يخفق في صدرها، ودون أن يصرح لها هو بحبه أو بإعجابه أو على الأقل بالسبب الذي دفعه لإختيارها بالذات مع أن في الأسرة عشرات الفتيات وكلهن يفقنها جمالاً وعلماً، عامان مرا من حياتهما بهدوء، لم يواجها أية مشاكل، وكان الإحترام يسود علاقتهما، ويشع الرضى على وجه زوجها وتترجم هي حبها بمزيد من العطاء والتفاني.. لكنها كما تقول سعادة ناقصة.. سعادة لا تستطيع أن تعبر عنها لحبيبها وزوجها بالكلمات، ونصحتها إذا ما طال صمت العواطف أن تردد أغنية أسمهان كلما كان متواجداً في المنزل، الأغنية التي تقول كلماتها "إمتى حتعرف إمتى إني

باحبك أنت!! ولا أدري هل عملت بالنصيحة الساذجة أم لا.. وعلى أية حال فالحب أغنية لا يمل الإنسان سماعها، وليست كالأغنية الشبابية التي تشبه فقاقيع الصابون، أغنية جديدها قديم وقديمها جديد، الحب أغنية تجعل للحياة معنى وللوجود معاني!! هناك الكثير من الكتب والمجلات التي تحتوي على مجموعة إرشادات كتبت بقلم آباء وأمهات بغرض النصح لكل فتاة مقبلة على الزواج، وتتضمن هذه الإرشادات المقولة القديمة التي تقول إن الطريق إلى قلب الرجل يكون عن طريق معدته، أي كلما كانت الزوجة ماهرة في إعداد الطعام كانت قادرة على الإحتفاظ بزوجها، فالمطاعم الآن تقوم بهذا الدور كأحسن ما يكون، ولم يحدث قط أن عاش أي زوج سعيداً مع زوجته فقط لأنها تجيد الطبخ، هناك أمور كثيرة وأكثر أهمية من هذه المهارة المنزلية تحقق الإستقرار والسعادة الزوجية، وها هو أحد الآباء يحدثنا عن هذه الأمور في رسالة نشرت في مجلة قديمة فيقول: عليك قبل كل شيء يا "جين" أن تجعلي زوجك يشعر بأنك تحبينه، وقد تكون النظرة البادية على وجهك عندما يعود زوجك من عمله أو عندما يذهب لأصطحابك من عملك هي أهم تعبير في زواجك، فإذا رأى فيها نفس النظرة الراضية المرحة التي تبدو عليك عندما تزورك صديقاتك أو أحداً من أهلك فسيحس أنه محبوب، وسيحبك من أجل ذلك، وإذا استطعت أن تستريحي من عملك بعض الوقت فشاركيه بعض الحديث، ولديك دائماً وقت للتحدث معه في التليفون. أما إذا كنت مشغولة جداً لأنك زوجة صالحة حتى إنك لا تجدين وقتاً تصبحين فيه صديقة له، فإن زوجك سيشعر أنه غير مهم بالنسبة لك، هناك نساء يحببن أزواجهن ويضطلعن بكل المسؤولية بأمانة وإخلاص وعلى الرغم من ذلك فأن أزواجهم ليسوا سعداء، لأنهم لا يشعرون بأنهم محبوبون .

أما الوجه الآخر من هذه العملية فهو أن تظهري لزوجك أن حبه لك
يء هام تسعين للحصول عليه، فليس هناك ما يبعث الأنانية في نفس
رجل أكثر من أن يعرف أن المرأة التي يحبها تريد مصادقته، إنه يشعر سواء
ن حق أو عن خطأ أن رأيه فيك هو أهم ما يجب أن يعنيك، وهناك منطقة
خرى حساسة يابنتي، كوني حريصة عندما تتحدثي معه عن عمله، ولكن
ذا قلت مرة إنك تخجلين من عمله الذي يرتزق منه، فستكونين كمن
بحث عن المتاعب، وفوق كل ذلك لا تقارنيه بأحد، تحملي الإصغاء إلى
حديث زوجك عن عمله عندما يعود إلى المنزل قد يكون هذا واجباً ثقيلاً
لكن زوجك قد يقيس اهتمامك به بحسن إصغائك له، وقد يكون عليك
عندما تتزوجين وتصبحين ربة منزل أن تتخلي عن بعض الأعمال أو المطامع
إذا لم تستطيعي التخلي عنها تماماً، فلا تتزوجي، ويمكنك أن تسمعي
غالباً في إجتماعات النساء المتزوجات إلى الشكوى والندم على الحياة
لعملية الرائعة التي ضحين بها في سبيل أن يصبحن زوجات، فإذا كنت
ستشعرين بمثل هذا الإحساس وتجعلين زوجك يشعر أنه مذنب لأنه حرم
لعالم من موهبة عظيمة فلا تتزوجي.

إن الرجل ينظر إلى زوجته بحسبانها الشخص الذي سيدبر له شؤون
منزله، ويرعى حاجات الأسرة ويمده بالحب والزمالة والمشاركة، ولاشك أن
هناك بعض الظروف التي يستطيع بها الرجل وزوجته أن يعملا معاً دون أن
يفقدا السعادة فإذا كانت هذه هي الحالة في زواجك، فأنعم بها، وهناك
أشياء كثيرة يعدها الرجال مهمة، في حين أنها تبدو تافهة للنساء، فسيكون
عليك مثلاً أن تتعلمي متى يكون زوجك هادئاً أو ثائراً، وقد يكون غير
غاضب عليك إلى أن تسأليه لماذا هو غاضب، وسوف تتساءلين أحياناً عما

إذا كان في استطاعتك أن تجعليه سعيداً وأحياناً أخرى ما إذا كان يستحق الجهد الذي تبذلينه من أجله، ومهما يكن ظنك فيه فإنك قادرة على الإحتفاظ به إذا استطعت أن تكسبي صداقته وإذا شعر أنك الصديقة الوحيدة التي لن تغدر به ولن تتخلي عنه مهما كان سيئاً!! .

وفي النهاية هذه نصيحة رجل ربما لم تتوافر له كل هذه الأشياء في حياته الزوجية ويتمنى أن تطبقها إبنته وبنات الآخرين من أجل إسعاد أبناء جنسه، وكلها نصائح مفيدة وقيمة ولا يمكن الإعتراض عليها، لكن السعادة الزوجية لا تستقيم بمحاولات طرف واحد، لذا. "وهذه جملة اعتراضية" . من الأفضل أن تكون هذه النصيحة للإثنين معاً الزوج.. والزوجة. هناك خيط رفيع بين الجدل الهادئ والنقار الصاخب، بين الإنتقاد الجارح والشجار الذي يهدف إلى تسوية. بين المناكفة التي تهدد الإستمرار والحوار الذي يدعم الإستقرار العائلي. إن النقار والمناكفة والإنتقادات بداع ودون داع عوامل تقوض أركان كل زواج، وحين يلجأ الشريك إلى الصراخ وتصيد الهفوات والمبالغة في إظهارها والحط من قيمة شريكه فإنه لا يهدف إلى تقويم الشريك، كما يدعي أو كما يظن بل يهدف إلى إعلاء ذاته على حساب غيره.

زوجة شابة اعتادت تأنيب زوجها وإبداء الملاحظات الجارحة يومياً ودون كلل، وعندما لاح شبح الفراق أمامها، واتضح لها أن زوجها يفكر في الإنفصال عنها، اختلت بنفسها ولأول مرة بدأت تفكر في الأسباب التي تدفعها لمحاسبة زوجها على كل كبيرة وصغيرة، ورأت في أعماقها طفلة يتيمة نشأت عند أخوالها وعانت كثيراً من جفائهم وتعنتهم وانتقاداتهم التي كان ظاهرها الحب وباطنها السيطرة والإذلال.. لا تأكلي بهذه الطريقة

المفجوعة، لا تمشي هكذا كالبلهاء. لا تتكلمي كالمعتوهة.. لا تفعلي هذا ياغبية.. لا تتذكر في طفولتها وبعد بلوغها وحتى زواجها كلمة استحسان واحدة، رغم أنها كانت تبذل كل جهدها لإرضائهم، واتضح لها وهي تستعيد صور الماضي القاتمة أنها تمارس الأسلوب نفسه مع شريكها الطيب، وأن هناك قوة خفية تدفعها دفعاً للنقار وكأنها بهذا النقار تعيد تشكيل شخصيتها التي تبعثرت وتشوهت في الطفولة!! وكان لديها الشجاعة بعد هذا الإكتشاف لمصارحة الزوج وطلب المساعدة منه للتخلص من هذه التراكمات التي تهدد حياتهما معا!! .

ويؤكد علماء النفس أن الإنسان الذي يبحث عن أخطاء الآخرين ويحاول تضخيمها، لا يقصد إطلاقاً محاولة تقويم هؤلاء الناس، وإنما يقصد بشكل مباشر أو غير مباشر الإعلاء من قيمة ذاته، وإظهار شخصيته كأفضل ما تكون!! .

ولأن الزواج كما يقول أحد الباحثين علاقة متينة ورابطة وثيقة.. فالهفوات الصغيرة التي قد تحدث بين صديق وصديق أو بين زميل وزميلة وتمر مرور الكرام دون أن تعكر صفو الزمالة أو الصداقة تصبح لدى الزوجين شيئاً كبيراً لا يمكن السكوت عنه أو نسيانه، فالزوج الذي لا يستطيع التكيف ضمن إطار الزوجية الذي يضمه وشخصاً آخر سيجد نفسه مندفعاً لتغيير هذا الشخص الملتصق به، والزوجة التي لا تقدر أن تلائم بين نفسها وحياتها الزوجية قد تسعى إلى محاولة صب زوجها في قالبها نفسه، وهذا التغيير مستحيل كما ذكرت سابقاً لأن لكل طرف شخصيته التي سيتمسك بها حتى ولو لم يكن فخوراً بها أو راضياً عنها، وحين يكون النقد لاذعاً والتعليقات الساخرة مستمرة تصبح المواجهة غاية في الصعوبة،

ويبدو الفرار من حياة كلها نكد في نكد أمراً لا مفر منه.

وأثبتت الإحصاءات التي جمعت من مختلف بلاد العالم أن نسبة كبيرة من النقار الذي يؤدي إلى تصدع جدران الزواج ومن ثم انهياره يرجع إلى المشكلات المادية التي قد تتعرض لها الأسرة، والأسلوب المتبع في عملية الإنفاق، ويرى علماء النفس أن الحل الأمثل لهذا الموضوع أن يتم الإنفاق باتفاق الطرفين ورضاهما، لا بالقهر والعنف والتهديد.

وإذا كان من الصحيح أن للمشكلات المادية أثراً كبيراً في الخلافات الزوجية، فإن كثيراً من القائمين على الدراسات والأبحاث المتعلقة بالزواج يلفتون النظر إلى ظاهرة هامة ينبغي أن تكون محط الأنظار، وهي إن الخلافات المادية قد تكون سبباً ظاهرياً فقط للخلافات التي تقع بين الزوجين.. فهناك أسباب معينة قد لا يستطيع الزوج أو الزوجة أن يبوح بها أو يكتشفها في داخله، فتصبح المتاعب المالية الشماعة التي يعلق عليها مشاكله الخاصة، وأهم هذه الأسباب الكامنة الإحساس بالنقص.. فإذا كان الزوج موظفاً بسيطاً وزوجته أعلى منه مركزاً فإن الزوج يتخذ من نقاره معها حول أتفه الأمور ذريعة للنيل والحط من مستواها، وإذا كانت الزوجة ربة بيت والزوج من ذوي الدخل المحدود فقد تدفعه عقد قديمة لمعايرتها بأنها لا تعمل ولا تساهم معه في الإنفاق.. ومن الممكن أن تشعر الزوجة بعقدة النقص نتيجة سيطرة أب أو تعسف أخ أو ظلم وقع عليها في طفولتها فتمارس الأساليب نفسها التي عانت منها، مع زوجها، وكانت لي صديقة في المدرسة أتاحت لي معرفتها التردد على منزلها عدة مرات، ورأيت كيف كان أخوتها الذكور يعاملونها، كانوا يتعمدون إهانتها حتى أمام الغرباء، وكان وضعها أسوأ من أن يوصف لدرجة أنني كنت أصاب بحالة اكتئاب

كلما زرتها بناءً على إلحاحها، إذ لم يكن مسموحاً لها بالخروج إلا للمدرسة، وكان عليها أن تعمل على خدمة اخوتها ليلاً ونهاراً وكانوا يكافئونها على خدمتها بالضرب والركل والتعنيف، ويفتشون حقيبتها علهم يجدون أية مأخذ يتيح لهم ممارسة ساديتهم أكثر وأكثر، وكانوا يرفضون كل المتقدمين للزواج منها بحجج واهية، ونتيجة لهذا القهر أُصيبت بمرض عضوي غامض وانقطعت عن الدراسة وانقطعت علاقتي بها، ومنذ أعوام قليلة خابرتني ودعتني لزيارتها ووصل ما انقطع بيننا، وعاودني الإحساس القديم بالكآبة حالما استقر بي المقام في زيارتي الأولى والأخيرة أيضاً، كان منزلها نظيفاً وجميلاً، وطفلاها في غاية الجمال وان كان الجمود وتصنع الإنضباط يفسدان تلقائية الطفولة وبراءتها.

بعد دقائق من جلوسنا أحضرت الطفلة التي لم تتجاوز التاسعة من عمرها صينية الشاي ووضعتها أمامي وفجأة صرخت الأم: ألم أقل لك قصي أظافرك أيتها القذرة!! وأسرعت الفتاة الصغيرة بالفرار، وخيل اليّ أنني لمحت نظرة حقد خاطفة في عينيها، وعادت الصديقة القديمة لحديث الذكريات وكأن شيئاً لم يحدث والطفل قابع في الركن يعبث بطرف ثوبه بملل وضيق، وبعد نصف ساعة أو أقل رفعت سماعة الهاتف وأدارت رقماً وسمعتها تقول: يا سلام! ألم تغادر المكتب بعد؟ هل نسيت ما أوصيتك به، طبعاً لازم تنسى، طول عمرك فاقد! وتشاغلت عن الإستماع إلى سلسلة الإنتقادات اللاذعة بمحادثة الصغير الذي كان منتبهاً لما تقوله أمه لوالده.. ولم أستغرب بعد تلك الزيارة خبر طلاقها واختيار أطفالها العيش مع والدهم!!

الخطأ الذي وقعت فيه تلك الصديقة القديمة إنها لم تفتح أبواب الماضي

في أعماقها وتتخلص مما بداخلها من عقد قبل أن تشرع أبواب الحاضر والمستقبل، لقد انتقمت لنفسها من نفسها!

وسبب آخر من أسباب النقار يطلق عليه علماء النفس "عقدة الرومانسية" وهذه العقدة تؤكدها الروايات الحالمة التي يقبل عليها الشباب المتعطش للحب، لاغياً كل منطق ومعقول، متأثراً بقصص الغرام التي يشاهدها في التلفزيون، وبالأغاني العاطفية التي تصور الحب والمحبين في أحلى الصور وفي منتهى السعادة، ولابد بعد ذلك من أن يصابوا بخيبة أمل.. لأن الزواج واقع وليس حلماً أو خيالاً، الحياة الزوجية فيها حب ولكن إلى جوار أشياء أخرى لم يفكر فيها المحبون من قبل.. فهناك العمل الدؤوب لتوفير عيشة كريمة وفيها ترتيب المنزل أو غسيل الملابس، وإعداد الطعام وإنجاب الأطفال والسهر على راحتهم، وفيها الواجبات الإجتماعية، والتسوق يومياً أو أسبوعياً وأشياء أخرى.. والزواج الذي يقوم على الحب وحده لا يستمر طويلاً، وحتى قيس بن الملوح والذي يضرب به المثل في العشق والجنون لو قدر له الزواج من ليلى لأعاد التفكير في هواه، وقال شعراً مختلفاً، فيه واقعية أكثر!!

ولهذا فإن أي زواج يبنى على الخيال لابد أن يلجأ طرفاه للعراك والنقار والمناكفة، ويحمل كل طرف الآخر مسؤولية ضياع الحب، ويؤكد كثير من المتخصصين في شؤون الأسرة أن عدم تلاؤم العلاقات الزوجية بين الزوجين يعتبر من الأسباب الرئيسية في ظاهرة النقار، فالتآلف الكامل في الزواج، يعتمد على مدى التآلف السليم في العلاقات الزوجية بين الزوجين، فكثيراً ما تتحطم علاقات على صخرة العلاقة الزوجية التي لا ترضي الطرفين كليهما، فالزوج أو الزوجة الذي يجرد العلاقة الجسدية من الحب والرقة

صبح مناكفاً إلى أبعد حد ويكون نقده المتصل لشريكه نوعاً من التنفيس ن خيبة أمله وتعاسته، وللملل أيضاً دور في خلق التشاحن، فالشعور لذي يعتري ربات البيوت من تناقص أهمية دورهن في محيط الأسرة بدفعهن للتذمر واختلاق المشاكل، فمع وجود الخدم وتطور التكنولوجيا لحديثة التي توفر الوقت والجهد، تقلص دور ربة البيت، وأصبح لديها وقت راغ طويل تبتكر خلاله إن لمن تكن واعية لمشكلتها أحدث الوسائل لتطفيش" الزوج، كما أن الزوج أيضاً قد يشعر بالملل إذا استكان للروتين ليومي.. العودة من العمل.. قراءة الصحف بعد الغذاء.. الغفوة ثم لإستيقاظ وشرب الشاي والخروج للسهر مع أصحابه.. ويصبح غريباً وسط سرته مهما كان متواجداً بجسده، وهذه الغربة قد تحوله إلى مناكف يتصيد لأخطاء ويضخمها متوهماً أنه يصحح الأوضاع المغلوطة في حين إنه يزيد الأمر سوءاً دون أن يدري!! وليس مطلوباً بالطبع أن يتحول الزوج إلى إنسان سلبي يغض الطرف عن الأخطاء التي قد تحدث في محيط الأسرة، وليس مطلوباً أن تتفرج الزوجة على عيوب زوجها وترفع شعار السلامة بلا مبالاتها. جميل جداً أن يحاول كل طرف تصحيح المسارات المعوجة، ولكن ليس مطلوباً أبداً أن نحول أيامنا وليالينا إلى محاكمات واتهامات وانتقادات لا تنتهي!! فاللامبالاة شيء مرفوض، والإنسان بصفة عامة - زوجاً كان أو زوجة - يرحب بالشريك الذي يسدي إليه النصيحة الخالصة والمقترحات البناءة والمشاركة في الرأي والقرار.. لكن النقد الجارح للمشاعر، المثير للسخط ما نرفضه جميعاً في كل أنواع العلاقات، فهذا النوع من النقد يقتل الحب والإحترام ويهدم البيوت!!

كما أن السخط والتبرم الزائد عن الحد والشكوى من لا شيء ومن كل

شيء سلوكيات تدفع الناس إلى الهرب من صاحبها والنفور منه، وإذا كان الآخرون يملكون حرية الإنعتاق من معاشرة هذا النوع من البشر، وإشعاره بشكل أو بآخر بأن مجالسته همّ ثقيل هم في غنى عنه، فإن الأمر يصبح جحيماً حقيقياً إذا قدر لأحدنا الإبتلاء بشريك من هذا النوع، وكما يقول "المتنبي" : ومن نكد الدنيا على المرء أن يرى عدواً له ما من صداقته بدُّ ولكن هل يمكن لأي إنسان عاقل – رجلاً كان أو إمرأة – أن يرتبط بشريك نكدي، ثم يزهد في الحياة معه، ويصرخ طالباً الإنفكاك عنه؟ قد يقول الزوج قبل الزواج لم تكن كذلك.

وقد تقول زوجة: لقد انقلب حاله مؤخراً، وهذه الأقاويل غير صحيحة، فالشخصية المتبرمة واضحة الملامح، ويمكن الإستدلال عليها دون جهد فصاحبها ساخط دائماً، ناقم في كل الأحوال وعلى كل الأوضاع، يضخم الأمور، وهو أيضاً شخص ثقيل الظل، وجهه لا يعرف المرح أو الإبتسام، سريع الإستثارة والغضب، ومهما قدمت له من خدمات ومهما فعلت من أجله فإنه لا يقدر ذلك، ولا يحفظ المعروف أبداً، وهذه الشخصية ناقلة للعدوى فهي تنقل أعراض القلق والتبرم إلى المحيطين بها وتصبغهم بصبغتها، وهذه الشخصية المرفوضة نتاج ظروف أسرية معينة تعرضت لها أثناء طفولتها .

ويقول الدكتور "خالد الطحان" رئيس قسم علم النفس بجامعة الإمارات: هناك طفل ينشأ في أسرة يكون فيها طموح الوالدين كبيراً بحيث يطالبان الطفل بأعمال معينة لا تتناسب مع عمره وطاقاته سواء كان ذلك في التحصيل الدراسي أم في غيره، ويترتب على هذا الموقف إحساس الطفل بأنه مقصر، وقد يتولد لديه شعور بالنقص مما يجعله في أغلب

لأحيان سريع الغضب بسبب مشاعر الإحباط التي يعاني منها، وعامل آخر عام يشير إليه الدكتور الطحان وهو أسلوب تربية الطفل، فبعض الآباء يتعامل مع طفله بقسوة، ويتبع معه أسلوب السيطرة، وينتج عن هذه لمعاملة في معظم الأحيان شخصية خائفة.. مترددة.. قلقة.. وهذه المشاعر لسلبية قد تصبح بالتدريج إحدى السمات الرئيسية عند الطفل، وعدم حساسه بالأمان يجعله عصبياً وضيق الصدر.

والطفل كما نعرف جميعاً مشروع لزوج أو زوجة المستقبل، وعندما ينمو هذا الطفل المريض ويصبح شخصاً ناضجاً ويكون أسرة، ينقل احباطاته معه، ويكون مصدراً دائماً لإزعاج من حوله، والتشاجر مع رفيق - أو رفيقة - حياته وأولاده الذين لا ينجون أيضاً من مشاعر السخط والتبرم فيكبرون وهم ناقمون على من حولهم أي أنهم يصبحون مثل والدهم.

والمأساة أن أسرة ممتدة جيلاً بعد جيل تعطلها الكآبة عن الإنتاج الفعال وأداء وظيفتها في المجتمع .

ودرج رجل في الأربعينات يبدو ناضجاً ومتزناً في الظاهر على غرس الكره والحقد في نفوس صغاره وتقليله من شأن الآخرين والتعريض بأقاربهم أمامهم.. خالتكم حقيرة لأنها كذا وكذا.. عمكم بخيل وجنى ثروة من المال الحرام، جارنا سفيه وتافه.. إلى آخر هذه المفردات البائسة اليومية، حتى والدتهم لم تسلم من تحقيره وغضبه، طفلته التي تبلغ العاشرة من العمر أدركت عمق الهوة التي حفرها والدها تحت أقدامهم بجهله فقالت: والدي لا يحب أحداً وحتى لا يحب نفسه، وأخشى أن نصبح مثله .

وهذا الرجل كان منبوذاً عندما كان طفلاً، شاء سوء حظه أن يولد توأماً مع شقيق في غاية الجمال وكان نصيبه هو من الجمال معدوماً وإن شئنا الدقة

كان قبيح الشكل والهيئة وكأن التوأم الآخر الذي عاش معه في الظلام تسعة أشهر إمتص كل الحسن، ولما خرج إلى الدنيا أخذ كل الحب، ولم يترك له حتى الفتات، فنشأ مهملاً يرى الجميع يدللون شقيقه ويتباهون به ويفرحون لكل فعل طفولي يقوم به، وهم يعايرونه لقبحه ويسخرون من كل محاولاته لكسب الود والعطف، وتحول يأسه من جذب اهتمامهم إلى ثورة، دفعته إلى النيل منهم بلسانه ويده، فكرهوه أكثر، وأصبحوا يقارنون بينه وبين شقيقه العاقل الوسيم الخفيف الظل علانية وأمام الكل، مما زاده عنفاً في التعبير عن آرائه فيهم وفي الجميع!!

ولكي يشعر بأنه مهم كان عليه أن يقلل من أهمية كل من يلتقي به أو يعاشره من بعيد أو قريب، واقتنع مع مرور السنوات بأهميته الزائفة دون أن يبذل أية جهود حقيقية ليصبح مهماً حقاً.. ولما نبذه الجميع وابتعد عنه الأصدقاء وتحاشاه الزملاء لم يجد أمامه سوى أسرته الصغيرة ينشر فيها جو القلق والنكد والعقد الدفينة!!.

يدعو الكاتب الساخر أحمد بهجت المرأة إلى الحفاظ على مملكتها بزرع الإبتسامة في البيت، ويدعو الرجل إلى زرع البهجة، فالإبتسامة والبهجة هما الجسر القوي المتين الذي يربط بين أي اثنين، ولا يمكن أن تضيق بشخص خفيف الظل يبسط الأمور حتى الصعب منها ويدفعك إلى الضحك أو الإبتسام مهما امتدت الساعات معه، في حين تتحول الدقائق إلى دهور مع شخص ثقيل الظل، متبرم وساخط ولا يعجبه العجب كما يقول المثل، وهذا الشخص النكدي كما يقول الدكتور رفعت أستاذ علم الاجتماع بجامعة الإمارات يعاني من سوء التوافق الشخصي مع البيئة المحيطة به، ومع شريكه في المنزل وسلوك هذه الشخصية يتسم دائماً بالسلبية

والتعالي المبالغ كمحاولة للتستر على ضعف ثقته بنفسه، وهناك أمراض عضوية كثيرة تعيب أصحاب هذه الشخصية المتبرمة، وتساهم في زيادة شعورها بالتبرم .

وأكثر أجهزة الجسم عرضة للمرض عند هؤلاء هو الجهاز الهضمي ويليه القلب، فالجهاز الهضمي يصاب بعسر الهضم، وتكثر الغازات في الإمعاء وتتطور الحالة إلى زيادة إفرازات العصارات الحمضية التي تسبب قرحة المعدة أو الأثنى عشر، كذلك يصاب هؤلاء بالقولون العصبي. . وبالنسبة لأمراض القلب، فإن هذه الفئة معرضة أكثر من غيرها للإصابة بجلطة في القلب، فالقلق والتوتر يتسببان في زيادة هرمونات معينة في الدورة الدموية قد تسبب انقباضاً في شرايين الجسم. . خاصة في أحد الشرايين التاجية مما يسبب جلطة في القلب، كما أن الإنقباض هو أحد العوامل المهمة التي تسبب ارتفاع ضغط الدم، وخفقان القلب وعدم انتظام دقاته. .

وبالنسبة للمرأة هناك أسباب بيولوجية تساهم في زيادة التبرم لديها، ومعروف طبياً أن الهرمونات الموجودة في الجسم لها تأثير على الجهاز العصبي، والأنثى تمر بفترات مختلفة في حياتها تتباين فيها نسب هذه الهرمونات، ففي فترة الطفولة نجد الأنثى مستقرة في مشاعرها إلى حدٍ ما، لأن الهرمونات تكون مستقرة. . ويبدأ التغير عند سن البلوغ، وتلك المرحلة تخضع لنوعين من التغيرات، الأول يتبع النضوج والزيادة المطردة في الهرمونات الأنثوية، والثاني يخضع للتغييرات الشهرية وفقاً لزيادة ونقص هرمون الأنوثة حسب بداية الدورة الشهرية وما يتبعها من تبويض شهري، وأغلب الأزواج لا يقدرون ما ينتاب زوجاتهم من تغيير رغماً عنهن، خاصة في فترة الحمل وما ينتج عنها من ضيق وملل تعجز الزوجات عن شرح

أسبابه لشركائهن، وينأى الشركاء عن زوجاتهم أحياناً لمدة مؤقتة.. أشهر الحمل مثلاً ، وأحياناً إلى الأبد، بعد أن يعتادوا البعاد وتفتر عواطفهم، والتغييرات المرحلية يمكن تجاوزها ببعض الفهم والإدراك، وتشتكي زوجة قائلة: أعترف بأنني عصبية، أثور لأتفه الأسباب، وأريد من زوجي ومن الكل تنفيذ مطالبي في الحال وأي تلكؤ يفقدني اتزاني، وأجدني رغماً عني أنهال عليهم بالتقريع واللوم، بدأت ألاحظ الآن الأهل قبل الأصحاب يتحاشونني.. وزوجي يتجنب النقاش معي ويرهب حتى من محاولتي التقرب منه بالحديث في أوقات صفوي، وهدوء أعصابي، وأعرف أكثر وأكثر أنني لا أطيق هذه العزلة التي يفرضها الجميع عليّ، وأنني كنت السبب فيها، لكنني حائرة لا أدري كيف أغير من طبعي وتصرفاتي، أحاول أن أكون هادئة وأن أسيطر على انفعالاتي، فتبوء كل محاولاتي بالفشل، زوجي بدأ يصرح برغبته في الهجر، وحتى هذا التهديد رغم خوفي منه لم يحل مشكلتي!

والمشكلة في الحقيقية افتقار بلادنا العربية للعيادات النفسية المتخصصة في علاج مثل هذه الحالات التي تنخر في جدار العلاقات الأسرية، وحتى إذا وجدت فإن من المؤكد أنها لن تحتفظ بسرية الأسرار التي سيبوح بها أصحابها للأطباء والمتخصصين في شؤون الأسرة! وهذا وأيم الحق لا يعتبر مشكلة فقط بل مأساة!

وهناك سبع رايات حمراء تهدد الزواج. هذا هو عنوان كتاب للكاتبة والدكتورة في علم النفس "جويس براذرز" وهي بالإضافة إلى درجتها العلمية مشهورة بكتبها ومقالاتها الصحفية وبرامجها الإذاعية والتلفزيونية، وفي كتابها تطرح الكاتبة عدة تساؤلات، ثم تضع الإجابات والحلول

ضمان استمرار الحياة الزوجية، وتحكي جويس قصص بعض مريضاتها قائلة: أدركت لورا أن زواجها في مأزق فزوجها "دون" بات فظاً معها ومع الأولاد، ممضياً معظم أوقاته في المقاهي بعد ساعات العمل، وممارساً رياضة الغولف أو التزلج في عطل نهاية الأسبوع.

كانت لورا تأمل بأن تتغير الأمور في الذكرى السابعة لزواجهما فرتبت للأولاد قضاء ليلتهم عند أحد الأصدقاء وباشرت التحضير للحفل، ولكن خلافاً لتمنياتها عاد «دون» إلى البيت في تلك الليلة وقال للورا: أفضل أن أحتفل بحريتي أريد الإنفصال. جاءت والدة لورا في اليوم التالي. وبعد ما روت لها لورا قصتها المحزنة قالت الأم: هوس السنة السابعة مثل جهل السنة العشرين" وشهقت باكية وأسرت لابنتها بأن بينها وبين زوجها مشكلة مماثلة لقد أخذت لورا ووالدتها على حين غرة لتجاهلهما فترات الراية الحمراء في الحياة الزوجية، وهي سبع تجارب محفوفة بخطر رحيل الزوج. ليس الرجل دائماً من ينشئ علاقات جانبية أو يرحل فنساء كثيرات يفعلن ذلك، ولكن ليس تكراراً كالرجال. في معظم الأحيان يتوق الرجل، كما المرأة إلى نجاح زواجه، وفي حال عجزه عن حل مشاكله قد لا يجد سبيلاً سوى الرحيل. إن الأوقات الفاصلة بين فترات الإجهاد هي الأنسب لتوطيد الروابط الزوجية. فتحسين المشاركة وتعميق الحب يساعدان الأزواج على الإفادة من فترات الراية الحمراء لتقوية علاقاتهم، وتقول جويس إن الراية الحمراء الأولى هي "قلق المسؤولية" وتعرف أحياناً بعبارة "رهاب الطفل الأول، ما يحدث هو أن الزوجين يتحققان من جدية الزواج فيتخليان عن اللهو والمرح اللذين زينا غرامهما وغزلهما، من أجل ضبط الموازنة والتخطيط، ولكن من دون الإستخفاف بدور اللهو في الزواج فاللهو

والضحك يجعلان الزواج أكثر إثارة وملجأ من العمل اليومي، كما يتيح للزوجين التعبير عن أمنياتهما وانتقاداتهما من دون أن يجرح أحدهما شعور الآخر.

غالباً ما تبدأ مرحلة "قلق المسؤولية" إثر تغيير يطرأ على الوضع الراهن مثل خسارة وظيفة، أو ولادة طفل. والحل الأفضل هو تعزيز الإحترام لدى الزوجين.

ويقترح العالمان النفسانيان "دانيل أوليري وهيللاري توركفيتز" بعد دراسة أُجريت في جامعة نيويورك في ستوني بروك، تكريس بعض الوقت للتسليات التي تمتعتما بها قبل حمل المسؤوليات العائلية. حاولا التركيز على النواحي الأكثر بهجة في الحياة اليومية، كما إن تبادل المجاملات التي تعزز المعنويات يشكل شيئاً للإنطلاق.

الراية الحمراء الثانية كما تقول الدكتورة "جويس" هي الضجر والإرهاق في بدء هذه المرحلة. كان زوج لورا ملزماً بطفل جديد ومنزل جديد ووظيفة طالما كرهها من دون التمكن من الإستغناء عنها، وزوجة منشغلة بعملها وأولادها عن الإصغاء إلى مشاكله وإظهار الحنان له أو مشاركته في لعب كرة المضرب، أو حتى محادثته، فما يزعجها هو عدم مشاركته إياها في الأعمال المنزلية، ومثل معظم الشباب هذه الأيام، كان "دون" من مؤيدي مشاركة الزوج في الأعمال المنزلية اليومية، إلا أنه لم يطبق ذلك مثل كثير من الأزواج، وحول الزوجان هذه المسألة إلى معركة ينتصر فيها أحدهما، إلا أن النتيجة أسفرت عن خسارة الإثنين. إحدى الطرق لدفع الرجل إلى مد يد العون هي تفهم استعداده وتشجيعه على القيام بدوره مع الإشارة إلى الواجبات المهمة وتوضيح أسباب ضرورتها.

الراية الحمراء الثالثة هي بداية الإنفصال بدأ "دون ولورا" تدريجاً ومن
ير انتباه يفقدان الثقة بينهما، وحين يزداد التباعد بين الزوجين، يبحث
رجل غالباً عن صديق حميم جديد، أحياناً يختار أصدقاء من جنسه كما
عل "دون" ولكن في معظم الأوقات يكون الصديق امرأة! وقد تتحول
صديقة في آخر الأمر إلى المرأة الأخرى، وأثناء تحضير كتاب "المرأة الأخرى
لجديدة" قابلت "لوريل" عالمة الإجتماع في جامعة أوهايو، سبعين إمرأة،
وجدت أن معظم العلاقات تبدأ بصداقات بريئة يستمر بعضها أكثر من
ستة أشهر قبل التحول إلى علاقة حميمة، وفي بحث أجراه العالم النفساني
"نورمان" وشمل ٢٧٨٧ شخصاً اكتشف أن أهم مقومات الزواج اثنان:
المعاشرة والحب، وكثير من المشاكل تنتج عن تغاضي الزوجين عن مناقشة
كل ما يتعلق بالجنس.

الراية الحمراء الرابعة والأكثر شيوعاً هي "هوس السنة السابعة" وقد
عرفت بهذا الإسم لأن السبع سنوات هي متوسط فترة الزواج عند المطلقين،
وفي تقديرات الإختصاصي بشؤون العائلة "ميلر" إن الإكتفاء الزوجي يبلغ
أدنى درجاته بين السنة السادسة والسنة العاشرة، أي لدى دخول الطفل
الأول المدرسة، فمتطلبات العمل وتربية الأولاد تبرد حرارة الحب والإنسجام
لا يقود هذا الهوس دائماً إلى الإنفصال، قد يتسبب في انتفاضة الزوج
وتمرده على المسؤوليات التي تفصله عن حياة العزوبية السابقة، والزوجة
المتفهمة تسمح لزوجها بالإستغراق في تخيلاته وربما مشاركته فيها، فإذا
كان يحلم بزورق لن يتمكن من شرائه أبداً، ففي وسعها أن تحول أنظاره إلى
ما هو ضمن إمكاناتها، وإن بدأ الإبتعاد عنها، كما كان "دون" يبتعد عن
لورا، فسهره في الخارج يثبت له إستمرارية أوقات المرح الخالية من الهموم،

وعلى رغم موافقة "دون" على الذهاب مع لورا إلى مستشار لشؤون الزواج مرة كل أسبوع فإنهما سيواجهان المزيد من الرايات الحمر إذ استمر زواجهما على حاله.

الراية الحمراء الخامسة التي تهدد كل زواج كما تقول الدكتورة "جويس" هي صراع القوة!! الذي يتكرر في معظم حالات الزواج، يبدأ عادة متنكراً في شجار حول المال أو الجنس أو الأولاد أو الأقرباء، فالأزواج الذين يتجادلون باستمرار حول القضايا ذاتها سنة بعد أخرى هم على الأرجح في "صراع قوة" وتدل الأبحاث على أن الإمتعاض يقلل السعادة الزوجية أكثر مما يزيدها الرضا، لذلك يجب التغلب عاجلاً على الخلافات من دون انتصار أي فريق، بل بإرضاء الفريقين: وهنا بعض القواعد: كونا دقيقين وتجنبا الملاحظات الشاملة مثل "إنك مسرفة" أو إنك فظة وألحا على البحث في التغييرات المحددة التي تحسن العلاقة. وأحسنا الإصغاء. استمعا وتجاوبا واتركا التذمر وناقشا مشاكلكما الخاصة دون انفعال، أبقيا في الحاضر ولا تجددا الماضي. إلتزما موضوعاً واحداً وإن زادت الشكاوى دوناها وناقشاها لاحقاً. حاذرا التحليل النفسي كأن يدعي أحدكما معرفته بعلم النفس فيردد بعض المصطلحات دون داع مثل أنت معقد أنت عندك إنفصام في الشخصية ألخ.. ولتقتصر انتقاداتكما على السلوك المنظور ولا تحاولا تحليله، تشاجرا على انفراد وليس أمام الآخرين، عينا موعد النقاش حين تكونان مرتاحين لا منفعلين حتى الجنون، أي بعد العشاء مع الشاي مثلاً، لا تتفوها بكلمة "طلاق" فالتهديد بانهاء العلاقة لدى مواجهة خلافات صعبة أمر يتفه الزواج .

ونأتي بعد ذلك للمرحلة السادسة وهي جهل السنة العشرين، في حالة

والدة لورا مثلاً تأخرت هذه المرحلة عشر سنين، لكنها قد تبكر أيضاً وأحياناً تعرف بسن اليأس عند الرجال، ولا يتضمن هذا الهروب دائماً تورط مع امرأة، قد يقرر الزوج الرحيل إلى بلد آخر أو المجازفة بمدخرات العائلة في مشروع فاشل وبذلك تصبح الحياة معه صعبة، هذه المعاناة لا تبقى داخل الرجل إذ أنه لا يملك قدراته السابقة، فابنه أكثر نشاطاً منه، وعقله لم يعد سريعاً كما كان، والشباب ينالون الترقيات التي طالما تمنونها، والسنوات المتبقية غير كافية ليفعل كل ما يريده في الحياة، إنه في أمس الحاجة إلى التفهم والعزاء اللذين يفترض أن تقدمهما زوجته إليه، فوالدة لورا مثلاً شعرت ببعض الشفقة نحو زوجها التائه، وعندما زارها ليأخذ بريده قدمت إليه القهوة وجلسا وتحدثا، يزورهما أحياناً لتناول العشاء، وهي تتمنى أن تعود الحياة إلى مجاريها. الراية الحمراء الأخيرة هي هلع الشيخوخة، بعض الرجال يخافون التقدم في السن ومع ذلك يستسلمون متوهمين العجز، وما لم يحظوا بالمساعدة فإنهم يضيعون السنين في سبات أشبه بالموت بدلاً من الحياة.

لكن الرجل الذي اكتسب من أزمات حياته إدراكاً أشمل لحدوده وقدراته، وأصبح أقل نشاطاً، ولكن أكثر حكمة، يختلف في سنواته الأخيرة عن سواه، فهو يتوقف عن العيش للغد البعيد ويبدأ إظهار تقديره لبهاء كل يوم وإعجابه بزوجته خصوصاً، تلك التي وقفت إلى جانبه في الأيام العصيبة، ويجعلها تشعر بذلك الإعجاب.

أما الأزواج الذين هم في مأمن بعد تخطيهم خطر السنة العشرين فحياتهم شهر عسل ثان، لكن شهر العسل هذا في نهاية زواج طويل ليس نتيجة حتمية، بل استحقاق، والذين استحقوه يقرون بأنه يستحق كل

جهد. وتكثر مكاتب الإستشارات الزوجية في العالم الغربي، وتهتم هذه المكاتب ببحث المشاكل التي يعاني منها الأزواج، وإبداء النصحية لهم، وتضم هذه المكاتب بعض رجال الدين ورجال الاجتماع، والأخصائيين النفسيين والأطباء والإخصائيين الإجتماعيين، وفي لندن على سبيل المثال تنتشر هذه المكاتب بحيث لا يبعد المكتب عن أي بيت أكثر من عشرة كيلو مترات.. ويعتقد الأخصائيون أنه إذا بلغ الخلاف بين الزوجين حداً أصبح من الصعب عليهما حله فإنهم يبادرون إلى المساعدة باعتبارهم طرفاً محايداً هادئاً، وبعضهم يتطوع للعمل دون مقابل، والآخر بمقابل بسيط، إلا أن المسؤولين في هذه المكاتب يتفاخرون بأنهم يسهمون مساهمة إيجابية في دعم الحياة الأسرية والمحافظة على العلاقات الزوجية والحيلولة دون خراب البيوت، وعلى سبيل الذكر أصدر مكتب الإستشارات الزوجية الوطني البريطاني تقريراً في الفترة الأخيرة يؤكد فيه أنه أنقذ آلاف من حالات الزواج من الإنهيار، وحال دون تشريد الأبناء بل أنه ذكر أنه يوفر على خزينة الدولة حوالي ٤٢ مليون جنيه إسترليني سنوياً كانت ستنفق في المحاكم وإجراءات الطلاق والمصروفات القانونية الأخرى ومدفوعات التأمين الإجتماعي للمطلقين ونفقات الأطفال، وأغلب أعضاء مكاتب الإستشارات الزوجية في الغرب وفي بريطانيا بالذات من النساء.

وتشير الإحصائيات إلى أن متوسط عمر " المستشارة " ما بين ٣٥ و ٥٠ سنة، ويقبل على هذه المكاتب للحصول على النصيحة والحلول التي تساعد على التغلب على متاعب الحياة الزوحية حوالي سبعين ألف شخص سنوياً في بريطانيا، وتضم هذه المكاتب المنتشرة في أنحاء البلاد حوالي ٢٢٥٠ مستشاراً، وتقدم استشاراتها مجاناً وأحياناً بمبالغ رمزية، والمهم أنها

تبذل جهوداً جبارة للإصلاح بين الزوجين وتعتمد في إستمرارها على مساهمات المتبرعين والمؤسسات الخيرية أكثر مما تعتمد على الحكومة التي تساهم بـ ١٫٣ مليون جنيه سنوياً لكل المكاتب وبالطبع هذا المبلغ لا يكفي للإيجارات والمصاريف الأخرى، وقد ينتظر الزوجان لمدة أسبوعين قد تمتد إلى ستة أسابيع قبل أن يتمكنا من مقابلة المستشار أو المستشارة، وذلك بسبب الإقبال الشديد على هذه المكاتب التي أثبتت فاعليتها وجدارتها، ويكفي أن هذه المكاتب على كثرتها تضطر إلى إدراج حوالي عشرة آلاف شخص كل شهر في قائمة الإنتظار، وصاحب الحظ السعيد هو الذي يتمكن من طرح مشكلته بعد أسبوع أو عشرة أيام من زيارته للمكتب وتسجيل إسمه وعنوانه، ومكاتب الإستشارات الزوجية تقوم بتنويع أنشطتها فقد أدخلت برامج تعليمية يشترك فيها المستشارون لرفع كفاءتهم ومستواهم العلمي في حل المشكلات الزوجية التي تطرح عليهم، وقد تنبهت الحكومة البريطانية إلى أهمية هذه المكاتب بعد إرتفاع معدلات الطلاق من ٧ آلاف حالة عام ١٩٣٨ إلى ١٥٢ ألف حالة عام ١٩٨٨، وجاء هذا البيان بعد مرور خمسين عاماً على إنشاء أول مكتب إستشاري بهذا الخصوص، والآن يوجد ١٦٠ مكتباً في بريطانيا وتستمر جلسات الإصلاح مدة ليست بالطويلة ولا بالقصيرة فبعض الأزواج يتوصلون إلى حل مناسب بعد جلسة أو جلستين والبعض الآخر يحتاج إلى سبع جلسات طويلة وهكذا.. وللعلم في الإمارات العربية المتحدة بدأت خطوة رائدة بافتتاح مكتب من هذا النوع ولا تفصل المحكمة في قضية الطلاق إلا بعد أن يمر الزوجان على هذا المكتب ويترددان عليه عدة مرات يجتمعان فيها مع المستشارة لمناقشة أسباب رغبتهما في الطلاق بصراحة مطلقة، عل هذه الاجتماعات توضح لهما الطريق.. وفي حالة الفشل والعناد يتم تحويلهما

للمحكمة!! ويقع أبغض الحلال.

إن الأزواج في بريطانيا ليسوا هم البادئين عادة بطلب الطلاق بل الزوجات هن اللاتي يلجأن إلى القضاء للإنفصال عن أزواجهن والأرقام تقول أنه من بين كل عشرة حالات طلاق في بريطانيا نجد أن ٧ حالات تكون الزوجات هن البادئات بها، وأغلب حالات طلب الأزواج للطلاق بعد الخيانة الزوجية هو تفوق الزوجة عليه في المركز الأدبي والمادي والوظيفي فهي بمثابة الشرارة التي تنطلق منها نيران المشاكل ثم يعجز الكل عن اطفائها.

وتعترف سيدة تحتل مركزاً تربوياً كبيراً بأنها لم تعرف طعم السعادة مع زوجها رغم تقارب السن بينهما فهو مجرد موظف بسيط وحظه من الشهادات يكاد يكون صفراً، ومع نشوب أي خلاف حتى لو كان بسيطاً يذكرها بوظيفتها وراتبها ويكون المركز الكبير والوضع المادي المرتفع إدانة.. وتقول إنه يشعرني بالذنب ليلاً ونهاراً مع أنني وفرت له سيارة وأصر على أن يكون فيها هاتف ونفذت له طلبه، ميزانية البيت ومصروفي واحتياجات صغيرتي وراتب الخادمة أتحملهم لوحدي.. وهو يدفع راتب السائق فقط، ويحضر بعض الحاجات مرة أو مرتين كل شهر حسب مزاجه الخاص.. وهو الآن يصر على أن أشتري أرضاً تمهيداً لبنائها وعلى أن تكون باسمه، لا أشعر بالأمان معه، ولا بالرغبة في تحقيق طلبه الأخير.. وخلافاتنا بدأت تسلك طريقاً آخر يبدو أنه طريق السلامة الوحيد .

ولقد توصلت الدراسات النفسية إلى أن سر نجاح الزواج هو "الأمان العاطفي" فهو القاعدة التي تقوم عليها سائر متطلبات الزواج الأخرى المودة – الإنفتاح – التعاطف – الثقة. وبدون الأمان العاطفي لن يكون الزواج في

حالة طبيعية، ولهذا قرن الله تعالى الزواج بالسكينة والمودة، حين قال في كتابه الكريم ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ (١)، وهناك أوقات في بعض الحالات يتصرف فيها الزوجان وكأنهما في معسكر قتال لا هدنة بينهما، وبدلاً من أن يتبادلا العون والمساعدة يتبادلان الإتهامات والصراخ، ويقللان من شأن بعضهما البعض يوماً بعد يوم حتى تتسع الهوة بينهما ولا يعودان يشعران بالأمان تجاه حياتهما المشتركة!

والسؤال الذي يجب أن يطرح عند هذه المرحلة هو: إذا كنا نعيش تحت سقف بيت واحد وكل منا في حاجة أن يشعر بالأمان العاطفي مع الطرف الآخر، فلماذا نلجأ إلى الشجار والمناكفة وخلق العدوان والبغضاء؟ ولماذا يشعر كل طرف بالتردد والحيرة في مصارحة الآخر بما يدور في نفسه وبما يضايقه من تصرفات شريكه؟ فهذه المكاشفة قد تنير القلوب الغارقة في ظلام العناد والمكابرة. قد تكون العلاقة الزوجية أسعد العلاقات في حياة الفرد، وقد تكون أشدها خيبة، فالإعتقادات الخاطئة والإفتراضات المضللة كما ورد في كتاب "أوهام تدمر الزواج" تجعل عدداً لا يحصى من الزوجات والأزواج يتفقون مع قول الكاتب الساخر: الزواج يشبه حماماً ساخناً متى اعتدته وجدته أقل حرارة، والجميع يعلم أن ماء الإستحمام عندما يبرد يضاف إليه مزيداً من الماء الساخن. فإذا رغبتم في إبعاد البرودة عن العلاقة الزوجية فعليكم أن تتخلصوا من الأوهام.

وهناك بعض الخرافات الشائعة التي يمكنها أن تدمر الزواج .

أولاً يجب تحديد النواقص الزوجية وإصلاحها ومن المؤسف أن أزواجاً كثيرين نادراً ما يتحادثون إلا عندما يقع الخطأ، وهم يقعون ضحية الخرافة

القائلة بوجوب التخلص من النواقص الزوجية .

اعترفت لي امرأة كانت تنتقد زوجها باستمرار، قالت "ترعرعت في منزل سادته فوضى دائمة وكنت أشعر بحرج كلما دعوت صديقاتي، وكان حلمي في الزواج يتمثل في امتلاك بيت نظيف، إلا أن زوجي نشأ في بيت شديد الترتيب وكان يمقته، ورأى في منزل أحلامه مكاناً للإسترخاء والراحة، وهكذا تحطم تصورنا للزواج المثالي بعد عودتنا من شهر العسل وراحت الأمور تسوء تدريجياً، حاول الزوجان تبديد هذه الأفكار المتناقضة، لكن حياتهما لم تتحسن إلا عندما استرخيا وتركا المسألة تتلاشى، وتابعت المرأة روايتها : أصبحت علاقاتنا الزوجية عندما بدأنا نعالج الأمور بحسب أهميتها، وبعبارة أخرى تحسنت أحوالهما عندما تخطيا نقطة الضعف هذه في زواجهما وأمضيا مزيداً من الوقت للنظر في نقاط القوة، تنجح العلاقات الزوجية وتستمر عندما يشدد كل شريك على نقاط القوة لدى شريكه ويقلل من شأن نواقصه، أو كما عبر الفيلسوف الأمريكي "وليم جيمس"، فن الحكمة هو فن معرفة الأمور التي يجدر إغفالها .

ثانياً "المرح المنتظر"، في سياق تخطيط المشاريع المستقبلية ينزع كثير من الأزواج إلى تأجيل متعتهم الآنية، وهناك دائماً أمور تدعو إلى القلق، كتربية الأولاد وشراء منزل والتقدم في العمل، وعلى سبيل المثال يقول "رجل أعمال ناجح كد طوال حياته الزوجية : لم أمضِ وقتاً كافياً مع زوجتي ايفلين، كنت منشغلاً جداً في تأمين نجاحي المهني، ثم توفيت ايفلين بعد مرض عضال، وتقاعدت أنا بعد وفاتها بسنة واحدة، إنني الآن نادم أشد الندم، وأتحسر دائماً لأنني لم أقضِ مزيداً من الوقت معها ومع أولادنا لاحقاً، لاحقاً هو الآن، لكن الأوان قد فات، ولابد من أن يكون لدى الأزواج بعض

التخطيط للمستقبل فالزوجان اللذان لا يخططان إطلاقاً يتجهان نحو الكارثة، كارثة مالية أو عاطفية، كما أن الزوجين اللذين يركزان على المستقبل أكثر مما يركزان على التمتع بالوقت الراهن هما أيضاً يتأرجحان على حافة الهاوية، وأورد للدكتور "سبنسر جونسون" في كتابه "الحاضر الغالي" كلمات تلخص المعنى السابق فهو يقول: من الحكمة أن أفكر في المستقبل وأن أهيئ لمستقبلي، ولكن من البلاهة أن أعيش في المستقبل لأنني بذلك أخسر نفسي. وعندما قررت إصدار كتاب عن الطلاق جمعت عشرات المراجع والنشرات والإحصائيات، وقمت بمقابلة عدد كبير من المطلقات اللاتي حكين لي عن أسباب طلاقهن لكن ولا واحدة منهن تطرقت إلى حياتها بعد الطلاق، كن يكتفين بشرح الأسباب وخططهن للمستقبل، وكن متحفظات في الحديث عن مشاعرهن وكذلك شأن الرجال، وكانوا جميعاً يلخصون المعاناة التي تلي الإنفصال بهذه الجملة: أنا مرتاح الحين والحمدلله، وها هي تجربة مر بها صحفي معروف وكتبها بصدق وبلا تحفظ ولعل هذه المشاعر تتفق مع أي رجل أو امرأة مر بهذه التجربة الأليمة ولكنهم لم يصرحوا بها لسبب أو لآخر.

ويبدأ الصحفي حكايته قائلاً: منذ زمن ليس ببعيد حدثني صديق بالتلفون وكنت لم أتصل به منذ عهد طويل، قال إنه قرأ عن طلاقي بعد ١٤ سنة من الحياة الزوجية، ومضى يقول في إشفاق: على أني أحسدك كما تعلم، فأنت حر طليق تستطيع أن تحيا كما تشاء، تغدو وتروح حين يروق لك الغدو والرواح، إنك لا تعلم كم أنت محظوظ، لابد وأنك سعيد، شيء بديع أن يكون المرء حراً يقبل إلى البيت متى أحب، ويتناول طعامه متى أراد، لا معاكسة ولا مضايقة، ويستطيع السفر وتربية الحيوانات والتصرف

حسب مزاجه والإنغماس في اللهو، والآن وقد مضى عليّ ثلاث سنوات وأنا حر طليق فإنني على استعداد لكتابة تقرير مفصل أصف فيه هذه الحرية الفائقة البهجة، حذر بالغ وأقوال جوفاء.. إنك لا تعرف كم أنت سعيد الحظ حين تكون متزوجاً.. إن المضار الناجمة من بقائك محروماً من العلاقات الزوجية وخاصة وأنت في منتصف العمر لتزيد إلى حد بعيد عن المباهج التي تنجم عن ذلك، فلأول مرة يمكنك أن تشعر وأنت في البيت الخالي كيف يمكن أن يضحى الصمت ضجيجاً مزعجاً والسكون ضوضاء صاخبة فبمجرد أن تدير مفتاح الباب الخارجي دون أن يلقى صوته صدى مجيباً في الداخل تكتنفك وحدة غامرة، ويشملك سكون، في تلك اللحظة عينها تتحقق في أن نباح كلب أو زقزقة طائر أو مواء قطة، لا يمكن أن تكون عديلة للصوت البشري، إن أول المعاني التي تنطوي عليها هذه الحرية الجميلة هو أنه ليس هناك أحد يهتم حقاً بما يحدث لك، فأنت وحيد رجلاً كنت أو إمرأة وليس هناك أحد يهتم بك مريضاً كنت أو سليماً، سعيداً أو شقياً، حياً كنت أو ميتاً، وهيهات للأصدقاء أن يملؤا ذلك الفراغ الرهيب الذي كان يشغله في وقت من الأوقات ذلك الشخص المدعو بالزوج، شتان بين هذا وهؤلاء فليس هناك ببساطة أي وجه للشبه، وقد يكون الموقف جارفاً مدمراً بالنسبة للنساء بوجه خاص فالمرأة المطلقة التي كانت شديدة الرغبة في الخلاص من تعسف ذلك الرجل غير المحتمل سوف تجد أن أغلال الحرية أنكى قسوة من قيود الزواج، فالرجل المطلق يمكنه على الأقل أن يروح ويغدو متى وحيث شاء، أما الأماكن التي يمكن للمرأة المطلقة أن تذهب إليها منفردة فمحصورة ومحدودة، كما أن سفرها وحيدة أضحى لذة تافهة، ولم يعد أحد يدعوها إلى ولائم العشاء حيث كانت فيما مضى موضع الحفاوة والترحيب، وقد يجد الرجل الزاهد نفسه موضع

الترحيب على كثير من الموائد ولدى عائلات عديدة، وقد يأخذه الوهم الباطل لفترات قصيرة بأنه مرغوب فيه وذو أهمية، والواقع ببساطة أنه دخيل ولا موقع له بين أسرة سعيدة ومستقلة، وصرح لي أحد زملائي وكان قد عاد فتزوج المرأة التي طلقها فقال: الحب العنيف قد يموت، ولكن العادة لا تموت، وعادات الزواج مريحة ومعزية، والحب الجديد إنما يؤدي إلى مجموعة جديدة من العادات، واني لأفضل العادات القديمة التي ألفتها على عادات جديدة يجب أن آلفها.. نعم كانت لي مضايقات في زواجي، وكنت أظنها غير محتملة حتى وجدت أن الحياة بدونها أصعب احتمالاً.

لقد وضعت برنامجاً مرتباً لحياتي مدة ثلاث سنوات، فنظمت جداول لرحلاتي وقررت قضاء عطلتي بانجلترا، وكتابة رواية وقصة سينمائية والجلوس وطرقعة أصابعي، دون أن أسمع البتةَ صوتاً يحتج أو يوافق، يهدد أو ينصح، وها أنا ذا أخبركم إن عدم التدخل هذا وعدم المشاركة يصبحان بعد وقت فوق طاقة الإنسان، فأنت لا تستطيع أن تتصور كم يمرض الإنسان إذ يتصرف تماماً حسب مشيئته، إن كل شيء في الحياة يغدو مستوياً ليس فيه قمم ولا وديان، فإذا كنت لا تصدق، فأذكر آخر مرة قررت فيها القيام برحلة مع زوجك: تذكر التوقع والإنتظار والإنفعال والمجادلات حول مكان الذهاب وحول وقت السفر وأي شيء ستأخذان، وكم من المال تنفقان، لا غرو أن إحدى المباهج العظمى للزواج والتي قلما نعترف بها هي أن يكون لك صاحب تصمم معه المشروعات وتشاركه في التوقع والإنتظار، وإذا أنت وفقت إلى تصميم مشروع أو أصبت نجاحاً فنياً فليس هناك من يفرح فرحاً يتساوى مع فرحك ولا تشوبه غيرة أو حسد غير شريك حياتك، وإذا كنت وحيداً فإن وهج النجاح يتحول إلى قيود باردة كالعجز في الصباح التالي،

وحين يصادفك الفشل أو تمسك المآسي أو تتجلى لك لعنات الحياة فلن تجد إنساناً تلجأ إليه للمشاركة الوجدانية أو العزاء لسند الروح المناضل القديم فيك، وإن حرية الفرد لتبدو قاسية حين يكون أمامك منظر جميل ولا تجد من يشاطرك لذة النظر إليه، إن أمام المرء دائماً أشياء يحبها وأموراً صغيرة يضحك منها أو يبكي، وتلك الأشياء الصغيرة التي مازلنا نصادفها في الحياة رقيقة أو فكهة أو سخيفة أو مخيفة أو محزنة تستلزم المشاركة في الشعور، وليس غير الأحرار من يخسر بهجة هذه المشاركة، إنهم بإيجاز يخسرون بهجة الحياة لأنه ليس بحي حقاً كل إنسان يعيش دون تبادل الحب البشري الأخذ والعطاء في جزء معين من كل ساعات اليوم الأربع والعشرين

وتنتهي تجربة الكاتب عند هذا الحد فلا نعلم إذا كان قد عاد إلى زوجته أو أن أوان الإستئناف قد فات .

أعرف سيدة كادت تسقط فريسة للحرية التعيسة لولا أنها تراجعت وقامت بخطوة شجاعة حيث خابرت الرجل الذي شاركته الحياة لمدة سبعة عشر عاماً وطلبت منه استئناف الحياة الزوجية من جديد، هذه السيدة كانت زوجة لرجل مزواج، كل عام يسافر إلى بلد عربي اعتاد السفر إليه ويعود بزوجةٍ صغيرة السن يقضي معها شهور الصيف وأحياناً الشهور الأولى من العام الدراسي ثم يعيدها لأهلها ويحضر واحدة أخرى، وإذا حملت إحداهن يتركها حتى تضع ثم يبعدها ويضم المولود إلى أولاده من زوجته الأولى لتقوم بتربيته، ولم تعد تلك الزوجة قادرة على الإحتمال فكثرت المشاجرات، وعلا الصوت الذي كان خافتاً على الدوام، فهجر الزوج المنزل واستأجر منزلاً آخر لزوجاته، ولم تجد الزوجة المهجورة التي تحملت

نزواته وقامت بتربية أطفاله سنوات عديدة بدءاً من طلب الطلاق، وعندما حصلت على الطلاق لم تجد الراحة ولا العزاء، وظلت شهوراً لا تتذكر سوى حسناته، ولم تلبث أن عادت إليه!!

وعموماً هل الإستمرار في العلاقة الزوجية وإن كانت تعيسة أفضل أم الإنفصال؟.. وتحمل تبعات هذا القرار!! هل نقبل فكرة الطلاق أم نقف ضدها..؟

يقول الدكتور "سبوك" في كتابه "مشاكل الآباء في تربية الأبناء" يكون الطلاق أحياناً علاجاً حاسماً للمشاكل النفسية التي يعاني منها الطفل عندما يعيش مع أبوين يكره كل منهما الآخر.

وهذه سطور من رسالة لإحدى الأمهات اللاتي يعانين من شقاء كبير في حياتهن الزوجية: إنني آحتاج إلى من يقول لي رأياً واضحاً عن الزواج الفاشل وآثاره الضارة على الأبناء، وأحب أن أعترف إنني أنا وزوجي عرفنا منذ البداية أن حياتنا معاً كانت أحد الأخطاء الكبيرة التي وقع فيها كل منا، كنا نعرف ذلك جيداً قبل أن يصل طفلنا إلى الدنيا.. وقد ولد هذا الطفل منذ ثلاثة أعوام. وحاولنا أن نمثل أمام الناس دور الأزواج السعداء. لكن أي إحساس ثقيل مرهق هذا الذي يجعلنا نعيش حياة كلها خداع في خداع. إنني أفكر كثيراً في تأثير الطلاق في تربية الأبناء. إن المشاكل والخلافات بيني وبين زوجي عميقة وكثيراً ما قلت لزوجي هيا نسأل أحد الأخصائيين في مشاكل الأزواج لعله يعطينا بعض الإرشادات حتى تنجح حياتنا أو علينا أن نواجه فشل هذه الحياة بصراحة، ولكن زوجي بدأ يسخر مني وهو يرفض الفكرة. إنه مغرور. بخيل، أناني. لم أره أبداً وهويصنع خيراً أو يقدم معروفاً لأحد. إن حياته كلها عبارة عن نفاق وخداع وجري

وراء مصالحه، وهمه الوحيد في هذه الحياة هو أن يشتري سيارة فخمة يركبها ويستمتع بقيادتها، وعندما يدخل هذا الرجل إلى المنزل الذي نعيش فيه أشعر أنه غريب عني تماماً، ولا يكاد يدخل المنزل حتى يضغط على زر التليفزيون ويضع بجانبه زجاجة الخمر ويبدأ في السكر. ثم ينادي على إبننا ويدور بينهما هذا الحوار: بيتر تعال هنا وقبلني إنني والدك. إنه يلقي هذه الكلمة كأنها أحد الأوامر الكثيرة التي تعود أن يلقيها ويجب أن تنفذ فوراً فإذا تلكأ الطفل أو رفض فإنه يكيل له ألواناً هائلة من السباب ويظل يقول له : أمك هي السبب.. إنها تجعلك تكرهني.. أما إذا أسرع الطفل وقبّل أباه فإن المسألة تمر بهدوء وبدون صوت مزعج ويسود الهدوء جو البيت قليلاً. لكن زوجي لا يهدأ، إنه يحاول أن يعثر على سبب للنكد والمعارك. يبدأ في إغاظة الطفل ومشاكسته وقد يمتلئ الإبن بالغيظ والضيق أو قد يبدأ في ملاطفة والده والإقبال على مداعبته، وهنايبدأ الأب في صد الإبن ويتفرغ لقراءة الجريدة أو يلتفت إلى الفيلم المعروض في التليفزيون، وعندما يصر الإبن على حقه في اللعب مع الأب فإن الأب "يصرخ" فيه ويزجره ويصدر الأوامر إليه بضرورة التزام الهدوء التام. هذه هي بعض عيوب زوجي. وإنني أعترف أن لي أنا أيضاً أخطاء وعيوباً. ولكن قل لي ماذا أفعل؟ وكيف أعيش إن لم أتعاون أنا وزوجي لمواجهة مشاكلنا لنضع لها الحلول؟.

إن عمري خمس وثلاثون سنة، ولو حدث الطلاق فلابد أن أحصل على عمل حتى أوفر لنفسي الدخل الكافي لي ولرعاية طفلي ومصاريف تعليمه، إنني أسألك أيها الطبيب: هل هناك عمر يكون فيه الطلاق بين الزوجين أمراً غير مزعج للطفل ولا يحمله أي أضرار. هنا تنتهي سطور

رسالة الأم التعسة التي تعيش مع زوج لا تريد الحياة معه.

وطبعاً من المستحيل أن أعطي نصيحة قاطعة بأن الطلاق فيه سعادة للأم أو للطفل، إن كل زواج في هذه الدنيا يدخله الصراع والخلاف والمشاكل والأطفال يحسون بهذه الخلافات وليس هناك وسيلة تمنع الخلاف في الحياة الزوجية. كما أن الطلاق ليس هو الحل الوحيد لإنقاذ الأطفال طبعاً من البيوت التي تظهر فيها الخلافات. أن الطفل الصغير يحتار ويقلق وينزعج عندما ينفصل الوالدان. والطفل يحتج دائماً على أي خلاف بين الوالدين يؤدي إلى الإنفصال. وعندما يتم الطلاق، فإن الطفل الذي يعيش مع أم مطلقة قد يتوسل إليها بسذاجة حتى تتزوج مرة أخرى، والأبحاث التي أجريت على الأمهات المطلقات تدل على أن كثيراً من المطلقات اللاتي لم يتزوجن مرة أخرى تكون الحياة في نظرهن مليئة بالكآبة، وطبعاً تضطر المطلقة في أغلب الأحوال أن تبحث عن عمل إن لم يكن لها عمل، وتعيش في ظروف من المعاناة الإقتصادية بل وتصاب المرأة في هذه الحالة بعقدة الخوف من المستقبل والتوجس من شبح الفقر كما إن علاقات الأم الاجتماعية تنكمش.

في الغالب لا ترحب الأمهات الزوجات بصداقات المطلقات، وتجد الأم أن هناك صعابًا تواجه المطلقة في العناية بالطفل صحياً واجتماعياً، ويتحول البيت إلى سجن صغير للأم المطلقة مع أبنائها. إنه بيت بلا إنسان آخر يشارك في تحمل المسؤولية ويرفع كرامة الأسرة. إن الطفل يشعر بأن هناك خطأ ما في هذا الجو. أن هناك جزءاً ناقصاً، والأم تظل تعاني من الإحساس بأن الطفل قد يفكر في أبيه وتدور في حلقة لا نهاية لها ولا أمل، وليس معنى ذلك هو أن نزرع اليأس في قلوب الأمهات، وطبعاً ليس معناه أيضاً أن

الأمهات بمفردهن لسن قادرات على تربية الأطفال بنجاح. إن عدداً كبيراً من الأمهات استطعن تربية الأبناء بنجاح، وعلى كل حال فالنتيجة النهائية تتوقف على مسألتين الأولى: هي قدرة الأم على الإحساس بالرضا بهذا النوع من الحياة، والمسألة الثانية: هي قدرة الأم على أن تسيطر تماماً على مشاعرها فلا تصاب بالضيق والإحساس بالذنب بوقوفها ضد الأب طول الوقت أمام الأطفال، إعلان ملكيتها الكاملة للأطفال. وعندما يدق باب حياة الأم فكرة الزواج مرة أخرى. فلابد أن يكون واضحاً تماماً للطرف الجديد أن الأم ترعى أطفالاً وأن يحاول الطرفان الوصول إلى إتفاقات واضحة محدودة وأن تحاول الأم من ناحيتها أن تجعل هذا الأمر مقبولاً من الأطفال، وغالباً ما يتقبل الأطفال فكرة زواج الأم خصوصاً إذا كانوا صغاراً في السن ويشعرون بالحاجة إلى رعاية الأب أو من يقوم بدور الأب ولاسيما إذا كان زوج الأم رجلاً قادراً على أن يتحمل المسؤولية.

ومن جهة أخرى فإن نسبة مزعجة من الزيجات الثانية تتعرض لمشكلات خطيرة أيضاً وهذا يعني طبعاً أن هؤلاء الأفراد يعانون من قلق واضطراب نفسي مستمر إما في الشخصية وإما في رد فعلهم اللاشعوري أمام فكرة الزواج، ولأن هناك مخاطر شديدة في إستمرار أو إنهاء زواج مضطرب وغير موفق فمن واجب الأبوين نحو أطفالهما ونحو نفسيهما أن يطلبا النصيحة من أحد رجال الدين أو أن يحصلا على العلاج من أحد الأطباء النفسيين ليس فقط في المشاكل التي يتصوران وجودها ولكن أيضاً في المشكلة الأساسية، وهل يمكن إيجاد حل لها أم لا؟ والحقيقة التي لا تخفي أن رفض مناقشة الإختيار بين أمرين يتوقف عليهما مصير المرء.. دليل على خوف داخلي من تحمل مسؤولية الخطأ في حالة ثبوت الإختيار

الخاطئ والرجال أكثر من النساء في هذا النوع من الخوف، الخوف من مواجهة الأخصائى النفسي. وحتى في موقف الرفض الحاسم الذي يتخذه أحد الزوجين للإشتراك في التماس العلاج، على الطرف الآخر أن يمضي وحده في طلب العلاج لعله يصيب خيراً ويصل إلى نتيجة طيبة. فإذا تحسنت حالة الزوجين واتضح لهما أن المستقبل يمكن أن يكون مضيئاً برحلة زواج سعيدة، وأنهما سيحافظان على هذا الرباط المقدس فإن ذلك يعتبر نجاحاً للزوجين.

أما إذا كانت الحياة من الشقاء بحيث يستحيل أن يعيش الزوجان معاً فالطلاق هنا ضرورة لحماية الطفل من الحياة في منزل ملئ بالمشاكل فليس هناك أسوأ من نمو الطفل في جو ملئ بالكراهية، ومن الأفضل أن يتم الطلاق على أن يتفق الطرفان على ذلك مع رعاية أحدهما للأطفال رعاية حسنة. وطبعاً لابد للزوج وللزوجة دائماً أن يحاول كل واحد منهما أن يعرف نفسه أكثر وأن يحاول معرفة أفضل الوسائل لبناء الإستقرار النفسي، أما في الزواج الذي يستمر.. وإما في الزواج الذي سيتم، والمشكلة الفعلية أن معظم الأزواج لا يقبلون بسهولة فكرة الذهاب إلى الأخصائي النفسي أو الاجتماعي، والذي يحدث في أغلب الأحيان أن أحد الزوجين وهو الطرف الذي يكاد يختنق تماماً من فرط مشاكسة الطرف الآخر أو عدم قدرته على التفاهم معه، لا تكون لديه رغبة بإنقاذ الزواج ومن ثم فإنه لا يستسيغ فكرة استشارة الأخصائي النفسي بل يعتبر هذه الإستشارة بمثابة اعتراف بأنه مذنب أو لديه شك بذلك على الأقل. وفي أى نزاع أو صراع دائم ومستمر بين شخصين فهناك دائماً نوع من التركيبة النفسية التي تخلق نوعاً معيناً من التنافر بين الشخصيتين ويفجر النزاع والصراع بشكل مستمر ودائم.

إن المثل القديم يقول أنه لابد من وجود طرفين لقيام معركة، ولا يعني بالضرورة أن الخطأ متساوٍ في المعنى القانوني أو المعنى الأخلاقي. وسأرسم صورة غاية في البساطة للنموذج الشائع من الإضطراب العاطفي في الزواج الذي يلعب الزوجان فيه أدواراً متشابكة إلى درجة دقيقة ومحكمة دون أن ينتبها لها.

إن الشخص الذي نشأ في أسرة كانت تعاني دائماً من الوان كثيرة من النكد والمعارك المستمرة بين والديه. هذا الإنسان عندما يكبر ويتزوج يسعى دون أن يشعر إلى خلق المشاكل لا في حياته الخاصة فقط ولكن في حياته العامة أيضاً، وعلينا أن نعرف أن ما كان في الماضي مصدر ألم وخجل يتحول دون أن ندري في الكبر، إلى مصدر لذة. إن الإنسان الذي كان يلعب في طفولته دور الضحية لخلافات الأبوين ويتألم لذلك يصبح هذا الإنسان جلاداً في الكبر ويجد لذة في ممارسة هذا الجلد النفسي للآخرين. وهذا النوع من البشر يتوقع دائماً أن تكون حياته الزوجية مليئة بالنكد والخلافات والصراخ وجرح كرامة الطرف الآخر. ويبدو أنهم يجدون أزواجاً يتكيفون مع هذا الأسلوب وتروق هذه الحياة في أعينهم إذ تبدو أنماط الحياة الأقل عناداً للمشاكل الدائمة في نظرهم خاملة بلا طعم. ولعل أحد الزوجين يلعب دوراً أكثر عدوانية في حين أن الآخر يلعب دوراً أكثر استسلاماً. ولكن إذا لاحظ أحد ما يقوم بينهما من مشاكل فإنه يجد أن كليهما يستفز الآخر ويتحرش به. والزوجة التي تصرخ قائلة: "إياك أن تضربني أيها المجرم"، قبل أن تخطر هذه الفكرة في رأس زوجها إنما هي مثال واضح على هذا النموذج. وكل طرف من الزوجين يمتلئ بالضيق والسخط والرغبة في الإنتقام من الطرف الآخر. ولكنه لا يرى إلى أي مدى جرح هو

الطرف الآخر وتسبب في إيلامه نفسياً.

والعلاقة الوثيقة بين المشاعر الإيجابية والسلبية تظهر في هذا النوع من الزواج الذي يتميز بالمعارك والمشاجرات حتى قبل ممارسة الحب بين الزوجين.

ويصف علماء النفس هذا النوع من العلاقات بأنه "سادي وماسوشي" وذلك حين يرغب المرء في تعذيب أحد ويجد لذة في ذلك، ويجد لذة في أن يعذبه أحد. وفي الحقيقة أن كل الناس بدرجات مختلفة وغالباً بدرجة معتدلة، لديهم القدرة على الإستمتاع بتبادل السخرية والإزعاج بدعوى الضحك والمداعبة وهذا ما يجعلنا نقبل هزيمة خصم في مباراة أو نستسلم لرئيس عمل ظالم، ولهذا فيجب أن لا ننزعج عندما نقرأ هذه الكلمات عن حالات زواج نعتبرها "شاذة" إن هذا الشذوذ موجود في حياتنا إلى حد ما. وكثيراً ما يحدث أنه عندما تبدأ الحياة الزوجية في التعثر لأسباب أخرى، يصبح الشريكان في حالة ضيق وسخط من أخطاء وعيوب بعضهما بعضاً، وفي الوقت نفسه يشعر كلاهما بالذنب في أعماقه ويلقي على نفسه اللوم.

إن الطرفين يسبحان في تيار من الإستفزازات يزداد عنفاً مع الأيام. والحياة الزوجية التي تكون بهذه الصورة المتوترة تسبب إرهاقاً شديداً للطفل حتى لو حاول الوالدان إبعاد الطفل عن هذه المعارك أو حاولا إخفاء هذه المشاكل عنه. أن ما يحدث في أغلب الأحيان إن الوالدين يعاملان الطفل كقطعة من الشطرنج ويلعبان به على مائدة خلافاتهما. أن أحدهما يبدأ النكد والآخر يرد عليه ويبدأ المعتدي في البكاء على حظ الطفل. ثم يبدأ الشجار مرة أخرى، وهكذا. وإذا استمرت الحياة الزوجية بين اثنين على هذا الأسلوب فذلك لأن كليهما يجد لذة في هذا النوع من الحياة مهما بالغ في إنكار ذلك. ويكون موقف الطفل مع مثل هذا النوع من الآباء موقفاً غاية في

التعاسة. إنه سيفعل مثلهما عندما يكبر ويتزوج.

إن شخصيته يصيبها التشويه البالغ، وإذا إنتهى الأمر بمثل هذا النوع من الأسر إلى الطلاق فأغلب الظن أن الأم التي تملك نزعةً دائمةً للشجار ستحيل حياة طفلها جحيماً، لأنها ستختار زوجها القادم من النوع نفسه، وستجعل الزواج القادم في حياتهما جحيماً جديداً.

إن مضمون الرسالة يوحي بأن الأم والأب رهينتان، في سجن يعذب فيه كل منهما الآخر. ويكون الطفل ضحية الإثنين إذ يستخدمه كل منهما كوسيلة لتعذيب نفسه ولتعذيب الآخر . أن الزوجة ضحية الإثنين إذ أن الزوجة تشكو من أن زوجها يدخل المنزل وهو يرغب في التنكيل بمزاج الجميع. ولو سألنا الزوج لأجاب إجابة تتضمن عكس هذا الموقف تماماً ولوجدنا عنده قائمة من الإتهامات لزوجته فهي - كما يقول - تبدأ في إثارة غيظه فور أن يدخل البيت وتفسر كل سلوك له مع طفله على أنه إغاظة للطفل. وهناك أيضاً دليل آخر على أن هذه الزوجة لا تفهم مصدر الخطأ في علاقاتها بزوجها وهو شعورها بأن الزوج ليس فيه صفة واحدة تستحق الإعجاب، وأنها اكتشفت ذلك بعد الزواج مباشرة. إن ذلك القول في رأيي غير صحيح تمام الصحة لأنني لا أشعر أن هناك إنساناً يتمتع بمثل هذه القدرة الخارقة على التمثيل أثناء فترة الخطوبة. فكيف لم تلتفت هذه الإنسانة إلى بعض عيوب الزوج قبل الزواج؟

وطبعاً لا مجال للمقارنة بين حالات الزواج المندفع الذي يجرف المراهقين دون دراسة أو معرفة جيدة، إن شخصين على درجة من النضج لا يمكن أن يخدع أحدهما الآخر بكل هذا القدر من البساطة والسذاجة اللهم إلا إذا كان كلاهما يخدع نفسه، وإذا كان الزواج قد وصل إلى هذه الدرجة

من السوء فلماذا تستمر حياة الزوجين تحت سقف بيت واحد لا يجدان فيه أي متعة؟ ولماذا ينتظران إلى أن يرزقا طفلاً ؟ وإذا كانت قد اكتشفت كل هذه العيوب فور بداية الزواج فلماذا استمرت؟ فيه ولماذا أنجبت من هذا الرجل الذي لا يتمتع بميزة واحدة؟ إنني أخشى أن تكون كلماتي تشبه كلمات المحقق أو القاضي ولست أريد أن أقف ضد هذه الزوجة فلو كنت قد قرأت رسالة أخرى من الزوج لا نتابتني نفس الشكوك. إنما أنا أريد أن أؤكد ما سبق أن ذكرته كثيراً وهو أن الرجل والمرأة عندما يقفان على عتبة الحب ويصلان بهذا الحب إلى الرغبة في استمراره وأن يتخذ شكل الزواج، عندما يتم هذا الزواج ويبدأ كلاهما تظل كامنة في أعماق الرجل أو المرأة وتظهر بعد ذلك لتدمر حياة الزوحين وتفسدها.

وبالرغم من أنني ادعو إلى ضرورة استشارة الاخصائي النفسي إلا أني لا اريد ان يظن أحد أن هذا حل حاسم وسهل أو أن المشكلة ستجد الحل المؤكد على يدي الاخصائي النفسي، بل لابد من توافر رغبة أكيدة عند الزوجين لحل هذه المشاكل لان هذه الرغبة هي الطريق الوحيد الذي يمكن ان يصلا به إلى التفاهم والانسجام في أشهر قليلة. لكن إذا كان الصراع عنيفاً والموقف غاية في التوتر وكانت أسباب المشكلة مدفونه في اللاشعور فليس من السهل ان يعثر لها أحد على علاج حاسم إلا بالتحليل النفسي العميق.

وأحب ان أقول ان البعض قد يفهم من هذا ان صورة الزواج المثالية هي الحياة بلا مشاكل، ولكن الحقيقة هي أن المشاكل لابد ان توجد كما لابد ان توجد القدرة على إيجاد حلول لها عند الزوجين نفسيهما وبواسطة جهدهما المشترك. ان الحياة الزوجية تحتاج إلى مزيد من التفاهم المتبادل الدائم والمستمر. وهناك عوامل كثيرة تؤثر فيها منها مثلاً التوافق الجنسي،

وعلى الرغم من أن هناك حالات لا يكون فيها الجنس كاملاً ومرضياً فقد لا يؤدي ذلك إلى فشل الزواج إذا كان الزوجان على درجة من الحب تسمح لهما بالتنازل عن هذ الحق في الاستمتاع. وهذه حالة قليلة ونادرة ولكنها يمكن ان تكون منتشرة بين الكبار الذين تعدوا السنين من العمر مثلاً.

في تبادل الإتهامات ومحاولة اعتبار الطرف الآخر مخادعاً، وعندما يستحيل على الإثنين تسوية الخلافات بالتفاهم فلابد أنهما يحتاجان إلى مستشار يفصل بينهما في هذا الخلاف، ولابد أن يختارا إنساناً متخصصاً يعرضان عليه هذه المشاكل بمنتهى الصراحة والوضوح.

ولقد تناول حديثي هنا نوعاً واحداً من المشاكل التي تعترض الحياة الزوجية لأنها أكثر أنواع المشاكل بين الأزواج، ولأنها تتعلق بمصلحة تنشئة الطفل. ومن المؤكد أن الاطباء النفسيين وخبراء شؤون الاسرة عندهم اكتشافات مثيرة عن عوامل النفسية التي تحفر قبر الزواج لتحوله إلى طلاق. بعض هذه العوامل قد يكون سطحياً ولكن هناك كثيراً منها مستتر في أعماق اللاشعور. أن الخيانة الزوجية مثلاً يكون سببها في أغلب الاحيان هو عدم الثقة في النفس، واليأس من الزوجة أو الزوج، وليس السبب الحقيقي هو الحب المفاجئ الذي اشتعل بسرعة مع طرف آخر، إن الاساس الذي قبل به أي اثنين فكرة الزواج هو اتفاق كامل على التعاون المتبادل وقد يتحول هذا العقد إلى ان يرغب كل منهما ولو دون قصد اعتبار الطرف الأخر طفلاً صغيراً. والمرأة التي تتمتع بقدرة على التكيف الاجتماعي ولكنها مسترجلة قد تختار لنفسها زوجاً من نوع مسالم ثم تجد نفسها بعد ذلك غير قادرة على احترامه أو الثقة به مهما كان هذا الزوج ناجحاً في الحياة العملية، وهناك رجل قد تعذب في طفولته بالاهانات الكثيرة ودفنت هذه الاهانات

في أعماق لا شعوره، ويجد نفسه في الطبيعة مندفعاً إلى تدمير حياته الزوجية عن طريق اثارة المشاكل مع زوجته. أما أحاسيس الحب والمواقف الرومانسية والحياة المثالية التي كانت موجودة قبل الزواج فسرعان ما تتبخر بعد الزفاف لا لشيء إلا أن هناك رواسب عميقة نحو فكرة الجنس والزواج والعلماء الدارسون لسلوك الانسان وعاداته خصوصاً لظاهرة الزواج يدهشهم هذا التطرف في مظاهر التعبير عن الحب في المجتمع الامريكي. وانتشار فكرة ان الحب شيء يهبط كالصاعقة على الانسان، وأن من يقع في أحضان مثل هذا الحب يعيش سعيداً إلى الأبد، والذي يثير دهشة العلماء هو ان نسبة الطلاق في المجتمع الامريكي هي من أعلى النسب. ليس هذا طبعاً عملية تشكيك في أهمية الحب ولكن عملية الزواج في كل بلاد العالم تكون محاطة في أغلب الاحيان بظروف والتزامات وأهداف تختلف عما هي عليه من مجتمع إلى آخر. فالزواج هو تحقيق لإرادة السماء وانجاب الاطفال وتربيتهم ليتحملوا أعباء تكوين أسر جديدة بحيث تكون الأسر كلها سعيدة بالعمل لبناء الوطن، وطبعاً مفروض في الزواج انه اتفاق قائم على مشاركة اثنين لتحمل عبء بناء الحياة. لذلك فإننا نرى إحاطة الحب هذه الهالة من السحر دون توضيح جانب المسؤولية فيه مسأله غاية في الضرر بالنسبة للشاب أو الفتاه لان الحب بهذه الطريقة الساحرة التي تصورها أفلام السينما ليس موجوداً في الواقع.

أن الواقع يقول ان الحب قد يؤدي إلى زواج والزواج يؤدي إلى تحمل المسؤولية وتحمل المسؤولية، معناه إلقاء عبء الإنسان على إنسان آخر إنما مشاركة هذا الإنسان في مواجهة أعباء الحياة. ان ذلك يجب ان يتضح تماماً في أسلوب تعليمنا للأبناء معنى الحب حتى لا يشعر الواحد منهم بعد

الزواج انه قد خدع من إنسان آخر أو يشعر ان الزوج لا يجعل الحياة جميلة كما تقول عنها الروايات وان الزوجة لا تحمل للزوج الهناء والسعادة على أطباق الراحة الذهبية.

ان كل زواج يجب ان يعرف الطرفان فيه قبل ان يتم مزايا وعيوب الآخر. وعلى كل واحد من طرفي هذا الزواج ان يرسم لنفسه الاسلوب الذي يمكن ان يتكيف به مع هذا الزواج، وكلما تقدم عمر الزواج حاول كل طرف إشعار الآخر بأنه قد ازداد فهماً له، وان الحنان هو الصفة الاساسية اللازمة لتحمل كل منهما للآخر.

إن السعادة في الزواج هي نتيجة للجهد المشترك الذي يبذله كل طرف وعلينا ان نعلم أطفالنا هذه الحقائق وان نكون قدوة لهم حتى يتعلموا منا ويسيروا في الطريق نفسه الذي سرنا فيه وان يطوره. انا كآباء يجب ان نبذل الجهد لتوضيح المسؤولية في الحب حتى لا يقع الأبناء في فخاخ الرومانتيكية غير الحقيقية التي تنتشر هذه الأيام. ان الحب ليس هو الهرب مع حبيب إلى جزيرة مجهولة بعيدة عن العيون ولكنه استكشاف لقدرة الإنسان على تحمل المسؤولية. وهكذا يمكن ان نلغي هذا "الغموض" المثير المنتشر في عقول الجيل الجديد عن الحب. ويستطرد دكتور سبوك في حديثه للأباء والامهات قائلاً انه من أصعب المسائل طبعاً على الوالدين ان يحاول أحدهما إقناع الطفل بأن كلاً منهما أصبح لا يصلح زوجاً للآخر وان الطلاق لابد من ان يحدث.

ومع ذلك فيجب ان نقول للطفل الحقيقة وان نحميه من الاثار المترتبة على الطلاق. عندما تكون كل الطرق مسدودة في وجهي الزوجين، وعندما تصبح الحياة بين الاثنين مسألة مستحيلة، وعندما تهجم أمواج الفشل على

سفينة الزواج ويصبح الغرق أمراً مؤكداً، وعندما ينظر الزوجان إلى محصلة الحياة الزوجية . .

قد تكون هناك أشياء كثيرة لابد من بحثها ولكن لعل أهم ما يمكن ان يفكر فيه الاثنان هو : كيف يقولان للطفل ان الطلاق سيحدث؟ من المؤكد ان مقداراً هائلاً من الارتباك يحدث . وقد يمنعهما الخوف من الإقدام على إخبار الطفل بالحقيقة .

وإني أتذكر أن سيدة ظلت لمدة عام كامل بعد الطلاق وبعد أن رحل الزوج عن البيت لا تستطيع ان تبلغ خبر طلاقها لابنها الذي بلغ من العمر تسعة اعوام . وعندما اكتشف الطفل هذه الحقيقة ظهرت عليه أعراض الخوف والهم والقلق وغرق الطفل في الفشل الدراسي . حدث ذلك قبل ان تخير الأم طفلها، وعندما أخبرته ازدادت المشكلة تعقيداً .

قد يتساءل أحد لماذا لم يسأل هذا الطفل عن والده طوال تلك الفترة؟ ان معظم الاطفال في مثل حالات الخلاف بين الآباء والأمهات لابد ان يسألوا عن آبائهم وقد سأل هذا الطفل أكثر من مرة، وتلقى الاجابة الغامضة : ان الأب مسافر وان عمله يشغله ليل نهار في مدينة بعيدة، ولكن في بعض الاحيان يشعر الطفل في أعماقه بان هناك مسائل معينه يحس الآباء والأمهات بالخجل أو الحرج عندما يتكلمون فيها، وكل الاخصائيين النفسيين يقولون ان أي تغير يتعلق بالمسائل العائلية الخطيرة يجب ان يبلغ للأطفال . يجب ان نقول الحقيقة في كلمات بسيطة واضحة على قدر الامكان لان الابن يشعر بما يدور في أعماق والديه وينتقل إليه الاحساس بالتوتر رغم ان الآباء لا يعرفون أنهم نقلوا إلى الابن هذا الاحساس بالتوتر .

أن الطفل خبير تلقائي بما يدور في نفس الكبار، بل انه يفوق الكبار في

بعض الاحيان لانه يملك "رادار" من الاحساس القوي، كما ان خبرة الطفل القليلة بأمور الحياة ومشاعره القلقه المضطربة أثناء الازمات بين أمه وأبيه تجعله يتصور الموقف بشكل أضخم يتجاوز الحقيقة كثيراً. انه "يكبر" المشكلة وتحتويه بل وتأكل اعصابه. ومن المؤلم جداً للطفل ان يعلم ان قرار طلاق أمه من أبيه اتخذه الاثنان فجأة اثناء معركة عنيفة. ان المطلوب من الوالدين ان يحاول كل منهما ان يهدأ نفسياً وان يترك الساعات والايام تمر ويراجع نفسه ويناقشها فربما تراجع الاثنان عن الطلاق.

وفي بعض حالات الخلاف بين الوالدين قد يفاجئهما الطفل بالسؤال التالي: هل صحيح انكما اتفقتما على الطلاق؟

إن هذا السؤال يدهش الأبوين خصوصاً لان خلافهما وصل فعلاً إلى التهديد بالطلاق ولكن دون أي نيه حقيقية بتنفيذ هذا الطلاق، ويكون السبب في هذه الحاله هو ان الطفل تسربت إلى سمعه بالصدفة عبارات الشجار بينهما وهما يحبسان نفسيهما في غرفة بعيدة ويظنان ان الطفل بعيد عنهما، لكن أذن الطفل الحساسة تستطيع ان تلتقط ما يهددة هو شخصياً بالخطر. وخلاف الوالدين بطبيعة الحال خطر على الطفل، وهنا يجب على الوالدين ان يؤكدا فوراً للطفل أنهما لا يملكان أي نية من هذه النوايا على الاطلاق، لان ذلك يعيد الاحساس بالاطمئنان إلى الطفل. لكن إذا اتفق الوالدان على الطلاق بعد شهور من المناقشة وبعد دراسة كل جوانب الحياة معاً، وأصبح الطريق بالفعل مسدوداً، هنا يجب البدء فوراً في مناقشة المسألة مع الطفل، حتى يمكن ان يفهم الاسباب والنتائج وان حالة التوتر الدائمة التي يعيش فيها الوالدان أصبحت مستحيله. ان ذلك هام حتى يمكن للطفل ان يهيئ نفسه للتكيف مع الظروف الجديدة المترتبة على طلاق الوالدين.

هنا لابد من طرح هذا السؤال: كيف يعرض الوالدان الموضوع على الطفل. وما هو الطريق إلى ذلك؟ ان هذا الحال يتوقف على عمر الطفل، وعلى أسباب الطلاق نفسها، وعلى موقف الأم والأب. فإذا كان الاثنان قد حاولا استشارة أحد الاخصائيين الاجتماعيين أو النفسيين أو أحد رجال الدين فلابد ان يكون الطفل نفسياً ودون ان يدري أحد الوالدين قد أحس بقرب الكارثة وعليهما ان يجلسا معاً للاتفاق على ما سيقولانه للطفل، والاسلوب الذي يتبعانه في رعايته ومعاملته. وإذا لم يكن الاثنان قد استشارا أحد الخبراء فعليهما ان يحاولا ذلك، ان استشارة الآخرين مفيدة لأنهما تمنحنا رؤية للموقف من زوايا مختلفة أما إذا حدث كل ذلك ولم يصل الاثنان إلى نتيجة سوى ان الطلاق يجب ان يحدث فعليهما التخطيط الواضح والواقعي لمناقشة مشكلة ومستقبل الطفل. لابد هنا من ان يرتفع صوت النضج والامانة، لابد ان نعرف ان الطفل ومصلحته وسلامة مستقبله تهمنا، أن أحداً لا يشك في أن أول حاجات الطفل في هذه الحياة هو ان يكون له أب وأم وبينهما حب قوي لا ينتهي لان الاثنين هما أساس حياته، والطفل يرغب في ان يكون عالمه الخاص به متماسكاً لا تمزق فيه ولا تصدع، ولكن بما ان الوالدين قد اتفقا على استحالة الحياة معاً فلابد من ان توفر للطفل كل الظروف التي تساعده على استمرار ايمانه بالأب والأم على السواء. ان هذا يجعله قوياً يتحمل صدمة الطلاق، والطفل نفسه يفهم انه جاء إلى الدنيا لأنهما أرادا ذلك ولا يمكن ان يتحول الأمر إلى عقاب للطفل بعد ذلك. ان الطفل مكون من جزء من ابيه وجزء من أمه، وهو نفسياً وجسدياً نبت من أرضهما، وكلاهما يتمتع عنده بمكانة المثل الأعلى. فإذا حاول أحد ان يقنع الطفل ان أباه مليء بالعيوب فلابد ان الطفل سيقنع أيضاً انه شخصياً يحمل هذه العيوب وتلك النقائص لان الولد مثل والده.

وكما تكون اخلاق وصفات الوالد تكون صفات وأخلاق الابن. هذا ما يعرفه الابن تماماً. وإذا حاول أحد ان يقنع الطفل بأن والدته انسانه سيئه، وهي الانسانة التي تعني بالنسبة للطفل مصدر الطعام والحنان في السنوات الاولى فسوف يفقد الايمان بنفسه وبها وبكل امرأة بعد ذلك.

ولقد أثبتت التجارب في مجال دراسة شخصية الطفل. اننا لن نضيء مستقبل الطفل عندما نقول له ان امه تم طلاقها من ابيه لأنها خانته مع رجل آخر، أو لأن أباه خانها مع امرأة أخرى، ولن نجعل الطفل يصل إلى الفهم الناضج لمشكلة ان أمه انسانه مشاكسة تجلب النكد وتجعله ضيفاً مقيماً في المنزل وانها انسانة غارقة في التفاهة وانها تجعل الحياة سلسلة من الاهانات، وتحتقر الأب وتمنعه من ممارسة حقوقه الزوجية، وماذا يفهم الطفل من اتهام أبيه لأمه بأنها متحيزة لأهلها وتقف دائماً ضد اهله، وانها تقيم الولائم لاسرتها وتكره زيارة أسرته؟

وماذا يمكن ان يستفيد الطفل من معرفة اتهام امه لأبيه بأنه انسان مستهتر لا يتحمل المسؤولية؟

ان كل هذه الاتهامات المتبادلة عندما تقال للطفل فهي تؤذيه. تحطم المثل الأعلى الذي يعيشه. تجعله يكره الحياة نفسها ويحتقر نفسه لأن أُسرته بهذه الصورة، وليس لدى الطفل أي قدرة على فهم الاسباب الخفية التي رسمت هذه الجو الخانق من الخلافات العائلية، وكل مايمكن ان يتبقى في نفس الطفل هو الكراهية الشديدة لنفسه والوقوع في براثن كراهية الطرفين معاً الأب والأم، ويتعذب لأنه يحبهما في الوقت نفسه، ويفقد الاحساس بالاطمئنان ويشعر أن الكارثة التي سيواجهها سببها الحقيقي أن الكبار فقدوا القدرة على إدارة حياتهما بنجاح .

وقد يتساءل الطفل: ولماذا الطلاق؟ انه يكرر السؤال مرة أُخرى. أنه لا يرغب في أعماقه أن يجد التكذيب الكامل لكل ما سمعه، من اتهامات وهو لا يرغب في أن تؤكد له اتهامات كل طرف للطرف الآخر ولا أن تقدم له أسباب جديدة تزيد حياته بالهموم. انه يريد أن يحتج على كل ذلك. وقد يقول: إن كل ما تقولانه ليس صحيحاً وليس هناك سبب مقنع لحدوث هذه الكارثة، ولهذا فعلى الوالدين أن يوضحا بطريقة مهذبة ولمرات متكرره للإبن بأن حياتهما معاً ليست سعيدة، وأنهما لا يمكن ان يستمرا في حياتهما معاً، وأنهما حاولا كثيراً ان تعود المياه إلى مجاريها ولكن بلا فائدة، وان كليهما مقتنع تماماً بأن الحياة ستكون أفضل عندما ينفذ الطلاق.

وطبعاً بإمكانهما الاشارة إلى سلاسل المعارك التي كانت تسبب التعاسه لكل أهل البيت، وفي حالة الابن الذي بلغ سن المراهقة فإنه يحاول أن يعرف الاسباب الفعلية التي سببت هذه الكارثه، ويمكن للوالدين أن يحكيا له عن اختلافهما بخصوص المسائل المالية أو علاقة كل طرف بأسرته أو إلى ان حياتهما الاجتماعية لم تعد مناسبة. المهم هو أن لا ندخل في أدق التفاصيل لانها تجرح إحساس الابن بوالديه وتشوه صورتهما والمهم ايضاً ان يتفق الاثنان على عدم وجود متهم واحد وضحية واحدة بل لابد أن يؤكد الابوان أن الفشل في استمرار الحياة الزوجية هو فشل مشترك، وأن كليهما عجز عن علاج هذا الفشل ولم يجدا وسيلة ناجحة لحسم هذه الخلافات الدائمة.

وليس المقصود طبعاً هو ان يهربا من الحقيقة امام الابناء، ولكن المهم ان نقول الحقيقة بطريقة غير جارحة. أعرف انني اطلب اجراءات مستحيلة.

اعرف ان "كرامة الآباء" قد تعمي البصيره عن هذا النوع من الشرح الهادئ للابن، ولكن كيف لنا ان نتصور حياة الابن وهي مشروخة محطمة لسبب ليس هو اولاً واخيراً المسؤول عنه. اننا يجب ان نلتقط لحظة تعقل واحدة لنقول خلالها للإبن ان الأب والام كليهما مسؤول إلى حد ما عن حدوث ذلك وهذا هو العدل لان اللوم يقع في هذه الحالة على الأبوين بالتساوي، وأن الفشل هو فشلهما معاً. فمحاولة تشويه صورة أحدهما أمام الطفل ليست في صالح الطفل، كما أنه ليس في صالحه أيضاً ان نجعله في موضع القاضي ونضع أنفسنا في قفص الاتهام حتى يدرس الادلة ويثبت درجة "إجرام" كل منا أو أن نضع الطفل في منصب الطبيب المعالج لمشاكلنا وأن يحكم على عيوبنا ونقاط الضعف والقوة فينا.

ليست هذه مهمة الطفل. وعلينا ان نعرف ان الطفل يجب ان يتأكد جيداً وبكل يقين أن والديه لن يتخليا عنه. كل الذي سيحدث هو أن أحدهما سيعيش بعيداً عن الآخر، وأن كلاً منهما سيحمل له من الحب مقدار ما كان يحمله له من قبل وأن الأب الذي سيخرج من البيت سيرى الإبن في أوقات مختلفة ليست متباعدة كما أن الأم التي خرجت من المنزل ستلتقي به في مرات ليست متباعدة ايضاً. وقد يظن أحد الكبار أن تلك الأقوال هي من المسائل البديهية وأنها لا تحتاج لان يقولها أحد للطفل، ولكن التجارب تقول إن الطفل يحتاج إلى التأكد تماماً من أنه لن يفقد أحد والديه. بل إن خيال الطفل الصغير قد يتمادى في تصوراته بأنه سيفقد أحد أعمدة حياته أعني الأب أو الأم إلى الابد.

ومن شدة الرعب قد يسأل: وهل انا ايضاً سأقع في كارثة الطلاق؟ وهو يقصد بذلك "هل سيتخلى عني والداي الاثنان وأظل في هذه الحياة

وحيداً" ؟ وحتى عندما يعرف أنه سيعيش مع امه فإنه يخاف إذا قامت بينه وبينها أي مشكلة أو خلاف ان يحدث بينهما ايضاً طلاق من نوع آخر. إنه يعيش في خوف دائم من ذلك التصور.

إنني أؤكد على ضرورة ان يمنح الطفل كافة الإجابات عن كافة الاسئلة التي يريد أن يسألها، وأن نمنحه الفرصة المتزنة للتعبير عن كل مخاوفه وشكوكه، وعن أن هذه الشكوك والمخاوف ستظل تساوره من وقت لآخر، وحتى إذا كانت الاجابات التي يتلقاها كافية وواضحة فإن هناك جزءاً من وجدان الطفل يظل رافضاً تمام الرفض لكل أسباب الطلاق مهما كانت منطقية، ولابد كأمر حيوي بالنسبة للطفل أن نؤكد له أنه لا دخل له على الاطلاق بأمر هذا الطلاق. ذلك ان بعض الاطفال قد يظنون انهم هم السبب في حدوث هذه الكارثة ويبدأون في لوم انفسهم.

إن هناك رغبة لدى الطفل في ان يساعد في تخفيف الازمة بين الوالدين فيعرض نفسه للإتهام وقد يوجه هو الاعتذار للإثنين ولكن طبعاً بلا فائدة ولهذا فهو يدخل كطرف مسؤول عن الطلاق، وهو ليس مخادعاً إلى الحد الذي يكون عليه الكبار عندما يعرفون كيفية العثور على متهم آخر غيرهم.

ان الطفل لا ينسى – على سبيل المثال – ان اسمه قد جاء مره اثناء احدى المشاجرات، فقد يحدث ان يستعمل أحد الابوين عبارة "لولا الابناء لما رضيت ان اعيش منذ البداية معك" ان هذا يستقر في عقل الطفل على اساس انه السبب في أزمات الآباء الدائمة، وقد يكون ذلك غير منطقي ولكن الطفل يتشبث برغبة مجنونه في حماية اسرته من الطلاق بأي ثمن.

أن الطفل قد يتوسل باكياً لأبيه ويرجوه ان يتوقف عن اجراءات الطلاق، وقد يتظاهر الأب بالموافقة وبأنه سيحاول تسوية المسألة، لكن الأب

طبعاً يكون كاذباً في ذلك، ولهذا فلا جدوى من ان يطول عذاب الابن. لعلك أيها القارئ تلاحظ اننا نتحدث الان باسلوب منطقي يجب ان يتبعه الآباء والأمهات عندما يبدأون في الانفصال. انني احلم بأن يكون أي زوجين قد وصلا إلى قرار الطلاق بشراً منطقيين يمكنهم ان يتصرفوا بشكل يحمي مصلحة الطفل. وهذا صحيح في بعض الحالات، أما في حالات اخرى فان المرارة والحزن والكراهية بين الزوجين قد تعمي العيون عن رؤية مصلحة الطفل. قد يكون الوالدان يفهمان نظرياً أهمية احتفاظ الابن بثقته في كليهما من أجل صحتة النفسية وبناء مستقبله، لكن احدهما قد يتعامى عن ذلك وهو يفسر اسباب الطلاق وخصوصاً عندما "يتشاجر" الوالدان مرة أخرى بخصوص الوصاية على الطفل أو الاتفاق على مواعيد زيارة الابن من قبل الذي سيترك المنزل. وطبعاً لابد ان يتناقش الابوان حول علاقة كل منهما بالطفل في المستقبل. فإذا اخذت الأم حق الوصاية والرعاية للابن فإنها قد تملأه بالشك في اخلاق الأب وسمعته وقد تصر على التدخل في اتصاله بالطفل أو رؤيته له، وقد يتمادى أحد الوالدين في كل مناقشة مع الطفل في تشويه سمعة الآخر بل وتشجيع الطفل على نقد الطرف الآخر والاساءة إليه .

والأكثر سوءاً من كل ذلك هو الحالة التي يرتكب فيها أحد الوالدين جريمة حرمان الطرف الآخر من رؤية الابن والتسبب في اكبر قدر من الآلام له أو اذلاله، وإذا دققنا النظر في هذا العداء الشديد بين رجل وامرأة جمعهما فراش واحد ذات يوم وأصبح كل منهما الآن منفصلاً عن الآخر فإننا سنكتشف ان هذه الكراهية ليست من النوع المقبول أو المعقول. ان فترة الفشل التي قادت إلى الطلاق تترك "بصمات" حالة نفسية تشعر كل طرف

بلذة تعذيب الطرف الآخر وإيذائه بأي صورة من الصور، وبطبيعة الحال عندما يصبح الطلاق امراً واقعاً فإن احساساً بالمهانة يستقر في اعماق أحد الطرفين ويستقر في أعماق كل منهما احساس بأنه بذل الكثير من أجل هذا الطرف الذي أصبح الآن عدواً له، ويشعر ان هناك سنوات من العمر قد ضاعت في الخداع والغش، وتزداد هذه الحالة عندما يشكو أحد الطرفين للاصدقاء أو للمحامي الذي يترافع في قضية طويلة عريضة تتضمن الصفات الدنيئة عند الخصم، وطبعاً عندما يعرض الامر على القضاء يشعر كل طرف انه برئ تماماً من هذه التهم التي صاغها المحامي بكل دقة ويشعر ايضاً بالاهانة الشديدة ونكران الجميل .

ثم هناك احساس خفي هو الاحساس بالذنب. ان هناك لحظات بعد الطلاق يراجع فيها كل طرف نفسه ويبحث عن دوره الذي قام به حتى وصلت الامور إلى هذا الحد من الأزعاج لنفسه ولاسرته، والذي حطم به هذا العالم الصغير الذي عاش فيه بعض لحظات السعادة، وهو لا يستطيع ان يعترف تماماً بأنه المسؤول الوحيد، انه يسرع بجنون وثبات نحو اثبات ان الطرف الثاني هو المسؤول عن الطلاق. ان كل انسان منا لا يستطيع ان يواجه اخطاءه الكبيرة والخطيرة مواجهة كاملة لأننا لو فعلنا ذلك لوقعنا في هوة الاكتئاب النفسي. اننا نهرب من مواجهة هذه الاخطاء ونجد في الحياة الاجتماعية السلوى والنسيان. نجدها عند الاصدقاء والزملاء والكل يغفر لنا. لذلك فإن كلاً منا يستعمل كل ما في قدرته من ذكاء حتى يوجه للطرف الآخر أكبر التهم ويلقي عليه المسؤولية الكاملة بأنه المسؤول عن الخطأ الكبير، وينتهي به الأمر إلى ان يصدق ذلك ويجعل الآخرين يصدقون أيضاً، وطبعاً يستدعي ذلك ان يدقق الانسان جيداً في شخصية وسلوك من

يدخل معه في اجراءات الطلاق. انه يبحث عن العيوب ويضخمها، وكلما وجد المزيد من العيوب والاخطاء عثر على اشد التفسيرات سوءاً، والانسان يمضي في هذه الطريق دون ان يحس، وقد يتمادى إلى ما هو أبعد من ذلك، فالزوج يظل يبحث عن الوسائل التي يمكن ان يستفز بها الزوجة المطلقة وذلك حتى يجعلها تخطئ في حقه ويستصدر ضدها حكماً اخلاقياً من نفسه ومن المجتمع ضدها، ويجد لنفسه العذر لانه طلقها ويتكلم عن نفسه بلهجة مليئة بالآسى ومدى الاضرار التي عاناها من سوء معاملة هذه الزوجة المطلقة، ويحاول ان يعثر من المجتمع الصغير الذي يعيش فيه بمن يقتنع بانه ضحية مسالمة وقعت بين انياب وحش مفترس، ولكن عندما لا يكون للانسان سبب يجعله يشعر بالذنب في أي مشكلة يمر بها فهو لا يواصل ترديد الحديث عن هذه المشكلة ويفتح أي حوار فيها، إنما يكتفي بأن يقول ان ما فات انتهى والحمد لله وأصبح من ذكريات الماضي.

قد يعتقد القارئ اني حاولت ان أضخم من سوء تصرف بعض الازواج والزوجات الذين يقعون في ورطة الطلاق وعدم احساس أي واحد منهم بأدب السلوك المهذب المتحضر وبالامانة مع النفس. ولكن الواقع يؤكد ما اقول بل قد يضيف إليه صوراً اشد ضراوة، وعند المحامين والقضاه وأوراق محاكم الطلاق ما يؤيد ذلك. إنني بكل اسف أرى ان الشخص قد يكون محترماً ومثقفاً وعاقلاً في عمله وعلاقاته الاجتماعية لكنه عند الانفصال عن زوجته يبدأ في البحث عن ألوان من المتاعب الصغيرة التي يتفنن في خلقها لزوجته، ونفس الكلام ينطبق على الزوجة، واكبر المجالات التي تكون عرضه للنزاع واثارة الضيق هي حق الوصاية على الابن والنفقة ونظام رؤيه الطفل خصوصاً اثناء إجراءات الطلاق، وقد يستمر هذا الوضع سنوات

تطول أو تقصر حسب مدى قدرة كل طرف على الارتفاع إلى مستوى الوعي والنضج النفسي الكامل للترفع عن هذه المسائل الصغيرة. ان شكاوى الازواج والزوجات بعد اتمام الطلاق لا تنتهي مادام هناك اطفال لهم، وكل طرف يحاول الهجوم على الطرف الآخر أو الدفاع عن نفسه، ودائماً نجد كلمة "مصلحة الأبناء" هي الستار الذي يستخدمه للتعبير عما في اعماقه من ضيق أو احساس بالمهانه. وأريد ان اشدد التأكيد على المطلقين من الآباء والامهات انهم يجب ان يرتفعوا إلى مستوى من النضج النفسي حتى يوفروا الحماية لاطفالهم من هذه الضغائن والسفاسف والمشاكل المتبادلة التي تحدث اثناء الطلاق، ولابد لهم من ان يختاروا أحد الاصدقاء أو أحد الأقارب ليكون قاضياً ليحكم فيماينشأ بينهما من مشاكل بسبب الطلاق، وعلى الإنسان الذي قد يُختار ليكون حكماً ان يفكر جيداً وبموضوعية في مصلحة الطفل أولاً واخيراً وان يوجه النصائح للأبوين المنفصلين بخصوص توفير حق رؤية الطفل لكل من الأبوين وان يحاول الوصول معهما إلى اتفاق مكتوب حول كل هذه المسائل، وإذا نشب خلاف في المستقبل يمكن الرجوع إلى هذا الانسان للحكم في هذا الخلاف وحتى يكون هذا الاتفاق قابلاً للتطبيق بصورة عملية فلابد ان نوفر لكل طرف قدراً من المرونة لان الظرف قد يتغير بالنسبة لأي زوج مطلق أو أي زوجة مطلقة، فقد ينتقل الأب إلى مدينة أخرى وكذلك الأم، كما ان الابن سيكبر وسيفضل الطريقة التي يختار بها قضاء اجازاته مع الوالد أو مع الأم، وطبعاً لابد ان تمر هذه الاتفاقيات برغبات في التعديل من أحد الاطراف، وقد يثير ذلك سلسلة جديدة من مشاكل الشك والارتياب وقد تصل الأمور إلى حد الغيظ الشديد ويحاول كل طرف ان يعيد النظر في حقوقة مرة أخرى.

ان كل طرف قد يظن ان حقوقه هي التي يجب ان تراعى أولاً واخيراً، وهنا لابد ان نتذكر ان الانسان الذي اتخذه المطلقان حكماً وقاضياً في أمورهما عليه ان يؤكد من جديد ان كل شيء أو أى تغيير يجب ان تراعى فيه مصلحة الطفل أولاً وأخيراً، وطبعاً نحب ان نؤكد ان من حق الاطفال الصغار ان يلتقوا بآبائهم أو أمهاتهم في فترات قريبة حتى تظل علاقاتهم بهم وثيقة وقوية. فحين يكون الطفل في عامه الأول أو الثاني يمكن ان تكون زيارة الطرف المطلق على الشكل التالي: ذهاب إلى متنزه عام أو نادٍ أو ركوب سيارة ولمدة النهار فقط. اما في الليل فيجب ان يعود الطفل إلى محل إقامته حتى يستقر وجدانياً، والطفل في عامه الثالث أو الرابع يفضل ان يقضي ليله أو ليلتين مع والده مرة على الاقل كل اسبوعين، وطبعاً عندما يبلغ الطفل سن الرابعة أو الخامسة يمكن ان يمنح الفرصة لقضاء جزء من اجازة الصيف أو الاجازات الاخرى مع الأب أو الأم حسب ظروف الطفل نفسه، وفي المسائل المتعلقة بمستقبل الابن ونوع دراسته فلابد ان يستشار الطرف الآخر، وايضاً في حالة اصابة الطفل بمرض خطير يجب ايضا ان يخطر والد الطفل أو والدته.

وبالرغم من ان الاتفاق الواضح بخصوص مسائل الابن يمكن ان يتضمن أدق التفاصيل الصغيرة والكبيرة ويمكن تضييق المجالات التي يمكن ان يدور حولها الخلاف بين الازواج المطلقين إلى أقل درجة ممكنه، إلا ان هذا الاتفاق لا يمكن ان ينفذ بشكل مرضٍ ما لم يدرك الأب والأم ان الهدف هو مصلحة الابن، وان يتنازل كل منهما عن إحساسه بالكرامة المجروحة من أجل مصلحة الابن وفي بعض الاحيان تكون هناك بعض الصعاب في ترتيب مسألة زيارة الابن لأبيه أو لوالدته إذا كان الأب مصمماً على ان يسبب

المتاعب للأم أو العكس، ولكن للمرة الألف نؤكد ان مصلحة الابن يجب ان تكون في احترامه لأبويه وفي ان ينال حقه الكامل من حبهما، وهنا يجب ان يستعمل كل طرف ذكاءه الكامل. ان إرضاء الطفل نفسياً يتم عندما يستطيع ان يستمتع فعلاً برؤية أبيه أو أمه كما ان كل طرف يجب ان يحاول إدخال السعادة على الطفل بأي طريقة من الطرق حتى يعوضه نفسياً عن عدم وجوده في منزل يضم الأب والأم معاً، وهذا يمكن ان يحدث عن طريق تقديم الهدايا أو القيام برحلة تسعد الطفل أو زيارة للسيرك، ويجب ان لا تعتبر الأم عودة ابنها من زيارته لأبيه وهو محمل بالهدايا مسألة مزعجة بالنسبة لها أو العكس بمعنى انزعاج الأب من عودة الطفل من زيارته لامه وهو محمل بالهدايا. ان بعض من هم في هذا الوضع يعتبرون الهدايا "رشوة" يسرق بها الطرف الآخر قلب الابن.

ان تلك الهدايا مسألة تسعد الطفل وحديثه عنها يمتعه، ويجب ان لا يشعر الطفل ان هذا الحديث هو مسألة جارحة لمشاعر الأب أو الأم. ان الطفل يعرف ان لاشيء في العالم يمكنه ان يعوضه حنان وحب الأب أو حنان وحب الأم وهذه هي القاعدة الأساسية التي يجب ان يقيس بها الأمور كل زوج منفصل أو زوجة منفصلة، والتجارب تعلمنا الكثير عن تلك القاعدة.

ان مؤسسات توجيه الاطفال والعيادات النفسية تؤكد ان الطفل الذي يفقد حب الأب فعلاً يعاني من القلق النفسي والتوتر، وهكذا الأمر بالنسبة للطفل عندما يفقد حب الأم. ان بعض الآباء والأمهات يفقدون القدرة فعلاً على منح الحب للأبناء وقد يتصورون ان الهدايا يمكن ان تحل محل الحب، والطفل يحتقر في أعماقه هذا الأمر. ان الطفل يحتقر الهدية حتى لو طلبها

حين تكون بديلاً عن حب الأب أو الأم.

ان البعض يظن ان الهدية هي اعتذار عن ذنب وقع في حق الطفل، ولكن هذا الاعتذار لا يقبله إلا ان تقديم الهدايا واجب على كل حال، وفي بعض الحالات تقتصر رؤية الطفل لأحد والديه اثناء رحلة يقوم بها الأب أو الام. ان جو الرحلة عموماً لا يتيح للطفل الفرصة الكاملة للاستمتاع بحب والده أو والدته. ان علينا ان نعرف انه بعد الطلاق ستكون هناك "قطيعة نفسية" تحدث بين الطفل وبين الأب الذي خرج من المنزل أو بين الأم التي غادرت المنزل. ان هذه القطيعة النفسية تتطلب ان يتجاوزها الأب والابن معاً. ان الابن يطلب ان يجدد معرفته بالاب ونفس الأمر ينطبق على الأم أيضاً، وهذه "القطيعة النفسية" تحتاج إلى وقت حتى ينتصر الاثنان عليها. لذلك فمن الافضل ان يكون اللقاء بين الابن وابيه بعد الطلاق بعيداً عن جو الرحلات الذي لا يمنح فرصًا طبيعية لإعادة التعارف. بل يفضل أن يكون اللقاء في المنزل الذي يقيم فيه الأب أو حتى في الفندق، وان يقوم مع ابنه ببعض الاعمال المنزلية أو يلعبا معاً لعبه أو يقرأ مع ابنه في كتاب يثير دهشة الابن واعجابه، وطبعاً ليس المطلوب ان يكون الوقت كله على هذا النحو، فمعنى ذلك ان الابن سيتحول طوال الوقت إلى خادم ومجيب لرغبات الأب، وهذا طبعاً يسبب الملل للوالد وللطفل معاً. ان كليهما في حاجة إلى "اجازة قصيرة" اثناء الوقت الذي يمضيانه معاً حتى يقوم كل منهما بأي تسلية شخصية رغم ان المكان الذي يقيمان فيه واحد، ومن السهل طبعاً ان يحمل الطفل معه ألعابه وهو ذاهب لزيارة أبيه ومن السهل على الطفل أيضاً ان يقيم الصداقات في الحي الجديد الذي يسكنه الأب بعد الطلاق وان يقضي فيه وقتاً رائعاً.

وعلى الوالد ان يحذر عدم التفرغ النسبي للابن أثناء زيارته له، فلا يترك الطفل وحيداً، اللهم إلا إذا استطاع ان يوفر للطفل نوعاً من التسلية الحقيقية وهذا طبعاً شيء عسير على الطفل، لأن الطفل يرغب في أن يبقى مع أبيه معظم الوقت خصوصاً إذا كان على الطفل ان يعود بعد ذلك إلى بيت الأم، ومن السهل على الوالد بعد ان يعتاد الابن أسلوب الزيارة له، من السهل على الأب ان يضم ابنه إلى زمرة أصدقائه الجدد من أسر الحي، وان يخرج الجميع في رحلات أو يتجهوا إلى أحد النوادي.

وإذا كان عمل الأب المطلق قد تغير مكانه من مدينة إلى أخرى فعليه ان يعرف ان حاجة الابن لرؤيته لا تتأثر ببعد المكان. ان الابن يحتاج إلى رؤية أبيه ويشتاق إليه وإذا كان انتقال الأب من مقر عمله إلى المدينة التي يقيم فيها الطفل مرهقاً من الناحية المادية فعلى الأب ان يكتب رسالة اسبوعية للإبن وعليه ان يعطيه الوقت الكافي أثناء عطلات الابن الدراسية، وعليه ألا ينسى عيد ميلاده وألا ينسى ان يرسل له الهدايا أثناء الاعياد، ويجب ان لا يحدد الأب ميعاد زيارته للابن ثم يخلف هذا الميعاد لان ذلك يصيب الطفل بخيبة أمل ويقلل من ثقة الابن في ان الأب ما زال على عهده بالحب، ولاشك ان هناك بعض الآباء المرهقين بكثرة مشاغل العمل قد يكون لهم بعض العذر في حدوث مثل هذا الخلل في الوفاء بمواعيد لقاء الابناء.

لكن لماذا لا يعتذر الأب عن ذلك ويحدد ميعاداً آخر ويحاول مقاومة أي طارئ يمنعه من لقاء ابنه؟ وذلك حتى يوفر للابن الاحساس بالاطمئنان وبالراحة النفسية. ذلك ان الطفل لا يتحمل انتظار والد لا يزوره. ان بعض الأباء في حالات الطلاق قد يلغي ميعاد اللقاء بابنه أكثر من مره لانه يجد نفسه في موقف بالغ الحرج لانه لا يعرف كيف يجعل هذه الزيارة ممتعه

للطفل. كما ان بقايا الخلافات والإحساس بالكرامة الجريحة بعد الطلاق بين الأب والأم قد يجعل الأب أيضاً غارقاً في الإحساس بالذنب ولا يعرف كيف يتصرف معه ابنه ولهذا فهو يتعمد إلغاء مواعيد اللقاء بالابن حتى لا يلتقي أيضاً بأمه التي تثير في قلبه ذكريات المرارة والفشل وهو قد يظن ان هذا الموقف الجديد يضعه في موقف الغريب عن الاسرة، وقد يكون السبب هو عجز الوالد المؤقت عن دفع نفقات الابن أو لان الأم تتخذ من لقاء الأب بانبه فرصة لتعكر صفو مزاج الأب بعد ان نال الطلاق. ان الأم يجب ان تترفع عن مثل هذه التصرفات إذا كانت مقتنعة تماماً بالحقيقة وهي ان الابن جزء من أبيه وانه يحتاج إليه.

ان الأب يجب ألا يتهرب مهما كانت الظروف من مواجهة الابن لان ذلك يخلق للابن موقفاً غاية في الضيق والحرج. أما انا بموقفي الواضح هو انني اتخذت مصلحة الابن موضوعاً فوق كل خلاف. وهذا الموقف هو خلاصة خبرة تعاملي مع المطلقين والمطلقات إذا أرادوا لأبنائهم نجاحاً في الحياة.. وأكرر ان فكرة الابن عن أبيه هي نفس الفكرة التي يتخذها عن نفسه، وفكرة الطفل عن أمه هي نفس الفكرة التي سينظر بها إلى زوجته في المستقبل، وفكرة الابنه عن أبيها هي نفس الفكرة التي ستنظر بها إلى الرجال عندما تنضج، وفكرة الابنة عن امها هي نفس الفكرة التي ستحاول ان تكون عليها في المستقبل.

ولهذا فيجب ان لا يقف الطلاق حاجزاً في تكوين أحاسيس الحب في قلوب الابناء لأبائهم وامهاتهم. ومرة أخرى أعود إلى الحكمة التي تقول: ان الخير يقهر الشر، وإذا كان كأس الماء عاجزاً عن اطفاء حريق فهذا لا يعني ان الماء غير قادر على اطفاء النار، ولهذا على أي زوجين يصلان إلى مرحلة

اليأس من البقاء معاً المحاولة وبذل جهد أخيً للابقاء على أواصر العلاقة، ان لم يكن من أجلهما فمن أجل الاطفال على الاقل. فزوجة الأب لا يمكن أن تأخذ مكان الأم، وزوج الأم لا يمكن ان يصبح أباً ثانياً لاطفال رجل آخر، وأول ما يشعر به الابناء بعد طلاق والديهم كما تدل الابحاث هو الصدمة، قد يشعر الاطفال بقرب حدوث شيء ما.. ومع ذلك لا يصدقون ما يحدث عندما يقع الطلاق بالفعل، وقد تكون للصدمة آثار بدنيه عليهم، مثل الشعور بالألم في المعدة والحساسية والصداع، أو يترتب عليه صدمه نفسية كميل الاطفال للكذب والشرود وادعاء المرض، للحصول على مزيد من الاهتمام ولو من جانب واحد الأم أو الأب ومن اقوى المشاعر التي تطفو على السطح، الشعور بالغضب، وهذا الشعور يدفع الابناء إلى الانطواء أو العدوانية، ومن الطبيعي ان يشعر الطفل بالغضب، فهو لا ذنب له فيما حدث، ولم يطلب من أبويه ان ينجباه ثم يتخليا عنه، أو يتخلى عنه أحدهما للآخر.

ووسط الشعور بعدم الامان تنتاب الطفل الناتج عن علاقة فاشلة المخاوف والاحساس بالوحدة، وأغلب الامهات يتصرفن بجهل وأنانيه حين يلقين اللوم على الأب مراراً وتكراراً بعد الطلاق، وبذلك يدفعن اطفالهن إلى كراهية الأب وتحميله مسؤولية الانفصال، وتكبر الكراهية كلما كبر الاطفال، ويصعب انتزاعها فيما بعد، ودأبت مطلقة جاهلة على تحريض اطفالها ضد والدهم ودفعهم لابتزازه مادياً كتعويض عن انفصاله عن والدتهم رغم أنها هي التي طلبت الطلاق وأصرت عليه، وتعود الاطفال ان العطاء المادي دليل الحب، وفي اللحظة التي يعتذر فيها الأب عن طلباتهم التي لا تنتهي يصرخون فيه: أنت لا تحبنا! ولا يمكن أيضاً إغفال تأثير

الطلاق على المستوى العلمي للاطفال، ويعود ذلك إما إلى عدم رغبتهم في التعلم كنوع من الاحتجاج على ما حدث، أو لعدم وجود رقابة ورعاية كافيتين، وما يزال الاهل كما تقول الكاتبة "سيمون دي بوفوار" يربون ابنتهم من أجل الزواج أكثر من أن يشجعوا تطويرها الشخصي، والفتاة ترى في ذلك من المزايا ما يبهرها حتى انها تتمناه لنفسها، وينجم عن ذلك انها تكون غالباً أقل اختصاصاً وأقل اهتماماً بمهنتها. لذلك تبقى أقصر باعاً منها، وكثيراً ما تعتري الناس الدهشة امام السهولة التي تتخلى فيها الفتاة عن الموسيقى والدراسة والمهنة إذا وجدت زوجاً أو إذا طلب منها الزوج ذلك، الأمر الذي يدل على انها لا تعلق أهمية على هذه المجالات الفكرية، والاخطر على كينونتها كانسان له افكار ورغبات خاصة ينبغي احترامها وتفهمها.. ولهذا غالباً ما تنتهي هذه الزيجات بالفشل، إذ بعد انقضاء شهر العسل بشهور أو سنوات، تبدأ المرأة بمحاولة استرداد بعض الحقوق التي تخلت عنها طوعاً للرجل الذي ارتبطت به، وتحدث مصادمات ظاهرة أو خفيه في سبيل الاستقلال الذي ضاع..

الصراحة .. مفتاح السعادة

وننتقل بعد ذلك إلى موضوع آخر .. يعتقد أكثر الناس إن الصراحة المطلقة بين الزوجين هي المفتاح الحقيقي للسعادة، ويؤكدون ان الزواج السعيد هو زواج بلا أسرار، ولكن هناك مدارس اخرى يرأسها نخبة من كبار المحللين وعلماء النفس يرون ان الصراحة المطلقة خطر على العلاقة، وليس كل ما يعرف يقال، ويجب ان يكون لكل من الزوج والزوجة حياته الخاصة والمستقلة بعيداً عن الآخر، وبالتالي اسراره الصغيرة حتى لو كانت تافهه، وبين الرأيين هناك رأي ثالث يرى ان المعادلة الصعبة هي ان يتحقق التوازن في المصارحة بين الزوجين، وان يحتفظ كل منهما في الوقت ذاته ببعض الأسرار التي لا تضر الحياة الزوجية في حالة اخفائها، الزواج شركة كما هو معروف، يتنازل فيها كل من الزوج والزوجة عن بعض حقه مقابل ما يأخذه من الطرف الآخر، وبذلك تتأسس الشركة على اساس التنازل عن جزء من الشخصية والمتطلبات الأخرى .

وهذا الاندماج لا يعني التنازل عن كل شئ، ويبقى بعد كل ذلك لكل من الزوج أو الزوجة جانب من الخصوصية، فالزوج له أسراره ربما في الماضي، وله علاقاته الخاصة باسرته أو اصدقائه، ولزوجته أيضاً لها أسرارها، كعلاقاتها مع اهلها، أو حب قديم قد يهدم الكشف عنه سعادتها، والإسلام يبني احكامه وتشريعاته على أساس الحفاظ على الاسرة.

والمسألة أولاً وأخيراً تتعلق بطبيعة كل زوجين وطريقة تفكيرهما، ودرجة وعيهما، وما ينطبق على زوجين معينين لا ينطبق على غيرهما، على سبيل المثال قد يتقبل الزوج الغربي ان تحدثه زوجته عن زوجها السابق بحريه تامه في حين ان الرجل الشرقي لا يتقبل ذلك ولا يهضمه، فللبيئه

والثقافة واسلوب التربية دور كبير في تكوين الشخصية وتشكيل معتقداتها، وفي الزواج الوثيق العلاقات بين الزوجين، يفتح كل طرف قلبه للطرف الآخر، ولا يخفي عليه أي شيء، وهذا هو الزواج المثالي عندما يتمكن الزوج من البوح بكل شيء لرفيقة مشوار حياته، وعندها تتمكن الزوجة من قول كل شيء لزوجها دون الخوف من المعايره فيما بعد!

ومرة أخرى انتقل إلى قضيه الراتب راتب الزوجه اذ حسم مفتى الديار المصرية الشيخ جاد الحق قضية كانت وما تزال تؤرق معظم الزوجات العاملات حين قال: إن راتب الزوجة من حقها هي فقط، وليس للزوج ان يستغل زوجته تحت أي ظرف،

وبقيت قضية الأسرار الصغيرة الخاصة بالزوجة دون حل وخاضعة للرقابة.

تقول إحدى الزوجات بضيق شديد: اعتاد زوجي فض الرسائل الخاصة بي والتي تصلني عن طريق بريده الخاص ولم يكن في تلك الرسائل ما يشين إلا انه كانت تحمل في طياتها اسرار صديقاتي اللواتي سافرن للحصول على الماجستير والدكتوراه في لندن ومصر، وفي كل مرة نجلس فيها معاً كان يشهر بتلك الأسرار ويسخر منها، ولطالما تشاجرنا بسبب ذلك وفي كل مرة يعدني بألا يطلع على الرسائل ولكنه ينكث وعده ويسلمني إياها بعد أن يقرأها، وفي إحدى المرات ذهبت لاستلام البريد بنفسي وكان هو مسافراً للخارج في رحلة عمل، ووجدتني بلا وعي أفض الخطاب المرسل إليه من البنك وأذهلني ما اكتشفته، إذا كان لزوجي رصيد ضخم لم أتوقعه، ولما عاد لم اناقشه فيما عرفت بل سلمته الخطاب المفتوح وكانت النتيجة ثورة عنيفه لم أحسب حسابها، وبدوري أتساءل لماذا يغضب من فعل لا يستهجن هو القيام به؟.

وإيمان زوجة في الخامسة والثلاثين تطرح وجهاً آخر للمشكلة فتقول: لم اتحدث يوماً مع زوجي حول هذا الموضوع، اقصد حقه في قراءة رسائلي وأوراقي الخاصة القديمة أو الجديدة، أو حقي أنا إيضاً في الاطلاع على خصوصياته، ولكن تفجرت المشكلة بيننا ذات صباح دون ان أدري، في ذلك اليوم جاءتني رسالة من صديقة طفولتي "هبة" كانت فرحتي بها غامرة "هبة" لم تكن صديقة عادية، إنها صديقة عمري، وأيضاً زميلتي في الجامعة، بيننا حكايات وذكريات مشتركة، لا تنتهي ولا تنضب، حقاً لقد انقطعت خيوط الصداقة بيننا في الأونة الأخيرة بهجرتها مع زوجها إلى كندا وانشغالي أنا أيضاً بحياتي الخاصة، ولكن الصداقة لا تموت ابداً، كانت كلماتها تفصح عن المشاكل والخلافات التي تعاني منها في حياتها الزوجية، كانت كلماتها أيضاً تستعيد تلك المشاعر الماضية التي راودتها قبل الزواج، وجدتني أمسك بالورقة والقلم وأخط انا أيضاً العديد من المشاعر والاحاسيس التي تجيش في صدري، ولم أبح بها يوماً لزوجي، وحدث ما لم أكن اتوقعه، لقد قرأ زوجي رسالتي لصديقتي كما قرأ بالطبع رسالتها لي، وفجأة رأيت وجهاً آخر لزوجي مختلفاً عن ذلك الوجه الهادئ الرزين العاقل، لقد كشفت هذه الرسائل شخصه الحقيقي، فإذا بكل الاقنعة تسقط، وإذا به مجرد رجل ينقصه الوعي والفهم وسعة الادراك، ومع هذا الاكتشاف تصاعدت الخلافات والخناقات وأصبح زوجي يتدخل في كل صغيرة وكبيرة في شؤوني الخاصة، وانعكس هذا على تصرفي فصرت انا الاخرى عصبية في ردودي، وكلماتي جافة ومقتضبه، بإختصار وفي كلمة واحدة أصبحت المشاكل والخلافات لا تنقطع يوماً، وحياتنا باتت في حكم المنهيه! وكل ذلك لأنه أباح لنفسه الاطلاع على اسرار لا تسيء إليه ولا تخصه.

هناك نصيحة توجه إلى كثير من الزوجات، وهي أن تستطلع الواحدة منهن أولاً وبحرص شديد الطبيعة الشخصية لزوجها، وما إذا كان سيتقبل الأسرار القديمة والجديدة برحابة صدر أم لا، فإذا كان الكشف عن هذه الأسرار سيسبب توتراً في العلاقة بينهما دون داع فمن الافضل كتمانها مادام عدم الكشف عنها لا يضر بالحياة الزوجية، وليس المقصود هنا ان الحياة الزوجية يمكن ان تبنى على الخداع، أو ان الزوجة يمكن أن تخفي عن زوجها الاشياء المصيرية، ولكن المقصود هو ان الزوجة عندما تبدأ صفحة جديدة مع زوجها فان الماضي يكون خلف ظهرها لا أمامها ونحن عادة نسير إلى الامام لا إلى الخلف،

ومن الامثلة على سوء تقدير الأمور والاندفاع في صراحة لا مبرر لها ما حدث لشاب تزوج بعد قصة حب قصيرة وصارح زوجته بأنه كان يحب ابنة خالته في الماضي، لكنها رفضت هذه الحب، وهو من جانبه سلا حبها، ومنذ تلك اللحظة وزوجته لا تطيق خالته ولا بناتها، وترفض زيارتهن، وإذا صادف وجودهن في تجمع عائلي تتجاهلهن وتسبب له إحراجاً ما بعده إحراج، وإذا كان قليل من الكذب الابيض لا يضر فان الاحتفاظ ببعض الأسرار أمر لابد منه.

وهناك أشياء وفقاً لتأكيدات الخبراء يجب ألا تخفي أو تدخل في دائرة الأسرار على الاطلاق، ومنها اخفاء مصادر الدخل عن الطرف الآخر، مما يدمر الثقة بين الزوجين، ومن الأسرار التي يجب ألا يخفيها أحد الزوجين عن الآخر تلك المتعلقة بالانجاب، وأذكر على سبيل المثال قصة فتاة صغيرة زفها والدها وهي لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها إلى رجل سبق له الزواج والطلاق عدة مرات دون ان يكون له ذريه.

وفي العام الثاني اصطحبها زوجها للعلاج من أجل الانجاب، واستمرت رحلة العلاج والعذاب سبعة أعوام خضعت فيها لعمليات عديدة وتناولت آلاف الاقراص وتركت الحقن علامات زرقاء لا تمحى على جسدها، وزوجها المقتدر ينفق بسخاء على علاجها، وهو يحتفظ بسر عقمه لنفسه موهماً إيّاها انها هي السبب!! وعندما اكتشفت سره مصادفة ومن زوجة سابقه له كرهته وكرهت حياتها برمتها!

ومعظم الخبراء يطالبون الزوجين بكشف أسرارهما إذا كان لها اثر مباشر على الزوجين في المستقبل. أما إذا كانت هذه الأسرار لا تؤثر على سير الحياة بينهما فلا داعي لإفشائها، والاحتفاظ بها افضل. عندما تترك الفتاة منزل ذويها وتنتقل إلى عشها الجديد تحمل معها احياناً بعض الذكريات المتمثلة في أوراق أو صور، وعندما ينتقل الرجل إلى داره الثانية قد ينقل معه بضعة خطابات قديمة يجد صعوبة في التخلي عنها، هذه الاشياء الخاصة جداً والتي تنتقل مع أحد الطرفين إلى منزل الزوجية تفقد خصوصيتها وتتحول إلى سلاح قد تنطلق منه رصاصه قاتلة في أية لحظة حين يعبث به الغرباء، والغريب هنا هو الشخص الذي لا يحق له النبش في اعماق الماضي حتى لو كان الزوج أو الزوجة. سعاد ٢٩ عاماً ومتزوجة حديثاً تقول: تركت أوراقي ورسائل صديقاتي وصورهن في بيت اهلي، تركتها في غرفتي، لم أجرؤ على ان احملها معي إلى بيتي الجديد، فقد يطلع عليها زوجي في يوم ما وتحدث بيننا مشاكل نحن في غنى عنها، كما انني لم اجرؤ على تمزيقها والتخلص منها، كيف يمكن أن اتخلص من ٢٩ عاماً من الذكريات في لحظة واحدة؟ لذلك تركتها في بيتي الاول وآثرت السلامة.

وتقول احدى الزوجات: يقرأ زوجي دائماً كل شيء يخصني، أوراقي

والرسائل التي تصلني، بل انه يفتح حقيبة يدي، ويعبث بمحتوياتها، وأحياناً يحصي نقودي، لذلك كنت حريصة منذ اليوم الاول لزواجنا على التخلص من كل ذكريات الماضي لانني اعرف حق المعرفة طبيعة زوجي الفضولية، هذه التصرفات تستفزني طبعاً فانا اشعر دائماً بأنني مراقبة، وهذا الشعور يسلبني الاحساس بالأمان والراحة، ونتيجة لهذا الاستفزاز اليومي أصبحت عصبية قلقه أثور لأتفه الأسباب وكان يرد على ثورتي بهدوء قاتل: ما الذي يغضبك لهذه الدرجة؟ هل اتخافين ان اكتشفت شيئاً لا تريدين أن اكتشفه؟ والاستمرار مع هذا الزوج مستحيل.

زوجة اخرى تحكي قصتها قائلة: حملت معي أوراقي ورسائل صديقاتي القديمات إلى بيتي الجديد، بيت الزوجية وقررت أن أخفيها وسط ملابسي تماماً كما لو كنت اقترف جرما، ومضت الايام وتتابعت الأعوام ولم افتح يوماً تلك الرسائل القديمة، وفي ذات صباح وبينما كنت أرتب ملابسي وأشيائي الصغيرة لمحتها كالعادة، وتملكني فضول عارم ورغبة قوية في ان استعيد لحظات المراهقة بما فيها من حيوية واندفاع وفرح طفولي، عيناي تقفزان فوق السطور تلتهمان الكلمات، وابتسامة سعيدة ترتسم على محياي دون ان اشعر وانا أعيش سنوات العمر الجميلة، يا أحلى سنوات عمري، يا طفولتي البريئة يا سنوات الجامعة السعيدة، وفجأة انفتح الباب واطل زوجي العزيز برأسه الشامخ وملامحة الحاده، والتفاصيل لا داعي لسردها ولكن يكفي أنه اصر على أن يقرأ كل تلك الاوراق، وبعد أن رفضت قاطعني شهوراً طويلة، لا يتحدث معي، ولا يتعامل معي ابداً، وإلى اليوم ورغم كل المحاولات التي أبذلها للاقتراب منه، ما تزال حياتنا الزوجية متوتره وغير مستقره وهذا تصرف خاطئ، فإذا كان هناك شيء سيكدر

صفو العلاقة الزوجية، فيجب كتمانه إلى الابد ما دام قد تحول إلى تاريخ قديم!

وإذن فإن الاحتفاظ بقليل من الأسرار لا يضر. لقد عرض التلفزيون الامريكي برنامجاً مثيراً لفت انتباه ملايين الازواج إلى نقطة مهمه كانت غائبه عن أذهانهم وهي ضرورة الاقتصاد للمستقبل، واستضاف البرنامج عدة أسر، وتحدثت كل اسرة "الزوج والزوجة" عن مصادر الدخل وكيفية انفاقه! ولاحظ معد ومقدم البرنامج ان معظم الدخل وعادة ما يكون مرتفعاً "خمسون ألف دولار سنوياً" في المتوسط ينفق على أمور تافهه كالملابس والألعاب وأحياناً على الرحلات والحفلات، وبعد هذه المواجهة مع النفس كان يتم عرض كل عائلة على حده على خبير اقتصادي ويتولى الخبير مهمة شرح أبعاد هذا التبذير مستعيناً بالارقام ومذكراً إياهم بأنهم لن يجدوا ما يقيم أودهم عند بلوغهم سن التقاعد إذا لم يبدأوا بالتوفير المبكر.

واعترف معظم الازواج بأنهم لم يفكروا في الغد وما قد يخبئه من شبح الفقر، وكان تركيزهم على حاضرهم فقط، والادخار لا ينحصر في النقود فقط وإنما يشمل ادخار العواطف للغد.. للمستقبل.. وهذا ما لا يفعله الكثيرون فهم وفي السنوات الأولى من الزواج يبالغون في العطاء وإظهار الاهتمام والحب .. ثم يكفون عن ذلك مرة واحدة احياناً لنضوب العواطف التي استهلكت بتهور، وأحياناً عن سأم!

تقول زوجة: كنت ألوم زوجي مراراً وتكراراً لانصرافه عن ترديد كلمات الحب التي كان يقولها لي في فترة الخطوبة، وكان يقابل إلحاحي بالصمت أحياناً وأحياناً أخرى بكلمات اعتذار رقيقه كانت تزيد من ثورتي وغضبي، واعتبرت هذا العزوف دليلاً على فتور حبه وتعمدت أن اعامله

بالمثل، وبعد شهور وقع لي حادث كدت أفقد فيه حياتي، وعندما أفقت من إغمائي وجدت أهلي يحيطون بي وترددت من حولي عشرات الجمل التي تهنئني بالسلامة ولم اتذكر سوى كلمة حبيبتي التي ما فتئ زوجي يكررها بخفوت وهو واقف بجانب سريري ممسكاً بيدي، شعرت بأن تلك الكلمة صادقة وخارجه من الأعماق، وفكرت فيما بعد، لو كان زوجي يكرر تلك الكلمة على مسامعي ليلاً ونهاراً هل كنت سأشعر بالسعادة مثلما شعرت في تلك اللحظة؟

الآن مر على زواجي سبع سنوات وزوجي ووالد أطفالي لا يبتذل عواطفه على نحو ظاهر كما يفعل زوج أختي الذي يبالغ في إحاطتها بالعطف والغزل وكلنا نعرف أنه يخونها ، لكن عندما يفاجئني زوجي بكلمة حب تخرج من شفتيه بشكل عفوي تغمرني سعادة لا حدود لها وأخجل من غبائي السابق الذي صور لي أن ابتزاز العواطف يبقيها حيه !

وتدل الإحصاءات على أن أغلب حالات الزواج التي تمت بعد قصة حب طويله انتهت بالفشل لأن أصحابها استهلكوا مشاعرهم حتى لم يعد هناك جديد يقال بعد أن تم الزواج، والمقصود هنا المحبون الذين ينفقون ساعات طويله في الحديث عن مشاعرهم عبر الهاتف على سبيل المثال دون أن يتطرقوا إلى قضايا عامه أو خاصه أو يتناقشوا في المصاعب التي قد تواجههم مستقبلاً، ويدور الحوار بينهم على النحو التالي، يقول الفتى لفتاته: أحبك فتقول له وأنا أحبك أكثر، لم أنم البارحة لكثرة ما فكرت بك، وأنا أفكر فيك حتى وأنا معك، حياتي، أنت كل شيء في حياتي!

وتمر ساعات وأيام وشهور دون أن يتغير الحوار، وليس غريباً بعد ذلك أن يتفرغوا بعد الارتباط للشجار والمناكفة والهروب من العلاقة بشتى الطرق!

تقول الدكتورة « جوديث والرستين » صاحبة كتاب « فرص ثانيه » الذي نشرته في بداية عام ١٩٨٩، إن حل مشاكل الزواج المضطرب لا يكمن في اخفاء المشاكل تحت السجاده إذ أن الأزواج الذين يصرون على اسنانهم ويكشرون لا يقدمون مثالاً طيباً لأطفالهم على المدى البعيد، بل سينتهي بهم المشوار إلى حافة الطلاق .

وكذلك اثبتت الدراسات والاحصائيات الصادرة عن مركز أبحاث الزواج في جامعة ميتشجان الأمريكية أن النساء والأطفال هم أكثر المتضررين من حالة الطلاق ، وأن نسبة ٤٠٪ من النساء اللواتي يطلقن بعد سن الثلاثين لا يتزوجن مرة أخرى ، وأن الكثيرين ممن يعاودون الزواج يفاجأون بمشاكل زوجية جديدة ، لعل أهمها عدم تقبل الزوج أو الزوجة لأطفال لا يمتون لهم بصله .

وأثبتت الدراسات كذلك أن نسبة الطلاق في الزواج الثاني تزيد عنها في الزواج الأول بنسبة ٢٥٪ كذلك اعترفت ثلث المطلقات في الدراسة التي أجرتها الدكتوره « جوديث » أنه بعد عشر سنوات من الطلاق يعشن حياة الظلم والملل والوحدة .

ولكن لماذا تعاني المرأة أكثر من الرجل بعد الانفصال؟ يرد على هذا السؤال الدكتور هارفي من مركز ابحاث الزواج بقوله : الطلاق يمثل صدمه للمرأة إنه حادث هام ومفزع .. فهي الآن وحيده .. زوجة سابقة ، تفتقد كثيراً من مكانتها الاجتماعية ويتغير أسلوب حياتها تبعاً لذلك ، وتنتابها حالة الحزن التي تنتاب الزوجة حين يموت زوجها مع فارق بسيط، فالطلاق يختلف عن الموت بالنسبة للمرأة.. الموت حدث خارج عن إرادتها ، وسواء كان الزواج ناجحاً أم فاشلاً فإنها تستسلم للحزن ، وتمر بمعاناه الآسى ولا

تتعرض لأي نقد من المجتمع.

أما المطلقة فإنها تعتبر امرأة فاشله لم تقدر على الاحتفاظ برجلها، أو هي فاشله منذ البداية لسوء اختيارها، والمرأة تشعر بالظلم بعد الطلاق لأنها تتعرض لمشاكل كثيرة، فبعد طلاقها يأخذ منها المجتمع موقفاً ليس فيه أي نوع من العدل، ولكن ماذا تفعل المرأة لتحتفظ ببيتها وزوجها حتى تتجنب هذه الاضرار النفسية والاجتماعية التي تنجم عن الطلاق البغيض؟ الدكتور «يان» الاخصائي النفسي الاميركي يقول: على الزوجة والزوج أيضاً أن يضعا حياتهما الزوجية في المقام الأول ثم أطفالهما.. فيتمكنا من مغادرة بيتهما والابتعاد عن أطفالهما والابتعاد عن مشاغلهما مؤقتاً للتفرغ لمناقشة هادئة لكافة مشاكلهما وخلافاتهما .

وتؤكد فاعلية هذه النصيحة السيدة «ابتسام» وهي موظفة وأم بقولها: بعد ثمان سنوات على ارتباطنا وبعد قصة حب كبيرة تسرب الملل إلى حياتنا، وبخلاف اهتماماتنا المشتركة بالبيت والأطفال لم نكن نجد ما نتحدث فيه، وباتت اللحظات التي تجمعنا آخر الليل وحين ينام الصغار ثقيلة وباردة ومزعجة أيضاً، وكنت أحاول أحياناً أن أكسر حاجز الروتين بسهرة شاعرية وعشاء فاخر، وكان زوجي يحاول إنجاح مثل هذه السهرات لكننا في أعماقنا كنا نشعر بأننا نتكلف المرح والبهجة، وينسحب كل منا إلى عالمه الخاص على مضض وبيني وبين نفسي كنت أتساءل: أين ذهب الحب! ولم أجد جواباً لهذا السؤال إلا عندما اضطرتنا الظروف لمرافقة شقيق زوجي للعلاج في ألمانيا ، ووطدنا العزم على البقاء معه طوال فترة العلاج التي كان ممكناً حسب توقعاتنا أن تطول، خاصة وأنني لم أكن أعمل وصغاري لم يصلوا بعد للسن الدراسي، ومرت سبعة شهور وكأنها سبعة

أيام، أقمنا في شقة جميلة تطل على حديقة رائعة وأدخلنا الأطفال حضانة خاصة بجوار مسكننا، واستأجر زوجي سيارة وكنا نذهب لزيارة شقيقه يومياً في المستشفى الذي كان يبعد عنا قليلاً، وهناك في الغربه تفرغنا لبعضنا البعض، لا مخابرات هاتفيه قد تزعجنا أو تلهينا.. لا زيارات خاصة ، ولا اهتمامات منفرده ولا صداقات خاصة لم يكن له سواي ولم يكن لي سواه، أعدنا اكتشاف اللحظات التي فقدناها اقتربنا أكثر.. وعدنا نتحدث بلا انقطاع .. ونمرح مع الصغار ونقضي معاً وقتاً أكثر من الوقت الذي كنا نقضيه معهم في الوطن..

باختصار ودعنا الملل وعرفنا كيف ننفض الرماد عن حبنا القديم. وتعترف زوجة في نهاية الثلاثينات قائلة: أحب زوجي وأحب أطفالي، بيتي لطيف، لا توجد لديّ مشكلة محددة، ولكن منذ فترة غير قصيرة بدأت أعاني من الاحساس بالملل والضجر من التفاصيل اليومية التي أعايشها كل يوم.. الذهاب للعمل .. إعداد المائدة، الاعتناء بالأطفال، الاهتمام بكل صغيرة وكبيرة في المنزل !

ومع أن زوجي لم يضايقني ولم يتسبب من قريب أو بعيد في تدعيم هذا الشعور الذي يتملكني الآن وبقوة فإنني لا أملك إلا الاعتراف بأنني أحس بالملل من مواصلة الحياة معه على هذه الوتيرة.. بل أنني اعترف وأقول بكل صراحة : لقد أصبحت في الفترة الأخيرة أجد صعوبة بالغة في القيام بواجباتي المنزلية المعتادة، وكثيراً ما استيقظ من النوم فاقدة الحماس والرغبة في النهوض وفاقدة الرغبة في مجرد أن أتبادل مع زوجي تحية الصباح ، هذه الشكوى أو الصيحة تتردد على لسان أغلب الازواج والزوجات بعد مرور بضعة سنين من الزواج .

وإذا كان الرجال يبحثون عن مصادر اللهو والترفيه خارج المنزل هرباً من الروتين وداء الملل فإن النساء غالباً ما يكتفين بالشكوى والميل إلى المشاجرة وافتعال المواقف كنوع من التنفيس عن خيبة أملهن في حين تبحث فئة نسبتها تثير المخاوف عن وسيلة لاسترداد ثقتهن بأنفسهن وبالإحساس بجمال الحياة ، فينزلقن في بؤرة الخيانة الزوجية باسم الملل وتحت ستار الحب..

وتقول زوجة أخرى لقد اقتحم الملل والسأم حياتنا الزوجية دون إشارات ، ولعل هذا ناتج عن العديد من العوامل النفسية التي تتسبب في إصابة الحياة الزوجية بالفتور، وأجد نفسي عاجزة عن تحديد هذه العوامل، أو حتى إيجاد حل للبرود الذي بات يغلف أيامنا، زوجي لا يبدي اهتماماً بما وصل إليه حالنا، أما أنا فأكاد أجن !! أسباب الملل كثيرة ولعل أهمها تراكم التفاهات الصغيرة في حياة الأزواج والتغاضي عنها حتى تصبح جبلاً يخنق الأنفاس، والملل ليس مرضاً عابراً يمكن التخلص منه بقرص أسبرين أو وصفه علاج، إنه أمر خطير أكثر مما نتصور بكثير فهو يجعل الحياة بلا طعم، يحول كل الألوان الجميلة من حولنا إلى لون واحد هو اللون الأسود، يخرس الضحكات، ويقطع جسر الحوار والتواصل مع الناس، يهزم الجسد ويحوله إلى عجينة هشه ترعى فيها الجراثيم وكل أنواع البكتيريا، وبالتالي ينهار تحت وطأة الأمراض العضوية الخطيرة .

ولقد اكتشف الأطباء حديثاً أن الزعل الشديد يسبب السرطان وليس من المستبعد أن يكون الضجر مسبباً لهذا النوع من المرض أو غيره!!

ويرى أحد أساتذة الطب النفسي أن الحنان هو العلاج لكل أنواع الملل، فالحنان كما يقولون لابد أن يلازم الحياة الزوجية دون افتراق لأنه

يشحن بطاريات الحياة الزوجية، ويتغلب على الشعور بالركود والرتابة ويجدد حيوية ونشاط العلاقة بين الزوجين، ولذلك من الضروري أن يردد الزوج كلمات الحب والعطف والمودة، وأن تبادله الزوجة الشعور نفسه، ولا عيب في أن يبادر أي منهما إلى ذلك، فلا تقلل المبادرة من شأن أي منهما، ولعل المكابرة هي التي تقلل من شأن المرء أحياناً وليس العكس!!

وإظهار العواطف يقوي الروابط الانسانية وينصح المتخصصون الرجال في هذا المجال بقولهم: اظهروا مشاعركم لزوجاتكم وأولادكم لأن ذلك يشعرهم بالأمان،

وللأديبة المصرية «سكينه فؤاد» رأي آخر في تحمل الرجل الشرقي مسؤولية احتضار العلاقات الودية في مملكته الصغيرة إلى أن يتم الزواج، وكأن المشاعر لا تصلح للتبادل بعد الزواج، وهنا لا يجب أن يلقي كل طرف اللوم على الطرف الآخر، بل يجب على المرأة بالذات ألا تتوقف عن محاولاتها التنقيب عن تلك المشاعر وإخراجها إلى السطح، والتعامل معها بوضوح بينها وبين زوجها، وإذا كان الزوج لا يحب الحديث ولا الكلام فلا يجب أن تغلق الزوجة فمها ويصبحا كتلة من الصمت، لأن النتيجة الحتمية ولاده ضيف ثقيل إسمه «الصمت».

وهنا نناشد الرجل أيضاً أن يظل على علاقة إنسانية، كذلك مع شريكه حياته لأن الاتصال ليس بالجسد بل في المشاعر.. في النفس، حتى لا تتحول الحياة إلى كارثة ثم يبدأ كل منهما في التساؤل عن أسباب الكآبة والملل وما أصاب حياتهما.. فالحياة كائن حي إذا لم نعطه حقه من المحبة والعواطف فإنه يصاب بالجفاف، ومحلول معالجة الجفاف ليس للأطفال فقط، وإنما للحياة الزوجية أيضاً، وإذا كانت الاجازة السنوية مطلباً أساسياً

وضرورياً لكل إنسان سواء كان طفلاً أو موظفاً أو تاجراً .. يبعد فيها عن كل ما كان يشغله وينشغل به طوال العام ليجدد خلايا مخه ويستعيد حيويته، فإن الأزواج يحتاجون أيضاً إلى إجازة.. وكالعادة يخطئ الزوج الشرقي في فهم هذه العبارة، وفي تطبيقها أيضاً فيحمل حقيبته ويشد الرحال بعيداً عن اسرته ليرتاح من تعبه منهم، وحين يعود يندهش لأن زوجته مازالت تشكو الملل ، وأطفاله أكثر عدوانية وشقاوه من قبل!!

الاجازة فرصة للتقارب وإبعاد شبح الضجر عن حياة لا تخص اثنين فقط، وإنما تعني الكثير لأسرة بأكملها ، ولا يمكن أن نتوقع الحب دون الفهم !! وتحكي إحدى الزوجات تجربتها الخاصة قائلة:

تعودنا قضاء كل صيف في لندن .. وحالما نستقر في شقتنا ينطلق زوجي بحثاً عن أصدقاء، ولم يكن ذلك عسيراً فتلك المدينة تزدحم بالعائلات العربية التي سرعان ما تنقسم إلى مجتمع إناث ومجتمع ذكور، وطبعاً يتبع مجتمع الاناث الأطفال.. وكنت ألاحظ بعد كل إجازة أننا نبتعد أكثر بعضنا عن بعض. حتى أولادي أصبحوا يعتمدون عليّ في كل الأمور ويتجنبون حتى إلقاء الأسئلة الطفولية على والدهم، ويتعاملون معه بحذر غريب !!

في الصيف الماضي فقط قررت وبحزم أن نزور أمكنه جديدة ونتخلص من الروتين الذي يطبق على أنفاسنا حتى في إجازتنا السنوية ، واعني السفر لسنوات وسنوات إلى بلد واحد، حفظنا كل مفاجآته ولم يعد للدهشة وفرحة الاكتشاف وجود في إقامتنا فيه!! وحاول زوجي اثنائي عن رأيي لكنني لم أتراجع.. وعلى مضض وافق على السفر معنا إلى النمسا على أن نمكث هناك بضعة أسابيع ثم نكمل الاجازة في لندن.. ولم اناقشه في ذلك

.. قلت في نفسي.. لا بأس ببضعة أسابيع كتجربة، لعلها تكشف لي سر اغتراب زوجي عنا وضيقي به!!

وهناك حدثت المفاجأة التي كنت أحلم بها ولا أتوقعها.. لم يجد زوجي أصحاباً يأخذونه منا فتفرغ لنا.. في البداية كانت امارات الضيق التي تبدو على وجهه وتصرفاته تسبب لي الاحراج والألم.. وشيئاً فشيئاً بدأ يسترخي ويستمتع بالخروج والتمتع بالمناظر الخلابة الرائعة معنا .. وبدأ الصغار ببساطتهم الفطرية يتقربون من والدهم ويتبادلون معه اللعب والضحكات.. وبات لدينا الكثير لنتحدث عنه ونتناقش فيه.. باختصار لقد أصبحنا لأول مره منذ سنوات أسرة حقيقية.

في دراسة شامله أجريت على ألفي مطلقة في سلطنة عُمان ثبت أن معظم المطلقات انتهين إلى هذه النهاية بسبب زواجهن المبكر ومراهقتهن التي صورت لهن أن أي رجل هو فارس الاحلام الذي قرأن عنه أو تصورنه في الخيال، تقول إحداهن وهي أم لطفلين ولم تتجاوز التاسعة عشرة من عمرها تزوجته عن اعجاب، كنت اظنه الحب. من أجله تركت المدرسة، كنت في الصف الثاني الاعدادي.. في فترة الاعجاب التي لم تزد عن بضعة أشهر، كنت أنظر إليه على انه النموذج المكتمل للرجل.. وتغلغلت تلك القناعة في قلبي الصغير حتى تزوجنا. ما أسوأ ان يبني المرء هرماً شامخاً لا اساس ثابت له، ينهار فجأة امام عينيه، كان الانهيار متبادلاً.. فالصورة المخملية في قلبه سحقت بعد الزواج صورته ايضاً في داخلي تشوهت، كنت اقيم مع اهله، كان الجميع يمارسون سلطتهم عليّ.. أبوه.. أمه. اخوته.. أما هو النموذج المكتمل للرجل.. فلم يكن له وجود. في البداية تحملت عنفهم في صمت، حتى فقدت الصبر، وأصابني إنهيار عصبي، نقلت على

أثره إلى المستشفى ثم إلى منزل اهلي، وفشلت كل محاولات الصلح، طلب منه أهلي أن نعيش في منزل مستقل.. وافق في البداية، ثم تراجع عن موافقته تحت ضغط والدته، وكنت اعلم ان المشكلة لن تحل بإقامتي في مسكن مستقل، فالمشكلة ليست في المكان بل في الرجل الذي اخترته، كنت ابحث عن الامان معه، ولكن لم يتحقق لي ذلك، مضى على طلاقي سنتان تحررت فيها من شعوري بالأسى وأعتقد أنه في حالة زواجي مرة اخرى سأستفيد كثيراً من اخطاء التجربة الاولى. ومع ذلك فان مئات آلاف من النساء يعشن حياة تعيسه بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان ولا يفكرن في الانفصال.. انهن يؤمن إيماناً شبه مؤكد بأن هذا نصيبهن وعليهن القبول بهذا النصيب .

ان المرأة بصفه عامة رغم رفضها تحكم زوجها تريد مع ذلك المحافظة عليه، إنها تناضل ضده لتدافع عن استقلالها، وتحارب بقية العالم لتحافظ على الوضع الذي ينذرها للتبعيه، ان هذا اللعب المزدوج صعب، مما يفسر تفسيراً جزئياً حالة القلق والتوتر العصبي التي تحل بكثير من النساء طيلة حياتهن، وكما ان اصطياد الزوج فن، فإن المحافظة عليه تتطلب كثيراً من المهاره، فالزوج لا يكتفي غالباً بأن ينال الاستحسان والاعجاب وان ينصح ويوجه بل انه يصدر الأوامر ويتصرف كالسيد المطلق، وهو يتحرر في البيت من كل أحقاده المكبوته منذ صباه وطيلة حياته والمجتمعة يومياً أثناء احتكاكه مع بقية الرجال. إنه يأمر وينهى ويتصنع الشدة والبأس، ويرفع صوته عالياً ويضرب بيده على الطاولة إن هذه المهزله بالنسبة إلى المرأة جزء من الواقع اليومي، فالزوج مقتنع إلى أبعد الحدود بحقوقه، حتى ان أقل بادرة استقلال من زوجته، تبدو له كعصيان، أما هي فتنشق عليه مع ذلك، ولئن

ابتدأت بالأعتراف بنفوذ الرجوله إلا ان ذلك سرعان ما يتبدد فتكتشف الزوجة ان الذي امامها ليس قائداً أو سيداً بل رجلاً، ولا ترى أي مبرر لقبول العبودية.

وهناك تقاليد كاملة تلقن الزوجات فن اجتذاب الرجل، من ضمنها اكتشاف نقاط الضعف فيه وامتداحها، والموازنة بمهارة بين الخضوع والمقاومة، بين الشدة والتساهل، والمسلكان الاخيران من الاهمية بمكان فلا ينبغي التشديد كثيراً على حرية الرجل أو التساهل كثيراً فيها، فإذا كانت كثيرة التساهل فقد تتعرض لفقدانه، وإذا أرهقته بمراقبتها وإلحاحها اثارته ضدها، وان عذر المرأة الاكبر في مناوراتها ولفها ودورانها انها مجبره على حشر كل كيانها في الزواج. فكيما تسود بين الزوجين علاقات الاخلاص وأواصر الصداقة فان الشرط الضروري الذي لا غنى عنه ان يكون كل واحد حراً تجاه الآخر، ومساوياً مساواة فعليه ملموسه، ومادام الرجل يتمتع بامتيازات بحكم القانون والعرف فمن الطبيعي ان يبدو كطاغية، مما يدفع المرأة للثورة والمكر.. لا أحد ينكر مآسي الحياة الزوجية، ولا شك في ان كثيراً من الازواج ينجحون في الوصول إلى نوع من التوازن والاتفاق، إلا ان هناك لعنة تحل بهم ولا يتحررون منها إلا نادراً، وهي الشعور بالسأم، فإذا لم ينجح الزوج في ان يجعل من زوجته صدى وصورة لشخصه، أو انزوى كل منهما في عالمه الخاص فلن يكون بينهما بعد بضعة اشهر أو بضع سنين أية مشاركة أو أي تجاوب.. فقط من يتمتع بخصائص "الحرباء" يستطيع ان يعيش حياة سعيدة من المنغصات.. وقد تكون سعيدة، ولكن من هي المرأة "الحرباء" هي تلك القادرة على ان تكون كل النساء في آن واحد، وان تتلون بكل لون حتى يمكنها العيش بأمان.. وهذا ما قصدته " ميلسيا سادروف"

حين أطلقت عنوان «المرأة الحرباء» على كتابها الأول: والحرباء كما تعلمون سحلية مسالمة ضعيفة قوتها الوحيدة تكمن في قدرتها على التلون بلون البيئة حتى لا تتعرض للأذى.

أما حرباء ميلسيا فهي المرأة التي تستطيع ان تغير من طباعها وافكارها حتى تتوافق مع طباع وافكار زوجها والمجتمع الذي تعيش فيه، وتوجه ميلسيا في كتابها عدة نصائح للزوجة التي ترغب في إنجاح علاقتها بزوجها، وإنجاح زواجها ككل، فتبدأ بإلقاء الضوء على نفسها هي كزوجة تمكنت من تحقيق المعادلة الصعبة بين دورها كسيدة مجتمع وزوجة لأحد ملوك الصحافة في بريطانيا وبين دورها كزوجة وربة اسرة، أي انها كانت غارقة حتى أذنيها في الالتزامات الخاصة والعامة ولكنها حاولت التوفيق بين حياتها الخاصة وحياتها العامة ونجحت في ذلك وصورت تجربتها للناس على صفحات مكتوبه، لذلك فان مجموعة النصائح الموجهه للنساء نتاج تجربة خاصة اكتسبتها المؤلفة خلال فترة زواجها الطويلة من رجل أعمال ناجح كان من الصعب ان يصبح مليونيراً لو لم تكن خلفه امرأة عظيمة توفر له الاستقرار والسعادة.

تقول ميلسيا في كتابها: ان مشكلة معظم الزوجات تكمن في انهن يفقدن القدرة على التخيل والحلم بعد سنوات قليلة من الزواج، فغالبية الزوجات يسخرن من فكرة استقبال الزوج في بيته بموسيقى هادئه وباقة من الزهور وهدية بسيطة، وابتسامة في بيته بهذه الطريقة. فالرجل قد يكون فظاً عنيفاً إلا ان بداخله كائناً رومانسياً صغيراً يحتاج فقط لمن يذكره بوجوده وانتشاله من سباته، وكل ما تحتاجه المرأة لتحقيق هذا الجو المريح هو القدرة على الابتكار بصرف النظر عن الامكانيات المادية، فالشموع على

مائدة الطعام لها تأثير نفسي رائع بالنسبة للزوج رغم ان ثمنها لا يشكل عبئاً على ميزانية الاسرة، وكذلك الامر بالنسبة للزهور والموسيقى والاضواء الهادئة، إذ لا يوجد شيء في العالم يمكن ان يبعث بالدفء والسكنيه في قلب الزوج أكثر من عودته إلى بيته، وتنسمه لرائحة الطعام الجيد الذي أعدته له زوجته، والزوجة الواعيه هي التي تسيطيع ان تستقبل زوجها في جو من الهدوء والارتياح والجمال من خلال اضواء هادئة في جنبات البيت ونغمات موسيقية رقيقة، وروائح عطر زكية تفوح في أرجائه.

وتقول ميلسيا ايضاً: ان المرأة الأم المشغولة بأمور البيت والصغار تستقبل عادة زوجها لدى عودته من عمله ببيانات سخيفه عن العطل الذي اصاب الغسالة الكهربائية أو شقاوة الاطفال وما تعانيه من مشكلات بسببهم، أو ضجرها من أعمال المنزل الروتينية، وهذا الاستقبال العاصف الذي يقابل به الزوج في منزله يجعله يفقد اعصابه لأتفه الاسباب، أو يصبح عدوانياً مع زوجته ويتجنب محادثتها أو البقاء معها، والوضع السليم هو ان تمتنع الزوجه عن ذكر أية مشكلة تواجه الاسرة خلال الساعة الاولى من عودة زوجها إلى المنزل، وبعد ذلك تطرح ما تريد بكل لباقه إذا كان ذلك ضرورياً وعاجلاً، أما الاشياء التافهه التي تستطيع معالجتها وحدها فلا داعي حتى لان يعرفها زوجها.

ويشير الكتاب إلي ان عدداً لا بأس به من الزوجات يشعرن بالخجل من ازواجهن رغم مرور سنوات على الزواج، فهناك زوجة على سبيل المثال كانت تصب في أذن حبيبها وخطيبها أحلى الكلمات وبعد الزواج باتت تخجل من إظهار عواطفها أو الاشارة إليها، وتحذر المؤلفة كل امرأة من أن تقع في فخ الاعتقاد بانها تزوجت وانتهى الأمر، لأن ذلك سيجعل زوجها

يشعر بالحرمان من المشاعر الرقيقة الرومانسية التي يحتاجها كل رجل حتى بعد مائة عام من الزواج.. وقد تتلهف عواطفه لأخرى نتيجة هذا الحرمان، وهذا ليس في صالح الزوجة والاطفال والزواج نفسه!!

كان الخليفة عُمر بن الخطاب رضي الله عنه ماراً بجوار أحد مساكن المسلمين، متفقداً أحوال رعيته في الليل الذي يخلو فيه الانسان إلى نفس كعادته منذ ان تولى خلافة المسلمين، فسمع امرأة تقول:

ألا ما لهذا الليل قد ازور جانبه

وليس إلى قربي خليل ألاعبه

فوالله لولا الله تخشى عواقبه

لحرك من هذا السرير جوانبه

فلما سمعها الخليفة عُمر رضي الله عنه بحس المسؤول الساهر على أخلاق أمته، ذهب إلى ابنته حفصه وسألها: ما هي المدة التي تصبر فيها المرأة على غياب زوجها عنها؟؟ قالت: عدة الوفاة، قال: وما بعد ذلك، قالت: ولا فتلة مغزل. فغير الخليفة عُمر رضي الله عنه نظام الجندية في ديار المسلمين، بما يحافظ على أخلاقهم، بحيث يعود الجندي من الجهاد إلى داره في مدة زمنية محدده تتوافق مع احتياج زوجته للسكن إليه، وفي هذا الزمان الذي أصبح فيه الناس أكثر وعياً واطلاعاً على ثقافة العالم ما زالوا يجهلون لغة العواطف وأبجديات التعاطف، ذلك الزوج الذي ضحى بزوجته وأطفاله من أجل نزواته على سبيل المثال، أصيب بصدمه عنيفه حين اكتشف فجأة ان زوجته على علاقة بآخر، ونهاية القصة بدأت حين سافر الزوجان لقضاء عطلة الصيف في القاهرة كعادتهما كل عام، وكان الزوج يقضي سهراته في الملاهي مع صديقة كانت الزوجة قد علمت بأمرها، وأبت

كرامتها ان تصارحه بما عرفت، أما في النهار فقد كان يخلد للنوم أو الحديث مع اصدقائة لتحديد اماكن اللهو عبر الهاتف، وكان الزوجان يقيمان في فندق أسعاره معقوله تتناسب وامكانيتهما، ورغم مضي عامان على زواجهما إلا أنهما لم يرزقا بخلفة قد تشغل الزوجة وتنسيهما إهمال زوجها وانصرافه عنها، وحتى تلك اللحظة التي اختصر فيها الزوج سهرته وعاد مبكراً إلى الفندق وهو يشكو من صداع ألم به، لم يكن يشك أحد في طيب عنصر زوجته التي تتحمل كل مباذله بصمت وصبر، وما حدث اشبه بفيلم سينمائي رديء، فقد وجد الزوج أحد موظفي الفندق في الثالثة صباحاً يهم بطرق باب غرفته الخاصة، صاح فيه مستنكراً: ماذا تريد؟؟ اجابه الموظف ببراءه: احضرت للمدام فاتورة التليفون لتدفعها نقداً كالعادة، وبدون اطالة تسلم الزوج الفاتورة وهبط إلى البهو، استفسر من الموظفة التي تعمل على البدالة عن الرقم الذي وجده على الورقة، فأجابته بأنه من البلد الذي جاء منه، فما كان منه إلا أن طلب مكالمة وما ان سمع الصوت المنغم الذي يدل على المكالمات الدولية حتى جاءه صوت رجل يقول: كنت عارف يا حبيبتي يامريم انك ستتصلين مرة أخرى، طبعاً لم تتمكني من النوم مثلي تماماً، وأقفل الزوج الخط وهو مذهول فزوجته اسمها مريم ولم يكن يتصور انها تجرؤ على ان تفكر بآخر، وان تتورط معه في علاقة لا يعلم إلى أي مدى قد وصلت!! ولن أطيل فالنهاية معروفة!!

في العام الأول من الزواج تستحلي الزوجات اليافعات كلمة "طلقني" عند نشوب خلاف أو مشكلة وبالطبع فان أغلب الأزواج في هذه الحالة يصفقون الباب خلفهم ويغادرون المنزل لساعات حتى تهدأ النفوس، ومن النادر أن تشترط الفتيات هنا أن تكون العصمة بيدهن أي حق تطليق

أنفسهن من أزوجهن، وهذا لحسن الحظ، فلو ان هذا الامر أصبح مشاعاً لطلقت المرأة نفسها مرة كل أسبوع على الأقل.

وقصة تلك الفنانة المشهورة معروفة، فهي تشترط في عقد الزواج حق تطليق نفسها متى أرادت، ولهذا فهي تبدل أزواجها كما تبدل أثوابها، وتعترف زوجة شابه بأنها أخطأت في حق نفسها وزوجها في بداية حياتها الزوجية، إذ كانت متأثرة بما تشاهده من الأفلام والمسلسلات العربية الرديئة، وكانت مقتنعة بأنها ستخضع زوجها لكل رغباتها إذا هددته بالطلاق، ووجدت نفسها تردد كلمة "طلقني" عشرات المرات كل شهر، تقول: في البداية كان زوجي يتراجع ويستعطفني ويقبل رأسي ويرضيني بهديه أو نزهه، ومع مرور الوقت أصبح محصناً ضد هذا التهديد، الأكثر من ذلك انه قال لي في آخر مره طلبت منه هذا الطلب المتكرر: لا مانع لديّ فلقد سئمت هذه الحياة، ومن ذلك اليوم لم أعد أذكر تلك الكلمة البغيضة مهما وصلت حدة الشجار بيننا.. المحزن أنه هو الذي يقول لي الآن: هل تريدين حريتك؟ وأصمت وابتلع الإهانه فأنا من عوده الاستخفاف بقداسة الحياة الزوجية.

نحن لا نعيش الحاضر وتلك هي مأساة الانسان المعاصر، وهذه الصرخة جاءت على لسان مدير معهد أوميجا للدراسات الشاملة بالولايات المتحدة الامريكية، وحذر الباحث الامريكي من الخضوع لعبودية المستقبل، إذ ان الانسان لا يدرك قيمة يومه وأهمية الساعات الحاضرة بل يلهث ويجري ويماطل وينتظر الغد، ويؤجل الفرح والمصارحة ووقفة مع الذات لا تكلف شيئاً ولكننا نجني من ورائها الكثير، وهذا ما حدث مع زوجين مضى على زواجهما ما يزيد على ٢٧ عاماً مرت في هدوء واستقرار وأثمرت ثلاثة

أبناء، الزوجة سيدة فاضله نجحت ببراعة في تحقيق المعادلة الصعبة بأن تكون ربة بيت وأماً وزوجة ممتازة، أما الزوج فهو رجل مثالي بكل المقاييس فيما عدا انه يعاني من وسواس النظافة بصورة غير طبيعية اقرب إلى الهستيريا، ومرت الايام وكبر الأبناء، وفي ليلة زفاف أصغرهم فوجئ الزوج بزوجته وهي تردد على مسامعه بهدوء انها كانت تنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر لطلب الطلاق، وأنها قد ضحت طوال السنوات السابقة في سبيل إتمام رسالتها كأم، ومن أجل هذا تحملت عذاب وساوس زوجها. أما الآن وبعد زواج أصغر الأبناء فلم يعد هناك ما يجبرها على تحمل المزيد، وفشلت كل المحاولات في إثنائها عما نوت، وحصلت على الطلاق بعد ان تنازلت عن كل حقوقها

والآن وبعد مرور عدة أشهر على طلاقها تؤكد إنها غير نادمة على قرارها وتقول: لقد كان زوجي انساناً فاضلاً إلا انه لم يكن طبيعياً على الاطلاق، وكان الطلاق سبيلي الوحيد لأن أحيا حياة طبيعية مثل سائر الناس.. أما الزوج فيبدو وكأنه ما يزال غير قادر على استيعاب ما حدث، ويؤكد ان زوجته طوال سنوات زواجهما لم تعترض أو تتبرم على الاطلاق بسبب مبالغته في الاهتمام بالنظافة، إلا انها وبعد مرور ٢٧ عاماً أفصحت عما يدور في نفسها.. وهكذا اغلب البشر يهدرون أحلى أيام العمر في انتظار ما لا يأتي أو يؤجلون اتخاذ قرار مصيري حتى لا يعود لهذا القرار طعم ولا معنى.

وأظهرت دراسة إحصائية للمطلقات في دولة الإمارات العربية المتحدة أن أعلى نسبة في الطلاق تتم بين ازواج مضى على زواجهم ما يزيد عن عشر سنوات، وكان من المفترض ان تلك المدة قد ساعدت على نحو ما في

خلق الألفه بين الزوجين، وان تلك العشرة الطويلة كانت كفيلة بخلق الوئام المطلوب بينهما، فقد يكون مفهوماً أن يتم الطلاق بين زوجين جديدي العهد بالزواج لم يعتادا بعد التنازلات والتضحية والصبر، ولكن ان يتم الطلاق بعد عشر سنوات أو خمسة عشر سنة فذلك أمر مستغرب حقاً.

وأظهر الجدول الإحصائي الدراسة النتائجة التالية: ٧٪ عمر فيها الزواج أقل من سنة، ١٤٪ عمر فيها الزواج من سنة إلى سنتين، ٢٢ر٣٪ من الحالات عمر فيها الزواج من ثلاث إلى خمس سنوات و ٢٣٪ من الحالات عمر فيها الزواج من ٦-١٠ سنوات، ٢٢٪ من الحالات عمر في الزواج من ١١- ٢٠ سنة أما الحالات التي عمر فيها الزواج أكثر من عشرين عاماً فلا تتعدى نسبتها ١٠!٪، وأظهر الجدول الاحصائي رقم ٢٩ في الدراسة ذاتها أن ٨٤٪ من المطلقات يرفضن بإصرار العوده إلى أزواجهن إذا ما أتيحت لهن الفرصة وعللن ذلك بعدم الرغبة في العيش في المشاكل التي أدت للإنفصال والتي كان الطلاق السبيل الوحيد لإنهائها، وان ٧٩٪ من الازواج يتزوجون مرة أخرى بعد الطلاق بفترة قصيرة، وأظهر الجدول الإحصائي رقم "١٣" الخاص برغبة المطلقة في الزواج ثانية بأن ٢٨٪ من المطلقات فقط يرغبن في الزواج بينماترفضه ٧٢٪ من أفراد العينة من المطلقات.

وحذر الباحثون من خطورة هذا الرفض على المجتمع الإماراتي، إذ أن ٧٠٪ من المطلقات مازلن دون سن الأربعين وهذا الرفض يشير إلى مدى المعاناه التي واجهنها في حياتهن الزوجية، والتي تدفعهن لرفض الزواج من حيث المبدأ، ومثل هذا الاتجاه خطير للغاية في مجتمع يتجه فيه الرجال للزواج من اجنبيات لا يتطلبن مهراً ولا ضمانات، ولابد في هذه الحالة من القيام بحملة توعية توضح للمطلقات بأن الفشل في الزواج الأول لا يعني

ان الزواج فشل كله، وان الفرصة مازالت مفتوحة أمام المطلقات لزواج أوفر حظاً وأكثر وئاماً.

وفي أكبر عيادة لعلاج مشاكل الازواج والزوجات سألوا ألف ومئتين رجل وامرأة إذا أغمض الواحد منكم عينية، ووجد وسيلة سحرية يحصل بها على الطلاق من زوجته دون محاكم أو متاعب أو آلام أو نفقات مالية مزعجه فما هو الموقف؟ قال ألف رجل وامرأة: بالتأكيد سنوافق وسنتوسل ان يحدث الطلاق، وكان الذين يسألون هم د. جاكسون و د. وليم ليدر والاثنان من كبار الاطباء النفسيين الذين عملوا لفترات تزيد على خمسة عشر عاما في مجال رعاية الأسرة ومكاتب علاج مشاكل الازواج والزوجات.

والسؤال الذي طرحه د.وليم ليدر: هل لم يعد للزواج قيمة عملية في إسعاد الرجل والمرأة؟ باختصار هل أصيب الزواج نفسه بالشيخوخه ولم يعد يصلح كإطار للعلاقة بين الرجل والمرأة؟ أجاب د.وليم نفسه: حقيقة لقد مات الزواج، إن هذه هي الحقيقة التي يجب ان نعرفها جيداً، يكفي ان نعرف ان متوسط الطلاق الذي يحدث في دول أوروبا وأمريكا وبعض بلاد الشرق الأوسط هي ٤٤ حالة طلاق بين كل مائة زواج "وهذا ينطبق على مصر وكثير من الأقطار العربية"، وعلينا ان نعرف أيضاً ان ظروف معظم حالات الزواج المستمرة تتم بطريقة تبدو مزعجه.. أكثر ازعاجاً من الطلاق نفسه، لقد التقى د. جاكسون مع ٦٠٠ حالة زواج وستمائة زوج وزوجه، وقابل كل انسان منهم على انفراد وكان مطلوب من كل واحد منهم ان "يعترف" بالحقيقة وكان الألف ومائتا انسان قد استمر زواجهم مدة تتراوح بين ثماني سنوات وعشر سنوات، وكان من المهم عند الدكتور جاكسون ان

يراقب جيداً نظرات العيون ولهجة الكلام، وطريقة التعبير وملامح الوجه وحركات الأيدي ونبرات الصوت، وكان الرجال والنساء يفاجأون بالسؤال: هل انت معجب بوضعك في علاقة الزواج؟

ان وجوه الرجال والنساء كانت تحكي خريطة غريبه من الانفعالات، سخط، قلق، ضيق، رغبه في التغيير يصاحبها خوف. لم يجب بنعم سوى ١٣٢ رجلاً وامرأة، وقالوا نعم لان كل واحد منهم يحاول ان يكون واقعياً وان يضبط انفعالاته، وأن يعرف عيوب الاخر، ويحاول ان يعرف من الآخر عيوبه، واجاب ١٤٢ رجلاً وامرأة بلهجة فيها تردد: ان الزواج لم يحقق السعادة المرجوة، وليتنا نبدأ من جديد!! وأكتشف د. جاكسون ان الزواج لا يحقق سعادة هؤلاء الذين تزوجوا للبحث عن السعادة والراحة، وان معظم البيوت تعيش وهي مشروخة، وتحاول المرأة ان تداري الشرخ، ويكذب الرجل ليخفي هذه الشروخ، ان الحياة بين الاثنين لا يحكمها الحب ولكن لا أحد يستطيع ان يفكر في الطلاق لانه مؤلم وصعب ومكلف، بالاضافة إلى الأضرار التي ستعرض لها الاطفال.. لذلك يفضل بعض الرجال والنساء الهزيمة الكاملة عن الطلاق!!

كل ذلك جعلني اتساءل هل مات الزواج كإطار منظم للعلاقة بين الرجل والمرأة؟ وكل ذلك وصل بي إلى إجابة أن الزواج مات بالفعل، فليس هناك أدنى شك في ذلك وسط هذه الحياة المعقدة التي نعيشها خصوصاً وان "وظائف الزواج" في عصرنا أصبحت صعبة الهضم والقبول وتسبب المشاكل أكثر مما تحل من المشاكل. والقلق فيها أكثر بكثير من المتعة، والسلوك السلبي فيها أكثر من الأيجابي، ودليل ذلك سطور من اعترافات الزوجات "كنت أظن أنه رجل قوي يستطيع أن يتحمل أعباء الحياة..

اكتشفت انه طفل يخاف من رئيسه كما يخاف الفأر من القط، ويبكي أحزان النهار.. أنا لست مخلوقة لأشرب أحزان هذا الرجل".. لماذا يبدو فاتراً معي.. لماذا يبدو حاراً مع الأخريات؟ إنه يكرر نفس الحكايات التي تدهش الأخريات.. أنا الوحيدة التي لم أعد أندهش.. أنا أعرف كل حكاياته أصابني الملل منها.. لقد كنت أظن في البداية إنه رجل من نوع نادر.. لكني أعيش الآن بإحساس من دخلت صفقة ألقت فيها بكل ما تملكه وهو أزهى سنوات العمر.. وخسرت كل عمري، وأريد أن أفلت بالباقي من شبابي..

قالت طبيبه "أمراض نساء" حصلت على الطلاق: وصل الزواج في عصرنا إلى درجة التجمد والموت. قديماً كان الزواج الملجأ والطعام والشراب والحب. الآن لا شيء من ذلك، ويعلق على ذلك د. علي محمود أستاذ الصحة النفسية قائلاً: إن مقياس سعادة الأزواج والزوجات هو العلاقة الزوجية وهي دليل على رفاهية المجتمع، والحادث الآن أنَّ الصحة النفسية لشعوب أوروبا وأمريكا ضعيفة ومصابة بأمراض كثيرة، والدليل على ذلك القلق الاجتماعي ارتفاع نسبة الجريمة وانحراف الأحداث.. وعندما نبحث وراء كل هذا نجد أنَّ سببها هو الخلافات الزوجية بل المزعج حقيقة هو الاحصائية التي تقول أن ٩١٪ من القتله من أسر مفككة.. والأكثر إزعاجاً في ذلك إن. ٥٠٪ من الأمراض العضوية في القلب والذبحة الصدرية والتهاب المعدة ترجع أسبابها إلى الزواج الفاشل. أن الجهاز العصبي للإنسان كالعربة.. إذا ظلت تمشي بسرعة ثم تفرمل بعنف.. ثم تعود إلى الخلف بسرعة ثم تدير عجلة القيادة بلا انضباط.. كل ذلك يكلف السيارة الكثير، وقد يكلف السائق حياته.. وهذا ما يحدث في الزواج المليء

بالخلافات، يبدأ الإنسان الانتحار البطيء وينتقم الإنسان من نفسه فتظهر أعراض هذه الأمراض ببطء فتبدأ بارتفاع الضغط إلى أمراض القلب إلى المعدة ويستشهد بذلك أُستاذ كبير في عالم النفس فيقول: آه لو شعر كل متزوج بأنه يعيش مع زوجته دون تعاسة.. آه لو شعرت كل امرأة أنها متوهجة بالعشق لزوجها.. لو أن كل «البيوت الشرعية» تعيش بدفء العشق.. عندئذٍ ستكون الصحة النفسية للشعب رائعة، وسيكون المجتمع مدهشاً للغاية، وسأكون أسعد الناس لأن الأطباء النفسيين سيقفلون عياداتهم، لكن كيف نجعل طعم الحياة مقبولاً؟

إن الهدف من وظيفة الزواج واضح.. كما أن النية الحسنة عند الرجل والمرأة واضحة، لكن النية الحسنة وحدها لا تخلق الثقة والمتعة، وعلينا أن نراقب القلة القليلة من البشر التي تحقق السعادة في الزواج وتخلق لنفسها المتعة سنجد أن هؤلاء يتمتعون أساساً بقدرة مالية لا بأس بها، وسنجد أن الرجل والمرأة اللذين يريدان تحقيق السعادة الزوجية يأخذان الحياة بروح التحدي الدائم للظروف الخارجية، ولكن في أثناء هذا الزواج الناجح هناك لحظات يشعر فيها الزوجان بأن «الزواج ممل ثقيل الدم» وبالتأكيد هناك خطأ ما.. الذي يؤكد ذلك هو نسبة الطلاق العالية قالت واحدة هي أم لطفل واحد «ماذا تقصد بوصفي كزوجة» إنها حياة دون أحلام تشبه الحياة خلف الخزينة.. أرقام الشراء.. أرقام رصيد البنك.. العلاوات.. إيجار المنزل.. الجلوس أمام التليفزيون.. محاولة تجاوز أي معركة بيني وبين زوجي.. وأنا أقول لنفسي دائماً «حسناً.. أن حالتي مع زوجي أفضل من حياة كثير من النساء مع أزواجهن وقال رجل من المؤكد إنني أرغب في تجربة أخرى دون مسؤولية.. تجربة كتجارب الأفلام، أسافر في قطار مثلاً التقي بواحدة

جميلة، لا تحلم هذه الواحدة أبداً بالزواج، ولا تفكر في دخلي، ولا تطالبني أبداً بأن أعود مبكراً وأن تكون لحظة لقائنا دائماً مناسبةً لكل منا، وهناك بعض الرجال والنساء حاولوا الهرب من تحديد مدى رضاهم عن الزواج أو غضبهم من الحياة في إطار بيت الزوجية.. حاول الرجال والنساء أن يدافعوا عن أنفسهم لا أن يجيبوا إجابات محددة واضحة. تقول زوجة «لقد كنت أجمل النساء» وكان الرجال يتصارعون من أجلي.. لكنني اخترت زوجي، ولم أكن أعرف أن هذا الرجل الوسيم الهادئ يخفي أكبر قدر ممكن من اللامبالاة، إنه لا يهتم بي إطلاقاً ولا بأطفالنا كنت أريد الإنجاب لكنه حاول إقناعي بهدوء وبحب بالتخلي عن هذه الفكرة كان يتفانى في حبي والحصول على رضائي لكن بعد الانجاب وبعد مرور سنوات على الزواج أصبح لا مبالياً، إنه يدفعني إلى الجنون أنا والأبناء الخمسة، لكنني لا أستطيع إنكار «نوبات الكرم» التي تصيبه مرة كل شهر، يصبح فيها سخي العطاء.

ويقول «الزوج» منذ تسعة أعوام وبيتنا يصلح أن نعلق عليه لافتة مكتوب عليها «المركز الإلكتروني للعناد الزوجي» وتعين زوجتي في وظيفة كبيرة إحصائيات العناد، وأنا نصحتها أكثر من مرة أن تؤلف كتاباً بعنوان «كيف تعاندين زوجك إلى درجة إنفجار شرايين المخ» إنها عنيدة وتحقد وتدبر المؤامرات الصغيرة، وتجعلني أشعر بأن الهواء الذي أتنفسه دبابيس صغيرة تدخل رئتي، ولكن بصراحة لا أستطيع الإستغناء عنها لأنها تتقن عملها في المنزل وتجيد رعاية الأبناء وهذا كل شئ.

وسيدة أخرى في أواخر العشرينات.. لديها ثلاث بنات، مثقفة.. ولست أعني أنها متعلمة فقط، بل هي مدمنة للقراءة وتكتب أيضاً نثراً شعرياً جميلاً.. لكنها لا تنشر ما تكتبه.. تزوجت بشاب أقل منها ثقافة

وتعليماً.. قبل عدة سنوات طرحت على الإخصائية الاجتماعية مشكلتها مع زوجها.. فقالت لها على سبيل الإختبار: لماذا لا تنفصلان وتبدئين من جديد؟ فقالت في إحباط: لا أظن أن مطلقة تجر في أذيالها ثلاث بنات يمكن أن تبدأ من جديد.. ومع ذلك فقد طلبت الطلاق، ولم يجد الزوج بداًّ من أن يلبي طلبها.

تقول: في السنة الأخيرة التي قضيتها معه.. لم يتبق مما يربطني به سوى الإحساس بأنه «ظل رجل .. ولا ظل حائط» كل منا يفكر بأسلوب مختلف .. أن التفاوت الثقافي بينهما عميق. تقول: حين تقدم لخطبتي كنت في الصف الثالث الثانوي.. وكان قد انقطع عن الدراسة عند الصف الثاني الثانوي.. بحث عن عمل وعثر عليه .. ولم يفكر أبداً في استكمال تعليمه ليحصل على الشهادة الثانوية، على الأقل، أما أنا فقد واصلت تعليمي حتى حصلت على الشهادة الجامعية.. كنت أشعر بأن القراءة والمعرفة شيء حيوي في حياتي.. وكان الأمر يختلف بالنسبة إليه.. فالعمل .. والعلاوات.. والدرجات.. والتقارير.. كانت كل شيء في حياته.. كان أحياناً يُبدي امتعاضه.. حين أمارس هوايتي المفضلة وهي الرسم.. وأنا أيضاً كنت أتساءل لماذا بدأ خط الصف الثاني الثانوي في عينيه خطاً أحمر غير قابل للتجاوز ؟ كان يراقبني باستخفاف أولاً.. ثم بحسد، ثم بقلق، ثم كان الشعور المتذمر.. الإحساس بالدونية، وكثرت نزاعاتنا ومشاجراتنا. وفي النهاية اتخذت قراري.. ووافقني عليه بسهولة، فربما كانت لديه القناعة الداخلية بأن حياتنا معاً أصبحت غير محتملة.

هذا نموذج آخر للتفاوت الثقافي، وأن كان عكسياً حيث تصبح الزوجة هي الأكثر ثقافة.. وأظن أن عدم الإستقرار هنا يكون وارداً بصورة أوضح مما إذا كان الرجل هو الأكثر ثقافة .

ففي المجتمعات الشرقية تكمن داخل الرجل فكرة دونية المرأة.. لذلك حين يتزوج الرجل بامرأة أعلى منه مركزاً وظيفياً أو ثقافة أو تعليماً.. تكون أعماقه تربة صالحة للقلق والتوتر مما ينعكس على العلاقة الزوجية بينهما. ومن واقع تجربتها الخاصة تحكي لنا " فيللستي" وهي مطلقه بريطانية انفصلت عن زوجها منذ عشر سنوات وتعيش الآن مع «دليله» ابنتها الوحيده من زوجها السابق وهي وكيلة إعلانات ناجحة جداً.. وتقول إنه كان يجب أن تحرر نفسها قبل ذلك بكثير لأن قرار الإنفصال أفضل قرار اتخذته في حياتها .. وتشبه "فيللستي" حالها بمن نجا بنفسه ليعيش بعيداً عن كل الهموم، فهي تتمتع بالإستقلال ، والثقة بالنفس والسعادة أيضاً، ورغم ذلك تؤكد أن سنوات زواجها الإثنتي عشرة كانت سعيدة وأنها لم تندم على أنها خاضت تلك التجربة، بل أنها أسعد كثيراً، لأن الطلاق جعل منها سيدة أخرى، فقد علمها أنها لا تحتاج دائماً إلى رجل بجانبها، وأن متعة أن يكون لك زوج تساوي متعة ألا يكون لك زوج يجلس على الطرف الآخر من المائدة ويظل يضربها بقبضة يده حتى يأتيه الطعام.

وتضيف فيللستي أنها سعيدة مع ابنتها وأن «دليله» هي التي دفعتها إلى إعادة تخطيط حياتها نحو الأفضل بعد الطلاق.. لأن رغبتها في البحث عن بيت جديد وسعيد لإبنتها هي التي دفعتها للبحث عن وظيفة، وتجاوز الأزمة النفسية القاسية التي كانت تمر بها عقب الإنفصال.. وقد حاولت في السنوات الثلاث الأولى أن تبدو سيدة «خارقة» ولكنها انهارت ذات مساء وأخذت تبكي بكاءً مريراً.. ولما دخلت عليها ابنتها الحجرة، ووجدتها على هذه الحال لم تستطع السيطرة على دموعها ووجدت نفسها ترتمي في أحضان أمها لتبكيا معاً حتى جفت الدموع من مآقيهما..

لماذا يحدث الطلاق؟

ولكن لماذا يحدث الطلاق بعد مضي فترة طويلة على الزواج؟ تضاربت الأجوبة واختلفت، أرجع البعض السبب إلى التحولات الإقتصادية التي طرأت على المجتمعات وبعضهم الآخر أرجع المشكلة إلى وجود خلل منذ البداية، وإلى ضعف الأساس الذي بني عليه عش الزوجية، وأياً كانت الأسباب فالنهاية واحدة.

وفي عيادة أحد الأطباء النفسيين وعنها اذكر هذه القصة، إمرأة في الأربعين من عمرها لها ولد وإبنه في المرحلة الجامعية، الإبن يتلقى تعليمه في منطقة أخرى تبعد عنها كثيراً، وهي تقيم مع الزوج ، والإبنة المشغولة بدراستها وخطيبها، ولذا فهي تعيش في فراغ يحطم أعصابها، فالزوج كما وصفته للطبيب جامد العواطف لا يهتم بالأمور المنزلية، ولم يتحمل يوماً همَّ تربية الأولاد أو مسؤليتهم، فهو سلبي للغاية ويعتمد إعتماداً كلياً عليها، فهي المفكرة والمدبرة لكل شيء حتى الأمور الخاصه، وهو لا يضحك أبداً في البيت، يقرأ الجرائد لفترة طويلة أو بالأحرى يتظاهر بالقراءة حتى يتجنب الكلام والإحتكاك بالزوجة، وتتردد الزوجة على عيادة الطبيب النفسي، لأنها لم تعد قادرة على الإستمرار مع رجل كان طوال حياته عبئاً ثقيلاً عليها، وتخشى مع ذلك رد فعل ولديها ونظرة المجتمع إليه.

وأخرى في الثالثة والأربعين من عمرها متزوجة منذ ١٥ سنةً ولها ولدان في المرحلة الإعدادية، وذهبت إلى العيادة النفسية تشكو من عدم قدرتها على الإستمرار مع زوجها فهو على حد قولها رجل لا يعاشر، ولما سألها الطبيب: كيف تحملتيه طوال السنوات الماضية؟ أجابت بأنها لم تتعايش معه سوى شهور قليلة، فهو يعمل في إحدى الدول العربية ولا يحضر إلى

بلده سوى في الإجازات القصيرة التي كانت تمر سريعاً لإنشغاله بالزيارات واستقبال الضيوف والمجاملات والواجبات الأسرية، وكان في تلك الإجازات القصيرة يغدق المال والحب عليها وعلى أولاده حتى يعوضهم عن فترة الغياب، والآن وقد عاد ليستقر مع أسرته نهائياً، ولم يعد مضطراً للمجاملة فقد انقلب الحال، فالزوجة تقول أنها اكتشفت أنها لا تعرف زوجها، وأن طباعه لا تتناسب مع طباعها نهائياً، وبدأت المشاكل والمشاحنات تعرف طريقها إلى المنزل الذي كان هادئاً.

فالزوج انشغل حال عودته بإقامة المشاريع لإستثمار الأموال التي عاد بها من غربته، إضافة إلى أنه تعود الحياة وحيداً بدون مسؤولية سوى العمل، وهو يشعر كما صرح لزوجته بأنها وأولادها عبء عليه وهمٌّ يكتم أنفاسه، ويحد من حريته، وأصبح عند كل خلاف يهددها بالطلاق ليستريح منها ومن أولادها، وتقول الزوجه: لم أعد أشعر بالأمان والإستقرار، فحياتنا معاً قد انتهت حتى قبل أن تنتهي رسمياً ، ومن الطبيعي أن تشعر المرأة بعد الطلاق كما لو كانت تغرق في البحر، وهذا الشعور ليس مرتبطاً بالطلاق فقط، قد تتساءل بدهشةٍ وحزن كما تقول الباحثةُ في مقالتها «الطلاق ليس نهاية العالم» أين أذهب؟ ولماذا أنا موجودة في هذا المكان بالذات؟ ويصبح من الصعب عليها إتخاذ قرار أو إتخاذ طريق أو أسلوب واضح والناس دائماً يشعرون بهذا الشعور ذاته حينما يفقدون عملهم أو ينتقلون إلى منزل جديد، أو يتركون منزل العائلة أول مرة، وفي هذه الحالة عليها أن تفكر في موقفها كما لو كانت في رحلة بين مكانين، أو تغير اتجاهها، ولا تضع في اعتبارها أيضاً أن هذه هي نهاية العالم بالنسبة لها وتخاطبها المؤلفة بقولها: أنت الآن في رحلة، وأفضل رفيق لك في رحلتك هذه هو معرفتك بذاتك

لذلك انتهزي هذه الفرصة واكتشفي نفسك وتعرفي عليها، وعليك أن تعرفي ماذا تريدين من الحياة وكيف تضيفين إليها، هذه فرصة حقيقية لتخلقي لنفسك حياة جديدة، لذلك لا تتمسكي بالقواعد التي كنت تتمسكين بها دائماً، وبالطبع سوف تعانين من القلق والحزن وفقدان التقدير للنفس والغضب، ولكن ضعي في اعتبارك أن كل هذه المشاعر.. مشاعر مؤقته ستزول مع مرور الزمن، لذلك لا داعي لأن تصبي غضبك على أطفالك.. فهم أيضاً في طريقهم إلى حياة جديدة مختلفة تماماً عن حياتهم الأولى.

الطلاق ليس نهاية العالم، وهو كذلك بالفعل، ففي حالات كثيرة يكون بداية لحياة أجمل وأروع، وهناك آلاف المطلقات في جميع أنحاء العالم أعدن تأهيل أنفسهن وانطلقن في الحياة بعزم وثقة.

وتوجه الباحثة صاحبة التحقيق الكلام للمرأة فتقول: إن الطلاق يبدو كدمار لعواطفك، ذلك لأن الطلاق ليس تجربة واحدة تمرين بها، ولكنه في الواقع عدة تجارب مجتمعة معاً. فالطلاق إفتراق عن الرجل الذي تحبينه أو أحببته يوماً ما، وهذا في حد ذاته يعد نوعاً من المخاطرة بأمنك وطمأنينتك، كما إن الطلاق أيضاً هو فقدان النظام والقاعدة أو طريقة في الحياة أعتدتها فترة طويلة.. وأصبحت جزءاً من شخصيتك.. كما إن الطلاق نوع من التحدي وهو يتطلب منك أن تغيري موقفك من نفسك ومن الآخرين.. وهذا يعني ممارسة ضغوط جديدة عليك، وأنت في الوقت ذاته تتأرجحين بين اليأس والأمل.

ويذكر كتاب "مطلقات لماذا" إن الأشهر الستة الأولى بعد الطلاق هي الأكثر إزعاجاً وأذى، لكن حدة الإزعاج والشعور بالأذى ستخف وتتلاشى

مع الوقت، قد تخافين البقاء وحيدة، وقد ينتابك الغضب وتشعرين بالمرارة والهزيمة، لا يهم، فالشعور بالخسارة بعد انتهاء الزواج ظاهرة طبيعية وحتمية، وشعورك بأنك تزعجين الآخرين بحديثك المستمر عن تجربتك الفاشلة طبيعي أيضاً، لكن لديك عدة أسباب تدفعك للحديث: فأنت "تتعرفين على مشاعرك" وتجرين حساباتك: الربح والخسارة، وأنت بحاجة للحديث مع آخرين، والتكرار بهدف نسيان العلاقة نهائياً والبدء بحياة جديدة، لا بأس أن تخبري أحد المقربين إليك بما يزعجك، ولا بأس في أن تعبري عن شكواك. فهذا الأمر يخفف عن وحدتك، واعلمي أن الإنهيار العصبي الذي يصيب الكثيرات من النساء الغربيات يعود لعامل الوحدة الذي تشعر به المرأة الغربية، بينما طبيعة العلاقات الإجتماعية في محيطنا العربي تشعر المرأة بالأمان أكثر، فلاشك ستجدين دائماً من يقف بجانبك ومن يستمع إليك بحب وأمان.

قد تكونين بصدد إتخاذ قرارات عديدة بشأن حياتك المستقبلية، وتكون القضايا المالية والقانونية في الطليعة، يجب أن ترتكز قراراتك على الهدوء مع العناية بحاجاتك الأنيه، وعدم نسيان مستقبلك وأهدافك الطويلة الأمد، مثلاً هل تفكرين في تغيير مقر سكنك؟ لا تستعجلي الأمور، إن اتضاح الرؤية خلال الأشهر الأولى بعد الطلاق هي من الأمور الصعبة. تمهلي إذن، وأطرحي جميع الخيارات المتاحة واستعرضيها بهدوء قبل إتخاذ أي قرار نهائي، لا تتركي انفعالاتك تتحكم بك.

تشعر المرأة عادة بعدم الأمان في هذه المرحلة، ويتعزز هذا الشعور مع ضغط العائلة والأصدقاء الذين لا يعون تماماً وضعك، أو قد يقلقهم لأسباب تتعلق بهم إذا قالت العائلة: "من واجب الزوجة أن..." ابتسمي وتجاهلي ما

تقوله، ثقي بنفسك. قد تعتقدين بأن ما تشعرين به من أمل وخيبة بعد الطلاق سيقودك إلى الجنون، ولكنك تتصرفين بطريقة طبيعية رداً على مرحلة ضاغطة بشكل غير طبيعي في حياتك. أقيمي صداقات جديدة، تحدثي مع من تعرفينهم من المطلقات عن تجاربهن، أنت بحاجة إلى مساندة الصديقات المخلصات، وانظري إلى أطفالك كمصدر قوة. حتى لو فكرت بأن زوجك السابق هو "الرعب الأكبر في العالم، وقد تملكين الحجج الداعمة لشعورك بهذه الطريقة، فلا تحاولي هدر طاقتك في محاولات انتقاصية سخيفة، كرّسي هذه الطاقة لنفسك فقط، والزمن كفيل بمعالجة جروحك.

"ايزلا كلير" وهي مطلقة بريطانية أيضاً.. فقد تزوجت في سن الثامنة عشرة لتنفصل عن زوجها بعد أربع سنوات وتحصل على الطلاق بعد ثلاث سنوات أخرى عندما كانت في الخامسة والعشرين من عمرها.. ومنذ ذلك الحين أصبح النجاح حليف "ايزلا" التي تعتبر الآن واحدة من أنجح زميلاتها في العمل.

تقول "ايزلا" إنها عندما تزوجت كانت تعتزم وتتمنى أن تظل متزوجة إلى الأبد.. ولكنها اكتشفت بعد ذلك أن حبها لزوجها كان حب مراهقة.. وإن تعلقها به لم يكن سوى وهم كبير..

وتؤكد "ايزلا" أن زوجها الذي كان يكبرها بتسع سنوات كان رجلاً مناسباً.. ولكنه لم يكن الزوج المثالي لها. " تقول ايزلا: عندما تزوجت لم يكن لي علاقة قوية بأي إنسان آخر سوى أمي وكنت أعتقد إن كل ما أريده هو أن أعيش حياة زوجية مستقرة تماماً". ولكن "ايزلا" تقول إن زوجها انشغل عنها بأعماله تماماً حتى أصبحت كماً مهملاً لا تحتل أضيق مساحة من إهتماماته.. وعندما فاض بها الكيل تأكدت إن كل ما تحتاجه ليس المال

وإنما أن تنظم حياتها بنفسها.. بمعنى أن تصنع نفسها.. وأخيراً تؤكد "ايزلا" إنها بعد تجربة الزواج أصبحت أكثر وعياً وإدراكا لأبعاد علاقاتها مع الآخرين وتقول "لقد أصبح من الصعب أن أقع فريسة لحب خادع من جديد "وتنصح" ايزلا كل المطلقات بعدم اليأس طالما أن الحياة مازالت ممكنه.. فلا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة".

"لئن يكن إنهيار الزواج أمراً مؤسفا، إلا أنه لا يجوز أن يكون النهاية"

هذا ما تقوله إحدى المطلقات والتي لخصت حكايتها في كتاب بعنوان "الحياة بعد الطلاق" تقول جوان مؤلفة الكتاب : في صباح ذلك السبت الشتوي أشعلنا النار في الموقد ونظر واحدنا طويلاً إلى الآخر، ثم دعونا أولادنا إلى إجتماع عائلي، وجلسوا، وهم آنذاك في العشرين والتاسعة عشرة والخامسة عشرة، يستمعون إلينا وقد وجه كل منهم أفكاره إلى مكان آخر، ولكن ما إن شعروا بالخطر حتى رن صمت عميق على الغرفة، وإذ ذاك ضبطنا أعصابنا، والدهم وأنا، لنذيع عليهم خبرا لم يتوقعوه البته، وهو أننا عقدنا العزم على الطلاق، وجمدت لوري وأخوها بوب واحتجا معا بعبارة "لا" جازمة.

أما أصغر أولادنا كريس فقال "لا" هو الآخر وأسرع نحو السلم وهو يشهق ويبكي، وجاء صوت صراخه من الطبقة الثانية: الطلاق أسوأ كلمة في اللغة، وإذا سألت أحداً من عائلتنا عن أقسى تجاربه حتى ذلك الحين، لأجابك أنها تلك اللحظة بالذات، والواقع أنا وزوجي لم نتخذ ذلك القرار على أثر خصومة أو جدل، لكن كلاً منا عاش انفصاله وتعاسته وقتاً طويلاً من غير كلام. وأمضينا السنتين الأخيرتين ونحن نتكلم ونحاول أن نجد حلاً، علماً أن أياً منا لا يؤمن بالطلاق غير أن وقتاً جاء أدركنا إن الطلاق

سبيلنا الوحيد إلى الخلاص، من أجلنا نحن الإثنين ومن أجل أولادنا أيضاً. وكان كل قرار نتخذه في ذلك الشأن ينطوي على انفعالات جمة، وأردنا تأمين جو مريح لدراسة أولادنا، علماً أن إثنين منهم في الجامعة والثالث في المدرسة الثانوية، واتفقنا على أن يبقى زوجي في البيت لرعايتهم وتأمين النفقات، وأعتمد أنا على ما يأتيني من نشر قصصي الواقعية، كما اتفقنا على أن أعيش قريباً لتأدية دوري في رعاية الأولاد. غير أني وجدت التنفيذ عسيراً جداً، فمنذ طفولتي وأنا أوجه أفكاري شطر الحياة البيتيه العائلية. وكلما تناولت القلم لأكتب، كان البيت موضوعاً لمقالاتي، فكيف لي أن أتعزى إذا أنا غادرت العش؟ ترى ماالذي أكتب عنه، كيف أعيش؟ وكيف لي أن أؤدي واجبات الأمومة؟

حكم إتهامي قرأته في أعين أولادي الثلاثة: الأمهات لا يغادرن البيت! لكني منحتهم وعداً: سأبقى أمكم على الدوام، وأن هذا الحل هو لأجلنا جميعاً.. إني أحبكم، ولسوف تعرفون ذلك، ووقفوا يحدقون إليَّ كأني خنتهم أو حرمتهم شيئاً، ثم أشاحوا بأنظارهم عني وأطبق على المنزل صمت رهيب. ووجدت شقة صغيرة في القرية المجاورة، وفي اليوم المحدد لإنتقالي إليها كان زوجي غائباً في رحلة عمل وخرج الأولاد من المنزل قبل طلوع النهار وهم يرفضون أن يكونوا شهوداً على تركي إياهم، وأخذني الإرتجاف والبكاء وأنا أقف على العتبةٍ لحظة خلتها دهراً قبل ذهابي.

وعدت إلى المنزل عند الغسق مع عودة أولادي، وفتح أحدهم الباب وهو يبكي ولم يكن لديه ما يقوله لي. وكان ذلك في شهر يونيو (حزيران) ١٩٧٢.. نهاية وبداية. لقد تم زواجنا عام ١٩٥٠، في مرحلة مثالية من هذا العصر، وكان زوجي شاباً نشطاً رائق الطباع، وتقبل كل منا دوره كما

تلقاه: هو للسيادة والعمل خارجاً وتأمين العيش، وأنا لتلبية رغباته وتربية الأطفال. وما هو إلا وقت حتى غدونا أسيرين لهذه الأدوار، وكان أن كوّن كل منا اهتماماته بعيداً عن الآخر، ولكن على رغم ذلك كانت لنا أوقات رائعة معاً، وكان أهم نشاطاتنا الكلام، غير أننا لم نتطرق البته إلى المسائل المهمة أسوة بالذين نعرفهم، وكنا نواجه الخيبة بالسخريه ونتصدى للتعاسة بنصيحةٍ جاءتنا من كل حدب وصوب، وهي أن على المرء أن يحاول أكثر وأن يستر تعاسته بقناع السعادة.

وفي العام ١٩٦٠ إنتقلنا إلى الريف. وهناك شعرت بوحشة كبيرة حيث لم تكن لي سيارة ولا أصدقاء ولا موارد، وكانت رغبات زوجي مختلفة عن رغباتي إلى الحد الذي غربني عنه سنة بعد سنة، وبات أولادي لا يكترثون لنصائحي، مما أقصاني عن البيت أكثر فأكثر، وتملكتني نزعتان متناقضتان: فأنا من ناحية أحب الحياة العائلية والعمل البيتي. لكني، من ناحية أُخرى، وجدت أن صوتي ليس مسموعاً في ذلك المنزل.

إذ ذاك باشرت الكتابة، دونما اكتراث لمبدأ توزيع الأدوار التقليدي، وجاءت الكلمات تعبيراً عن كل الفرح والحنان الذي تختزنه نفسي والذي رفضته خاصتي، ورحت أكتب كما لو شئت أن أقول لهم "انظروا! ها آنا ذا بينكم! إني أفكر وأشعر وأحتاج.. أني موجودة". إلا أن جمهوري الأشد إدراكاً وجدته خارج المنزل، لا داخله، وظللت أطمح إلى الأمر الآخر ولا أناله، حتى لجأت أخيراً إلى استشارة ذوي الإختصاص، وتبين لي بعد وقت أن في إمكاني أن أحقق ذاتي وأكون نفسي، وهكذا عدت إلى عائلتي وأنا أشعر بالقوة والسعادة. ولكن يبدو أن العائلة من أشد المؤسسات الإجتماعية لصوقاً بالعادات، وهكذا كان نصيب التبدل الذي طرأ على حياتي المقاومة العائلية.

حاولت وزوجي عبثاً اكتشاف طرائق من شأنها إعانتنا على تعديل الأدوار التي اقتدى بها كل منا طوال ٢٢ سنة من الحياة الزوجية. في اليوم الأول من حياتي الجديدة حصل أمر غريب بيد أن مخاوفي لم تكن في محلها. فقد قمت في العصر أتفقد شقتي لتفاجئني السكينة في زواياها جميعاً، فهنا صحون أمي نظيفة على الرفوف، وهناك رسوم أولادي، وفي ركن آخر كرسي هزاز سلطت الشمس ضوءها على بعضه، وها هو الستار يتحرك قليلاً مع الهواء. وسحرتني تلك السكينة في مكاني بعدما أدركت أنها تنتمي اليّ شخصياً لأنها من صنعي، وفرحت كثيراً لمعرفتي ذلك.. لقد عشت أيامي السابقة وفقاً لاختيارات الآخرين، وأنا أريد اليوم أن أبقى امرأةً فاضلة ولكن وفقاً لإختياراتي، واستمرت سعادتي في الأيام اللاحقة على رغم الدموع التي ذرفتها لما فقدته عبر الطلاق، وكان الأولاد يشغلون أفكاري معظم الوقت، وأنا أتمنى لهم أن يكبروا بالحب وفي الحب. وذات يومٍ سمعت وقع خطاهم على السلم وقد جاؤوا معاً ليروا كيف أعيش، وإذا وجدوني سعيدة ومبتهجة بزيارتهم، تقدموا إليّ أكثر، وقالت لوري: يا له من مكان هادئ. وأضاف كريس بكآبه أنه يشبهك. ووجدت تعليقه من الصحة بحيث رقص قلبي في داخلي، ورأيت بوب يرفع وعاء أحببته، وراح يتفحصه بتوه ليتأكد أنه ذلك الوعاء نفسه. ثم أعاده بعنايه إلى مكانه ونظر إلى عيني وهو يبتسم، وكأنما شاء أن يعبر عن اكتشافه، لحسن الحظ، أن أمه لا تدع ما تحبه جانباً.

وفي اللحظة نفسها اكتشفت بدوري شيئاً، وهو أن أولادي الثلاثة علّقوا حكمهم عليّ، علهم يكتشفون الحقيقة من زاويتها الصحيحة، وضممت كلاً منهم اليّ، وأحسست للمرة الأولى منذ زمن أنهم لا

يبتعدون عني. أمضيت الأيام القليلة التالية وسط شعور من الحب والدهشة، أفكر في أولادي وفي زيارتهم التفقدية، وأدركت إذ ذاك معنى اللين المفاجىء الذي أظهروه جميعاً نحوي: إنهم لم يكتشفوا حضوري في حياتهم إلا بعد تركي إياهم، وأتبعوا زيارتهم تلك الأولى بزيارات كثيرة ما لبثت أن تجاوزت مفهوم الزيارة التقليدي، فباتوا يأتون كمن يأوي إلى بيته، ونقطع معاً شوارع القرية ومنعطفاتها عائدين بما اشتريناه من محلاتها، وكانوا يعبرون عن تلذذهم بطعام أمهم، ثم يتبارون على غسل الأواني بعد الأكل.

وما برح الأولاد يدرسون الجوانب التي خفيت عليهم مني، وظلوا يتبعونني بنظراتهم أينما ذهبت، وهم لا يكفون عن طرح الأسئلة: ترى ما سر السعادة التي استيقظت فيّ؟ أتراهم جزءاً من سعادتي؟ إذا كان الطلاق تجربة انكسار، فما الذي نفعله بالأجزاء المتكسرة؟ ورحنا نتحدث من غير أن نتطرق كثيراً إلى المسائل الكبيرة، لكن كلاً منا سُرّ بكوننا معاً من وقت إلى آخر، وكلما ضممت أحد أولادي إليّ، أحسست أني أحلق إلى السموات العلى، حيث أنظر دوني فأرى مشاهد تجل عن الوصف.

إنه الأمل يشع حولنا ويشيع، وفي حين يخيب الطلاق آمالاً كثيرة، وربما حطم الأمل كله، فإن ثمة أنواعاً من الطلاق تترك مجالاً لبعض الآمال، وبعدما عجزت وزوجي عن حل مشاكلنا بمفردنا سعينا إلى نصح المختصين، وذلك أعان كلاً منا على تأكيد ثقته بنفسه وبكونه فرداً صالحاً، وإن تكن العلاقة في ما بيننا غير سعيدة، لقد حلمنا معاً ذات يوم، وفي إمكاننا اليوم أن نبكي أسفاً على موت ذلك الحلم. لكن المهم أننا استطعنا تدبر أمر طلاقنا بحكمة، حتى توصلنا إلى اتفاق مدروس لمصلحتنا نحن الإثنين

ومصلحة أولادنا الثلاثة، وهنا بعض نقاطه: لقد اتخذنا تدابير عملية بالنسبة إلى كلينا، وإن لم تكن غير تقليدية، واتفقنا على أن يبذل كل منا قسطه في تربية الأولاد، على رغم اختلاف آرائنا في هذا النطاق، إلا أن ذلك الإختلاف لم يسبب مشكلة للأولاد أو لنا، وبقيت أذكر نفسي بأن هذه الحرية يجب أن ننعم نحن بها كذلك، فلزوجي حياته الخاصة، ولي أنا حياتي، أما أولادنا فلنا معاً. إذ انظر اليوم إلى سنوات طلاقي، أجد أن نصف السنة الأولى كان بمثابة شهر عسل نعمت خلاله مع أولادي بالمحبة والفرح، وكانت أحاديثنا متعة لنا جميعاً، واكتشفنا تجارب وزوايا جديدة من حياتنا. غير أن القلق بدأ ينتابني مع دنو الشتاء، فالطلاق يؤذي كل من يأتي في نطاقه، وقد تبين لي أن أولادنا لم يسلموا من ذلك الأذى، وبدلاً من التعبير عن همومهم تحت سقفٍ واحد، راحوا يتنقلون بين منزل أبيهم ومنزلي للتنفيس عن تلك الهواجس، وأهم ما في الأمر فقدان أملهم بالمحبة المثالية التي تعهدت وأباهم على تأمينها لنا جميعاً.

ورأيت أول الأمر أنه من الضروري أن أفعل شيئاً، أن أقدم على خطوة ما، وسرعان ما أدركت أن تلك الخطوة ينبغي أن تكون الإصغاء، فعندما يكون المرء شديد الإضطراب، يحتاج أن يصغي أحد إليه أكثر من حاجته إلى أي أمر آخر؟ لذلك رحت أصغي إليهم كما تمنيت على الدوام أن يصغي أحد اليّ، وتعلمت الكثير ممّا سمعته. لقد كان أولادي الثلاثة حانقين وقانطين، لكنهم لم يفقدوا قدرتهم على الكلام والتعبير عن ذلك، ولم تكد تنقضي عاصفة حتى تهب سواها، وبعد انقضاء السنة الأولى وجدنا أنفسنا نقف فوق أرض أكثر ثباتاً، وأظهر الأولاد موهبة لحل المشاكل والتصدي للصعوبات من الزاويه الحقة، وذات يوم أثرني وأعلنوا بفرح: إنك

وإبي مختلفان في ما تبتغيانه من الحياة، ونحن لا نعلم كيف استطعتما البناء كل هذه السنوات معاً. وتحدثنا عن المُثل والعهود وخوف السقوط وكل ما يعترض العلاقات من عراقيل، و لم نلبث أن وجدنا أنفسنا نقلب رسوماً تمثل ثلاثة أجيال من عمر عائلتنا، ثم خضنا في حديث في تجربة كل منا، وعن أسباب السعادة والتعاسة هنا وهناك.

وتطرقنا إلى التنوع الإنساني الذي تنطوي عليه العائلة، وحللنا خبرتنا في ضوء ذلك التنوع. بعد ذلك لم يبق الطلاق هاجساً في حياتنا وعاش كل من أولادنا الثلاثة حياته، وكان كل واحد منا يساعد الآخر ويعينه على النهوض كلما كبا. كما أن كل واحد فينا كان يشرك الآخرين في ابتهاجه. وانقضت سنوات ثلاث بيع خلالها المنزل القديم ووزع ثمنه بالتراضي، ووجد زوجي السابق امرأة أخرى، وعدل أولادنا مفهوم العائلة ليشمل زوجة أبيهم وأخواتهم الثلاث الصغيرات، وبقيت وأولادي تواقين إلى اختيار كل جديد، وانطلق كل منا في طريقة لهذه الغاية، وعاش كل منا حياته في أمكنه متباعدة، وظللنا على اتصال إلى ان باشرنا مرحلة جديدة بانتقالنا جميعاً إلى منطقة نيو إنغلاند على الساحل الشرقي للولايات المتحدة، وفي ليلة ضمتنا جميعاً إلى مائدة واحدة، أطلقنا عليها مائدة المحبة، وغمرنا شعور بالسعادة يفوق الوصف، ومد بوب ذراعيه وقال بجذل: "انظروا إلى هذه العائلة السعيدة" أجل، إنها معجزة صنعناها بأيدينا. إلا أننا لسنا منفردين في هذا المجال، فهناك سوانا من العائلات التي كسرها الطلاق، ثم استطاعت جمع أجزائها لتبني منها كُلاً جديداً، وتبدلت الأشكال، لكن الوحدة تحققت من جديد آخر الأمر، وبقيت العائلة عائلة، وهي في أحيان جاءت أقوى مما كانت في شكلها القديم. ولكن لا أريد أن يساء فهمي،

فيظن أني أتخذ من الطلاق قاعدة لتسوية كل خطأ في الحياة الزوجية، وإني وأولادي كنا نتمنى الوصول إلى سعادتنا الراهنة عبر هذا الطريق وعبر ابقاء الروابط الزوجية القوية، والحق أن أولادي يطمحون إلى زواج ثابت متين، وأتمنى أن تكون تجربتنا لقنتهم المبادئ الأساسية لجعل هذه الغاية ممكنة، ولإبقاء الأواصر العائلية حتى وسط ما يتعرضها من أزمات، وأن أملي كبير في أن يتمكنوا من ذلك.

أمام المواجهه الصعبة التي يفرضها المجتمع على المطلقة تجد نفسها في حاجة إلى الإرادة القوية والإعتماد على النفس، والثقة في قدراتها التي لا تقل بحال من الأحوال عن قدرات الرجل، وعلى كل امرأة تنتهي حياتها الزوجية بكلمة وورقة أن تتخلص من فكرة التحرك السريع لإيجاد رجل آخر حتى تتخلص من صفة المطلقة، إذ أن أغلب المطلقات اللواتي تزوجن بعد فترة قصيرة من طلاقهن حملن لقب مطلقات للمرة الثانية، ليس بالزواج فقط تحيا المرأة، والحياة أقصر من أن تضيعها في التفكير فيما مضى، الماضي أصبح ماضياً، والمستقبل قد يكون أجمل إذا عشنا الحاضر بواقعية وبتفاؤل!

وقصة سلمى التي كتبتها الأديبة "إقبال بركه" التي تحولت إلى عمل تلفزيوني دعوة للحياة والأمل توجهها بطلة القصة لكل أخوتها المطلقات، فسلمى امرأة طيبة جاهله "لا تقرأ ولا تكتب" وإن كان جهلها لم يمنعها من توفير الراحة لزوجها والإخلاص له ودفعه إلى الأمام حتى إذا نال أعلى الشهادات، وتبوأ أفضل المراكز بدأ يعيرها بجهلها ويسخر منها في كل مناسبة، وبعد أن حول حياتها إلى جحيم طلقها، ورحل عنها، وبدلاً من أن تستسلم سلمى للألم والحزن، قررت أن تتخلص من نقاط ضعفها التي أوصلتها إلى هذه النهاية! وحصلت على الشهادة الجامعية وباتت تتطلع

للماجستير والدكتوراه، وفي هذه الفترة عاد الزوج يطلبها وهو يتخيل أنها سترتمي تحت قدميه شاكرة له هذه المنه! لكنها رفضته.

لقد نضجت فكرياً وعرفت أنها في تلك الفترة لم تكن الجاهلة الوحيدة في بيت الزوجية، فهو رغم شهاداته الكثيرة لم يكن يقل عنها جهلاً.. فالعلم الذي لا يحمي صاحبه من الوقوع في الخطأ ولا يحصنه من صغائر الأمور والكبر والخيلاء لا يكون علماً دائماً أبداً. وخلاصة الأمر أن التعليم والعمل سلاحان لا غنى عنهما لأي امرأة تسعى إلى أن تحيا حياة كريمة.

انتهى زواجك وانت الآن مطلقة، ربما لست المسؤولة وربما ليس زوجك المسؤول أيضاً، ربما يكون القدر قد حمل لك المفاجآت التي استدعت الطلاق، ولكن من المهم جداً ألا تيأسي، فالأمر لا يعني نهاية العالم، قد يهمك أن تعرفي أن مثل هذا الأمر يحصل لمئات الألوف من السيدات في العالم (سُجلت مليون حادثة انفصال بالطلاق في الولايات المتحدة الامريكية فقط خلال عام ١٩٨٦).

كُلاً من هذا لا يعني أن الطلاق حادثة تستحق الإحتفال بها.. فهو تجربة مؤلمه ومخيفه، ولكنها، وهذا ما لابد من الإشارة إليه، أقل ألماً مما تعتقدين، فأصعب مراحلها تكون خلال الأشهر الستة الأولى.. وبعد ذلك تهون الأمور تدريجياً..والأفضل لك أن تتعلمي كيف تخففين من آلام الأشهر الستة الأولى.

إن أحد أفضل الطرق للنجاة من محنة الطلاق أن تتعلمي من تجارب النساء اللواتي اجتزن قبلك هذه المحنه، فمهما بدا الأمر مرعباً، قد يكون الطلاق فرصة لا يستهان بها لبناء حياة جديدة على أنقاض فشل مطبق من النوع الذي لم يعد ممكناً معالجته.

ويذكر كتاب "مطلقات لماذا" أن نساء كثيرات يشعرن "بالإنتماء" إلى الزوج خلال مرحلة الزواج والإرتباط به، ويخشين من مجرد فكرة التصرف وحيدات ومواجهة الحياة بمفردهن، ومثل هذه المخاوف تعتبر طبيعية في الفترة الأولى، والمطلوب العمل على تحقيق رؤية صحيحة، والعمل على استنهاض القوة الكامنة في النفس لمواجهة المسؤوليات المستجدة، ربما استغرق هذا وقتاً أطول مما ينبغي، وربما بدت الأمور أكثر سوداوية، والحياة أقل عدلاً، لكن هذا جميعه سيمر بمرور الأيام، وستحمله معه الهنيهات العابرة، أما الإستغراق في المخاوف والاستسلام لها (بدل القفز من فوقها) فهو لن يؤدي إلا إلى المزيد من إضاعة الوقت بالعذاب. وكلما راودتك فكرة حول "ماذا تتوقعين" خففي من السلبيات وعززي الايجابيات. الطلاق أبغض الحلال عند الله، آخر الحلول التي يلجأ إليها الزوجان عندما لا يكون هناك حل آخر للبقاء معاً، يتوقع الكل انه بداية جديدة للرجل ويتوقع الكل انه نهاية أكيدة للمرأة، وإذا كانت الديانات القديمة في الهند تقوم بدفن المرأة حيه عندما يتوفى زوجها، فإن المجتمعات العربية تصر على موت المطلقة معنوياً، ثم تندب حظها، ومع ذلك فإن الحياة لابد ان تستمر بعد الرجل أي رجل، والقلب لا يكف عن الخفقان بجرة قلم، وشاهدين. فحياة المرأة قد تبدأ بعد الطلاق، وقد تكون أسعد بكثير من حياتها السابقة إذا ما أتيحت لها الفرصة لاسترداد ثقتها بنفسها والتخلص من الوهم القائل: "نار الزوج ولا جنة الاهل".

وهناك مطلقات أكدن في عدة بحوث واستبيانات قام بها علماء الاجتماع ان الطلاق لم يكن بالنسبة لهن سوى بداية لحياة جديدة سعيدة ومستقلة وأكثر أمناً ورخاء، ومن بين المطلقات اللاتي لم يكتشفن أنفسهن

وقدراتهن الحقيقية إلا بعد الخروج من ظل الرجل إلى ضوء الشمس، اخترت نموذجاً واحداً من المئات اللاتي تطوعن للبحث العلمي، مع العلم بأن هذه النماذج تعيش في مجتمع يختلف عن مجتمعنا ويتمتعن بفرص افضل للعيش والتعايش مع اوضاع افضل، حيث لا يلاحقهن أحد بنظرات الشك والريبه، ولا تدفعهن الاتهامات إلى التقوقع في الزوايا المظلمه وكأنهن ارتكبن إثماً ليس بعده إثم، هذه النماذج تعيش في مجتمع حققت فيه المرأة الكثير في مجالات العمل والاستقلال الاقتصادي، إضافة إلى وجود المؤسسات والجمعيات والمراكز الخاصة التي تقدم العون والدعم للمتضررات من مؤسسة الزواج أو الهاربات منه، ويكون هذا الدعم عادة معنوياً ومادياً، وتندمج مئات الأصوات التي اجرى عليها البحث لتكون صوتاً واحداً يردد بثقة لا لبس فيها: ليس بالزواج فقط تحيا المرأة وحياتها أغلى من ان تدع غيرها يتخذ قرار تجميدها كيفما شاء، والتعليم والعمل سلاحان لا غنى عنهما لأي امرأة تسعى لأن تحيا حياة كريمة، والنموذج المختار من بريطانيا لمطلقة تدعى "باتسي؛ مضى على طلاقها عشرة اعوام .

وتحكي باتسي عن تجربتها فتقول: إن صدمتها الحقيقية لم تكن في الطلاق، ولكن لان زوجها اختار اقرب صديقاتها لتكون شريكة له بدلاً منها، ولكنها تجاوزت هذه الصدمة، واستطاعت بعد أربع سنوات ان تصبح من أنجح المنتجات في التلفزيون البريطاني، وتعيش سعيدة مع أبنائها الثلاثة الذين رزقت بهم من زواجها الفاشل .

وتعود باتسي إلى بداية علاقتها بمطلقها، تؤكد انها عندما تزوجته كانت تعتقد انها محظوظة جداً، لأنها اقترنت بزوج مثالي ووسيم للغاية، وهي ليست سوى زوجة عادية، ولكنها اكتشفت بعد الانفصال انها اكثر

نجاحاً وجاذبية مما كانت تعتقد وهي متزوجة، وان شعورها بالأمان افضل مما كان، إذ اعتاد زوجها التقليل من مميزاتها ووصفها دائماً بالجمود والكآبة.

وتستطرد باتسي: بعد الطلاق أدركت انني عكس ما كان زوجي يعتقده وما أرادني تصديقه، أدركت أنني متفائلة، وأنني أبدو منطلقة وظريفة أيضاً.. وكان ميلي للفكاهه "قارب النجاه" الذي ألجأ إليه كلما ضاقت بي السبل وأظلمت الدنيا أمام عيني.. بل أن هذا الميل كان وما يزال القوة الدافعة التي تعينني على تجاوز أي مشكلة أتعرض لها، إنني الآن أحسن حالاً، ولا أفتقد الرجال، لأنهم كثيرون لمن تريد الزواج، بل ان المرأة أكثر اطمئناناً بعد الطلاق من وجهة نظري، لأنها ليست مضطرة إلى مطاردة الرجال خوفاً من ان يفوتها قطار الزواج، كما تفعل معظم البنات اللواتي لم يتزوجن بعد .

إن كلمات باتسي تحمل بعض العزاء لكل الأخوات المطلقات اللواتي عانين قبل الطلاق وبعده، فبعد استلامهن ورقة الطلاق الموثقة من المحكمة يعشن رهينات لورقة أخرى شفوية موقعة من الاهل والأقارب والمجتمع، ورقة بمثابه حكم يمنعهن من حرية التحرك والتصرف والعيش من جديد، ومع ذلك فإن الحياة شيء رائع يستحق محاولة التخطيط وترتيب الأوراق القديمة والجديدة والإستمتاع بها والأروع أن لا نسمح لأي كان بأن ينهي حياتنا ما دمنا أحياء.

ألقت فيها بكل ما تملكه وهو أزهى سنوات العمر.. وخسرت كل عمري، وأريد أن أفلت بالباقي من شبابي..

المحتــويات

٣٠٦,٨٩ وداد عبد اللطيف الكواري

خلف كل طلاق حكاية/ وداد عبداللطيف الكواري. -

الدوحة : المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث، ٢٠٠٢

٢٨٣ص ؛ ٢٢ سم

رقم الايداع بدار الكتب القطرية : ٢٣ / ٢٠٠٢

الرقم الدولي (ردمك) : ٧ - ٦٥ - ٢٠ - ٩٩٩٢١

رقم الايداع بدار الكتب القطرية
٢٣ / ٢٠٠٢م



ص.ب: ١٤٥ - الدوحة - قطر - تليفون: ٤٨٠٣٤٠٤


المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث
إدارة الثقافة والفنون
الدوحة - قطر